المقتطف

الجزء الاول من المجلد الثالث والتسعين

١ يونيو سنة ١٩٣٨ — ٢ ربيع الثاني سنة ١٣٥٧

ظواهر الجو واحواله

أيُتاح للعلماء جمع ما يكفي من الحقائق للتنبؤ بها تنبوءاً يُعتمد عليه ؟

يندر بين مباحث العلم الحديث ما هو اوثق اتصالاً بأعمال الحياة اليومية من البحث في احوال الجوّ. فالطيارة التي يجب ان تقوم برحلة منتظمة على خط معين يهم قائدها وراكبها ان يعرفا ماينتظر ان يكون عليه الجو في خلال الرحلة. والمسافر باخرة يهمهُ — اذا كان ممن يصابون بالدوار — ان يعرف هل ينتظر ان يكون البحر هائجاً مائجاً فصل الربع او ساكناً رهواً. والزارع المقيم في الاصقاع الباردة يود ان يعرف هل يكون الربيع دافئاً والصيف معتدلاً، والقاطن في الاقطار الحارة يرغب في ان يعدهُ العلماء بما يتوقع في الصيف المقبل. ولعل اول ما تتجه اليه انظار القراء في هذه البلاد في اثناء فصلي الربيع والصيف، عند قراءة الصحف، هو انباء الحالة الجوية كما تذاع من مصلحة الطبيعيات بالحكومة المصرية

ومن المعروف ان استطلاع احوال الجوّ بالوسائل الحديثة لا يمكّن العلماء من توقع الحالة الجوية توقعاً دقيقاً يمتد الى اكثر من يوم واحد. اما التنبؤ بمستقبل الحالة الجوية في الاسبوع القادم او الشهر القادم فيكاد يكون في منزلة التنجيم والكيمياء القديمة. ولكن هذا لا يمنع ان التنبوء بمستقبل الاحوال الجوية كان ولا يزال عملاً يستوقف النظر ويسترعي العناية ولا يندر ان يدر الثروة على بعضهم. حتى ان البيولوجي الفرنسي لامارك كان يعتقد أن حركات القمر تسيطر على احوال الجو. وقضى عشر سنوات في مستهل القرن التاسع عشر، ينشر كل سنة

كتاباً او تقويماً يضمنهُ ما يتوقعهُ من احوال الجو خلال السنة بناء على قاعدته هذه . وفي مطلع سنة ١٨٣٧ تنبأ كاتب يدعى بارنبك مرفي بأن درجة الحرارة في يوم ٢٠ يناير من سنة ١٨٣٨ ستكون أعلى درجات الحرارة في الشتاء كله ، فلما صح ما قال وأذاعت الصحف ذلك عظم الاقبال على تقويمه وجنى من ذلك ثروة لا بأس بها . فالموضوع على ما ترى يستهوي اللب من ناحية وهو شديد الاتصال بالحياة العملية من ناحية اخرى . فهل يتركه رجال العلم في ديجور الوهم ، او يرفعونهُ الى مستوى العلم الدقيق ، وهل في وسعهم ان يفعلوا ذلك ؟

كان همّ العلماء في مستهل القرن العشرين أن يتبينوا الحقائق الطبيعية التي تبيّن أحوال الجوّ ، لعلّهم يستطيعون ان يتوصلوا من طريقها ، الى وسيلة تمكنهم من التنبوء بالظواهر الجوّية شهوراً قبل وقوعها

في مقدمة العلماء الذين أقبلوا على دراسة هذا الموضوع عالم اميركي يدعى تشارلز جريلي أبوت Abbot . كان والد أبوت انكليزيّ الاصل هاجر احد أسلافه الى أميركا في منتصف القرن السابع عشر . وكان يملك مزرعة في احدى الولايات الشمالية الغربية في أميركا وجلّ ما يشناهُ ان يأخذ أبناؤه عنهُ أصول الزراعة العملية ، لكي يعنوا بهذه المزرعة بعد ان تقعده الشيخوخة . لم يكن ابنهُ تشارلز من المولعين بالدرس ولكنهُ مع ذلك كان غير مولع أيضاً باعمال الحقل . فلما أتم دراستهُ الابتدائية ذهب الى مدرسة عالية في اندوفر . وفي سنة ١٨٩٠ سافر صحبة فريق من رفاقه الى مدينة بوسطن ، وكانوا يريدون التقدم لامتحان الانتظام في معهد بوسطن التكنولوجي ، فتقدم للامتحان معهم مع انهُ لم يكن قد استعدّ لهُ ولما علم انهُ جاز الامتحان منحهُ والده وأختهُ — وكانت معلمة — ما يكفيه على قلة ، للانتظام في ذلك المعهد

كان أبوت في حداثته يميل الى الاعمال الميكانيكية ولذلك كان شديد الميل الى الهندسة الميكانيكية . إلاّ رفاقهُ انتظموا في قسم الهندسة الكيميائية فجاراهم وظلّ على ذلك حتى أشار عليه احد أساتيذه بدراسة الطبيعة لما بدا عليه من دلائل النجابة في موضوعها . ومضت عليه سنتان وكان في احد الايام معنيًّا ببحث في أحد المعامل اذ أقبل عليه رجل في بذلة رسمية وقبعة عالية . فدهش الفتى حين علم انه زائر من [illegible] العالم الكبير Langley سكرتير معهد سمثسونى الاميركي . وكان لنلي من أشهر الاميركيين في ذلك العهد ، لانهُ كان في مقدمة الذين حاولوا الطيران بآلة أثقل من الهواء . وكان سرّ تلك الزيارة ان مجلس الجامعة كان قد أنبأ لنلي بعبقرية هذا الشاب فجاء اليه يراهُ ويحدثه قبل ان يدعوه للعمل معهُ في المرصد الفلكي الطبيعي التابع للمعهد . وسرّ لنلي بما رأى فما عاد الى وشنطن حتى أبرق الى أبوت يدعوهُ اليه

عندما وصل أبوت الى مكتب المعهد بوشنطن كان لنلي قد سافر الى أوروبة . فاذا الشاب

الباحث بين لبلة وضحاها مدير للبحث الفلكي الطبيعي في معهد كبير . وكان ذلك في سنة ١٨٩٥

كان لنغلي قبل ذلك بنحو أربع عشرة سنة قد انشأ محطّاً في جبل وتي بكاليفورنيا الغرض منهُ وضع بيان لذلك الجزء من طيف الشمس الذي يقع تحت اللون الاحمر . وكان قد بدأ تجاربه لقياس الفعل الحراري في هذه الاشعة ؛ بجهاز اخترعهُ وسمّاه « بولومتر » Bolometer وكان قلب هذا الجهاز سلكاً مسودّاً من البلاتين يمتص حرارة الطاقة المنصبة عليه فيولّد تياراً كهربائيًا يزيد وينقص وفقاً لقوة الطاقة المنصبة . وكان في قدرة هذا السلك الكهربائي ان يميّز تغيراً في درجة الحرارة يبلغ جزءًا من مليون جزء من الدرجة

ما الغرض من هذا القياس ؟ كان لنغلي عالماً زكناً فكتب في سنة ١٨٩٤ « إذا كان رصد حرارة الشمس التي تتصل بالارض من أصعب المشكلات في الطبيعيات الفلكية فهو كذلك المشكلة الاساسية في علم الظواهر الجوية meteorology ». وكان رأيهُ انا اذا عرفنا المقدار الاصلي مما يتصل بنا من حرارة الشمس ونوعه وكيف يؤثر في طبقات الهواء وما يتصل منهُ بالارض وكيف يؤثر في حرارة الارض بواسطة الغشاء الغازي الذي يحيط بالكرة الارضية ، وما يرتد من هذه الحرارة الى الفضاء — إذا عرفنا كلّ ذلك أصبح في قدرتنا ان نتنبأ بأحوال الجوّ

ولكنهُ أدرك ان معرفة مقدار حرارة الشمس في الاصل ، قبل ان يمتصها الجوّ ويفرقها عمل صعب الصعوبة كلّها ، لان ما يصل منها الى الارض ليس إلاّ بقيةً مما خرج من الشمس أصلاً على بعد ٩٣ مليوناً من الاميال منا. ومع ذلك حاول لنغلي ان يقيس المقدار الكامل لحرارة الشمس قبل دخولها جوّ الارض. وهذا المقدار يشار اليه عادة باسم « الثابت الشمسي » Solar Contan واذاً فالقياس لا يجب ان يقتصر على الاشعة التي تحت الاحمر بل يجب ان يشمل طيف الشمس كلهُ

كان العالم الفرنسي پوييه Pouillet قد قدّر « الثابت الشمسي » في سنة ١٨٣٨ بوحدة حرارية واحدة و٧٦٣٣ر من الوحدة لكل سنتمتر مربع في الدقيقة . وهذا يعني أنا إذا أخذنا طبقة من الماء مساحتها سنتمتر مربع واحد وعرّضناها فوق الغلاف الغازي الذي يحيط بالكرة الارضية لاشعة الشمس امتصّ الماء من حرارة الشمس ما يرفع حرارتهُ ١ر٧٦٣٣ وحدة حرارية كلّ دقيقة . فهل هذا القياس صحيح ؟ ان العالم قد تقدم منذ عهد پوييه وإذن فلا بدّ من اجراء تجارب لتمحيص قول العالم الفرنسي . وكانت النتيجة التي اسفر عنها بحث لنغلي، أن الثابت الشمسي يبلغ نحو وحدتين حراريتين للسنتمتر المربع في الدقيقة

وقد عرّفت دائرة المعارف « الثابت الشمسي » بقولها أنهُ « مقدار الطاقة الواقعة عموديًا في دقيقة واحدة على سنتمتر مربع من مساحة موقعها خارج جوّ الارض »[1] وقد قدّر هذا

(١) ج ٢١ من دائرة المعارف البريطانية الطبعة ١٤ صفحة ٦٣٥

الثابت الشمسي بحسب مباحث أبوت ومقاييسه ١٫٩٤ من الوحدة الحرارية ولكنهُ يتفاوت تفاوتاً يسيراً وفقاً لعوامل شتى منها الكلف الشمسية

وجاء في الصفحة ٣٩٩ من المجلد الثامن عشر ان « الثابت الشمسي » يتفاوت بحسب قياس أبوت من ١٫٩٠ من الوحدة الحرارية الى ١٫٩٨ منها

واذ كان أبوت قائماً بهذه المباحث في سنة ١٩٠٣ في مدينة وشنطن العاصمة ظهر لهُ من حقائق الرصد ان فيها ما يشير الى هبوط متوسط حرارة الشمس بنحو عشرة في المائة عن المتوسط المألوف . وبدا لهُ ان هذا الهبوط مستمر بزعة . وكان على رشك ان يصرف النظر عن هذه الظاهرة اعتقاداً منهُ ان حالاً غير طبيعية في جو الارض حجبت من ضوء الشمس في منطقة وشنطن مقداراً أعظم مما يحجب عادة . ومن حسن الطالع انهُ لم يفعل بل أعاد النظر في ما لديه من الحقائق مقابلاً بين ارصاد حرارة الشمس في تسعة وثمانين محطًّا من محطات الظواهر الجوية ، منتظمة في خدمة الشمالية المتدلة ، في الفترة التي لاحظ فيها القيس بوشنطن ، وبين أرصادها السابقة . فدهش عند ما علم ان متوسط الحرارة هابط كذلك في جميع هذه المحطات عن متوسطه في السنوات السابقة . وكان متوسط الهبوط درجتين بالمقياس المئوي . وظلَّ متوسط الحرارة هابطاً بقية تلك السنة . فهل هذا مجرَّد اتفاق ؟ والواقع ان العلماء يقيمون أكبر وزن لما يقينونهُ من شذوذ عن الاحوال السوية لانهُ قد يهديهم الى حقائق مجهولة . فحدَّث أبوت رئيسهُ لنغلي في الموضوع . وكانا كلاهما يتوقع شيئاً من هذا فعزَّزت الارصاد ما توقعا . وفي شهر يونيو من سنة ١٩٠٤ أعلنا ان الشمس قد تكون نجماً متغيراً وان مقدار اشعاعها ليس ثابتاً . وهذا في حد ذاته رأي جريء . ولكن العلماء دهشوا عند ما عقب العالمان الاميركيان على تصريحهما الاول بأن التغيُّر في درجات الحرارة على الارض ، واذن فالتغيُّر في احوال الجوّ ، يتصل اتصالاً وثيقاً بهذا التغير في مقدار اشعاع الشمس

أيتهيأ هذا القرن على ان أبوت كشف شيئاً جديداً يمكن العلماء من التنبؤ بأحوال الجوّ ؟ وهل عثر حقيقةً على ما كانوا يهدون في هذا السبيل الوعر ؟ وهل يمكن ان يقيس التغيُّر اليومي في مقدار اشعاع الشمس ، كما قال ، فيكون عليه الجو غداً وبعد غد في الاسبوع القادم ؟ أيستطيع علماء الظواهر الجوية ان يبنوا على هذه القاعدة أقوالاً يبشرون بها الى الزرَّاع مثلاً لكي ينظموا اعمال زراعاتهم في الفصل المقبل على أساسها ؟

هذه هي الاسئلة التي خطرت للذين قرأوا اذاعة أبوت ولنغلي . الا ان أبوت كان طالما حذراً فلم يندفع في تيار الظنون ، ولا بنى عليها الخلافي والتصور ، ولم ينبه كاذب الا زفي صدور الناس الذين تهمهم معرفة أحوال الجوّ آناً وأسابيع قبل وقوعها الا بعد كشفهُ إياه في نفسه

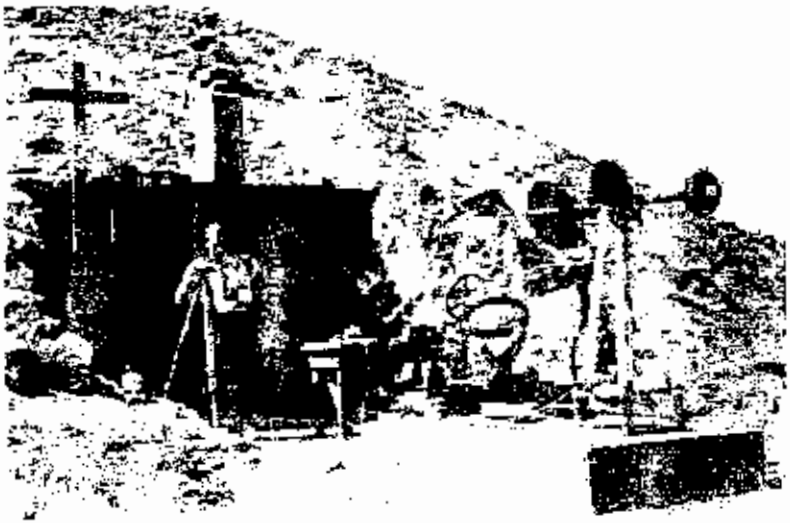

محط رصد الثابت الشمسي على قمة موتيزوما ببلاد الشيلي حيث الارتفاع
٩٠٠٠ قدم فوق سطح البحر

محط رصد الثابت الشمسي على جبل سنت كاترين في سينا
المرصد على الدير وسكن اسفله بين القسيسين والارتفاع ٨٥ قدم فوق سطح البحر

الخاصة فاندفع في دراسة هذه الظاهرة وما يلابسها ثلاثين سنة متوالية ، لعله يتخذ الى السر في التنبؤ بأحوال الجو وما يجب ان تكون عليه في الاسبوع القادم او الشهر القادم . الا انهُ لم يتهادَ في تعاوله بما تمَّ لهُ ويمكن ان يتم فكتب: «ومع اننا لانزال بعيدين عن التنبؤ بتقلبات الجو البعيدة التي تؤثر في الحاصلات فليس بكثير علينا ان نقول إنهُ يبدو لنا اننا سائرون في الاتجاه الصحيح »

ومن ثمَّ أقبل أبوت ورفاقه على البحث بغية جمع حقائق أوفر . وفي سنة ١٩١٠ استنبط جهازاً دقيقاً لقياس « الثابت الشمسي ». والواقع ان هذا الجهاز لم يكن جهازاً جديداً بكل معنى الجدَّة لانهُ كان الجهاز الذي استعمله بويه الفرنسي ، فأخذه أبوت وأتقن صنعهُ وأضاف اليهِ اضافات متعددة فأصبح وكأنهُ جهاز جديد . وقوام هذا الجهاز مقياس للحرارة مثبت في ثقب في قرص فضي وقد طلي سطح القرص بمادة سوداء لكي يمتص كل الحرارة الواقعة عليهِ . وطريقة استعمالهِ ان يوجه الجهاز الى الشمس رأساً فتسقط أشعة الشمس في الانبوب سقوطاً عمودياً على القرص مدَّة ماثة ثانية . ثم يدوَّن مقدار ارتفاع الحرارة في المقياس ، ويقابلهُ بمقدار ارتفاعهِ قبل ذلك وبعده . وعلى هذا الجهاز الاعتماد في قياس الثابت الشمسي كل يوم في مدينة وشنطن . ثم دعاه العلاَّمة هايل الى جبل ولسن بكاليفورنيا ، حيث المرصد المشهور لقياس حرارة الشمس هناك . وكان أبوت قبل ذلك قد خلف لنغلي مديراً للمعهد السمثسوني في سنة ١٩٠٦

وبعد ان قام بهذا العمل المضني الدقيق الخالي من روعة الجدَّة ، في مرصد جبل ولسن ، رأى انهُ لا بدَّ لهُ من ان يقابل أرصاداً بأرصاد اخرى يقوم بها على قمة جبل آخر . وكان يستطيع ان يفعل ذلك على احدى قنن المكسيك ، ولكن الثورة كانت تجتاحها فجمع أمتعتهُ وأجهزتهُ وذهب الى بلاد الجزائر لكي يستوثق من ان التقلبات التي تبينها في ارصاده على قمة جبل ولسن ليست متأثرة باضطرابات محلية في الجو . وكانت أجهزتهُ تملأ ثلاثين صندوقاً . فأنشأ المحطة في أحوال جوية مرهقة وأقام هو واندرس الفستروم السويدي يقيسان حرارة الشمس عشرة أشهر متوالية . ولولا ثورة بركان كاتماي في الاسكا لأطالا اقامتهما في الجزائر . ذلك ان ثورة هذا البركان نفثت في جوّ الارض مقداراً عظيماً من الغبار الدقيق ، اتصل أثرهُ البالغ بجوّ الجزائر فجعل كلّ قياس لحرارة الشمس في هذه الاحوال قياساً فاسداً لان هذا الغبار كان يحجب جانباً غير يسير من حرارة الشمس . ومع ذلك أسفرت أرصاد الجزائر — الى ان ثار بركان كاتماي — عن تأييد النتائج التي دلَّت قبلاً في وشنطن وجبل ولسن على تقلب في حرارة الشمس

وكان قد جمع لديهِ من الحقائق في سنة ١٩١٣ ما حمله على اصدار تصريح مؤكداً فيهِ رأيه بوجود صلة بين التقلب في حرارة الشمس وبين أحوال الجوّ على الارض . اي ان الحرارة على الارض تنخفض وفقاً لقلَّة الحرارة المنبثة من الشمس

قوبل هذا التصريح بكثير من النقد ، وكان الحجة الاولى في تقدم شك الطماء في ما للهواء من شأن في امتصاص اشعاع الشمس . فقال بعضهم ان أبُوت استصغر شأن الجوّ في امتصاص اشعاع الشمس وأن الثابت الشمسي يجب ان يكون ضعفي ما يقول . وهذه مسألة في الوسع تحقيقها . فعمد في السنة التالية الى بلونات مقيَّدة صغيرة رفع فيها جهازه المشهور لقياس الثابت الشمسي ، بعد ان اضاف اليه ما جعلهُ ذاتي التدوين ، واطلقها في ولايتي اوماها ونبراسكا الى اعلى طبقات الجوّ ، فلما عادت البلونات والاجهزة الى الارض ، ودرس ما دوّن فيها ، ثبت ان قياس أبُوت كان دقيقاً وان قياس حرارة الشمس من فتن الخيال كافٍ لهذا الغرض

لقد انقضت عشر سنوات منذ لاحظ أبوت تلك العلة الظاهرة بين التغلُّب في اشعاع الشمس وبين حرارة الارض . ومع ذلك لم يخرج من تلك الملاحظة شيء جديد يستطيع علماء الظواهر الجوية ان يبنوا عليه قاعدة تمكنهم من التنبوء باحوال الجو تنبوءًا بعيداً دقيقاً . ومع ان مصلحة الظواهر الجوية في اميركا كانت قد انشئت سنة ١٨٧٠ لم تفز من مباحث أبوت بما زاد رجالها علماً ، فمضت في طريقها المألوف تذيع ما تتوقعهُ من احوال الجوّ في الاربع والعشرين الساعة التالية

كانت هذه الاذاعات الرسمية قائمة في اميركا كما هي قائمة في مصر ، على تحليل عوامل الاحوال الجوية كضغط الهواء ، ومستوى الحرارة ، وسرعة الريح واتجاهها ، ومقدار المطر والثلج . وكان في طول الولايات المتحدة الاميركية وعرضها ، وكذلك الاسكا وجزائر الهند الغربية ، ثلاثمائة محط رسمي وسبعمائة محط متطوّع يجمع رجالها الحقائق المتعلّقة بالعوامل التي تقدم ذكرها ، ويبعثون بها بالوف الى مكتب الجوّ الرسمي في واشنطن العاصمة ، فيستخلص منها العلماء احوال الجوّ المحتملة في الاربع والعشرين الساعة التالية ويذيعونها

ظلت هذه الطريقة في سنة ١٩١٣ على ما كانت عليه في سنة ١٩٠٣ لم تفز من مباحث أبوت بشيء جديد . ومع ذلك ما زال العالم متلهفاً الى العثور على طريقة دقيقة تمكن العلماء من التنبوء الدقيق البعيد المدى باحوال الجوّ . اما أبوت نفسهُ فكان لا يزال على اعتقاده وهو انهُ سالك للسبيل الصحيح . ولكن مؤيديه كانوا قلةً لا كثرة

الا ان انباءً من لارجنتين بدأت تتطرّق الى مكاتب العلماء المختصين بجوال الجوّ ، مؤيدة ما قالهُ أبوت . وكان اول ما سمع أبوت بذلك في سنة ١٩١٧ اذ تلقى كتاباً مطوّلاً على ما يلي : «في طيه نسخة من رسالة بسطت فيها نتائج المقابلة بين قياسات أبوت الشمسية ، وبين درجات الحرارة والضغط في شتى انحاء العالم» وكان أبوت قد تعوَّد ان يتلقى رسائل تشتمل على مشروعات شاذة ومقترحات غريبة لحلّ اعقد المسائل العلمية باسهل الاساليب ، فأقبل على قراءة هذه الرسالة والريب يساورهُ . ولكنهُ ما كاد يتقدم في مطالعتها حتى ثبت لهُ انها بحث عالم محقّق وقد كان

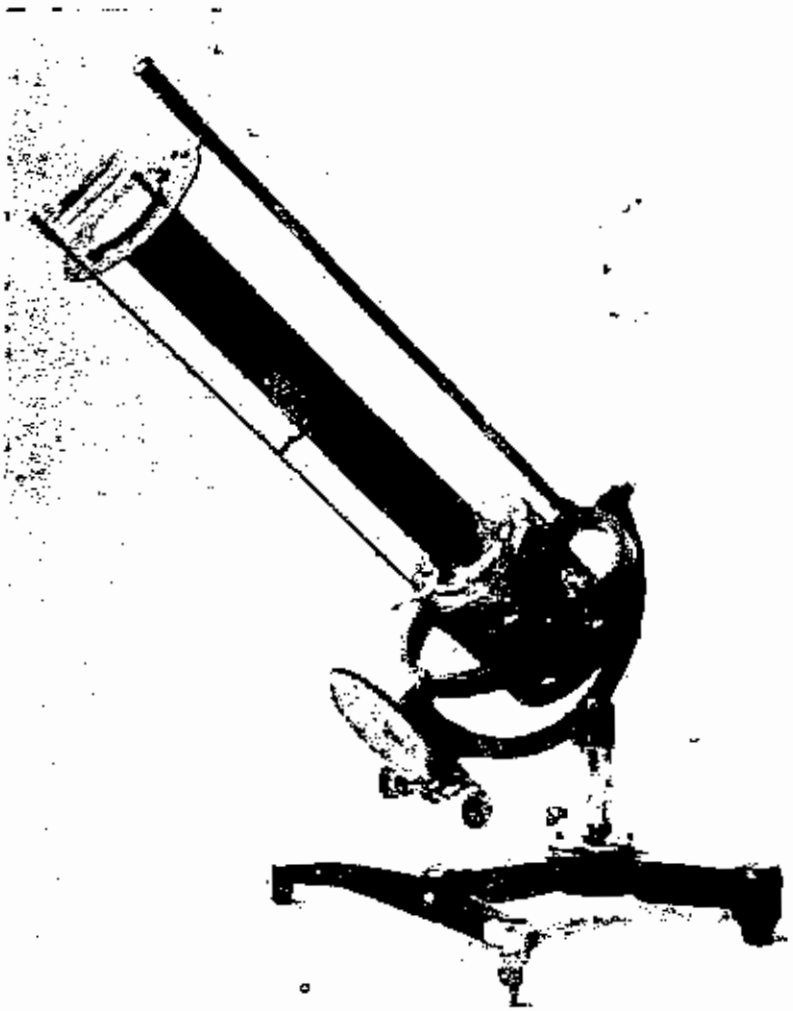

الجهاز الذي صنعهُ أبيوت لقياس الاشعة الشمسي ويعرف باسم جهاز « القرص الفضي » واسمه العلمي بيرهيليومتر Pyrheliometer

مدارها تحليلاً دقيقاً لتأثير التقلب الاشعاعي الشمسي — الذي قال به وقاسهُ — في درجات الحرارة والضغط على الارض ، فأعجب بها واشار بنشرها حالاً « بالصور والرسوم البيانية »

كان واضع هذه الرسالة ، الذي اثبت بها صلة لا تنكر بين التقلب في اشعاع الشمس واحوال الحرارة والضغط على سطح الارض رجلاً اميركيًّا يدعى هنري هلم كلايتون Clayton مدير محط الظواهر الجوية بالارجنتين . وقد كان عند بعث برسالته هذه الى المعهد السمثسوني في السادسة والخمسين من عمره قضاه منذ كان ابن سبع عشر سنة ، في دراسة احوال الجو ورصدها

فلما كان كلايتون في الثالثة والعشرين ، اشير في المجلة الاميركية للظواهر الجوية ، مقالاً استرعى انظار بعض العلماء فعين مساعداً لمدير المرصد بجامعة هيفن . ثم انتقل لمرصد هارفرد فبقي فيه خمس عشرة سنة قام في خلالها بدراسة دقيقة للغيوم وعلاقتها بتيارات الهواء في طبقاته العليا . واخترع جهازاً من نوع المطيَّرات التي يطيرها الصغار ولكنهُ جعلها في شكل صندوق يحتوي على اجهزة متنوعة لقياس الظواهر الجوية . وبعد ما اشترك في بحث دولي لدراسة مهاب الرياح في شمال المحيط الاطلنطي نُدب في سنة ١٩١٠ لتدريب رجال محط الظواهر الجوية بالارجنتين . وفي سنة ١٩١٥ عثر على رسائل تحتوي على أعمال أبوت فاكبَّ عليها ووجد تلك الصلة الوثيقة بين ما وجده ابوت من تقلُّب في اشعاع الشمس ، وبين درجات الحرارة والضغط في مواقع مختلفة على سطح الارض . فآمن بان احوال الجوّ مرتبطة بمشاهدات أبوت

عندما تلقى أبوت رسالة كلايتون كان مشغولاً بمسائل اخرى لا تتعلق بالشمس . ذلك ان الحكومة الاميركية كانت قد خاضت غمار الحرب ، فدعتهُ كما دعت غيره من العلماء لبحث الشؤون العلمية والصناعية الخاصة بالقتال . وكانت مهمتهُ ان يتقن صنع الانوار الكشَّافة المستعملة ضدَّ الطيارات لانهُ كان من اخبر الخبراء بالرايا والمصابيح . الاَّ انهُ في خلال بحثه هذا ، كان ذهنهُ مشغولاً ، على وعي منهُ وعلى غير وعي ، بتلك العلاقة بين تقلُّب الاشعاع الشمسي واحوال الجوّ على الارض . وكان يؤمل ان يتاح لهُ قريباً انشاء محطات للرصد يمكنهُ ارصادها من امتحان تلك العلاقة . ولم تكد تشرف الحرب على ختامها حتى فاز بانشاء المحط الاول في كاسوما بجمهورية التشيلي ، حيث صفاء الجوّ يؤاتي هذا النوع من الارصاد

كان بحث كلايتون قد استرعى نظره واستوقف اهتمامهُ فرغب في ان يشاطره سعيهُ على المضي فيه . وفي سنة ١٩١٨ اشترك في سعي لامتحان رأيه . فانشأ انستيتو الارجنتيني بتأييدها . وشرعا في جمع الحقائق في محطي الارجنتين والتشيلي . واتفقا على ان يرسل رجال المحط التشيلي — القائم على جبل ارتفاعه ٧٥٠٠ قدم فوق الصحراء — قياسهم للثابت الشمسي بالتلغراف كلَّ صباح . ولم يكن هذا بالعمل السهل ، لان استخراج الثابت الشمسي كان يقتضي عمليات رياضية

دقيقة طويلة . فاخترع ابوت طريقة سريعة وضع لها جهازاً خاصًّا دعاه Pyranometer وبذلك تمكن رجلان مدربان في محطة شيلي من القيام بمئات من الارصاد واستخراج الثابت الشمسي منها وابراق ارقامها الى محط الارجنتين كلَّ صباح . وكانت النتائج التي اسفرت عنها هذه الارصاد مؤيدة لرأي أبوت وكلايتون . وسلمت حكومة الارجنتين بها وبنت عليها بياناً لاحوال الجو كانت تنشره يوم الاربعاء من كل أسبوع فيشمل الاسبوع التالي كلهُ

الاَّ ان فريقاً غير يسير من العلماء لم يسلم بأقوال هذين العالمين وكانت حجة هذا الفريق انهم لا يفهمون كيف يمكن ان يُحدث تغيرٌ يسير يبلغ واحداً في المائة او اقل في اشعاع الشمس تأثيراً ما في أحوال الجو على الارض . وضرب أحدهم مثلاً على ذلك بقوله هبك في حجرة تضيئها مائة مصباح . أفترى فيها تغيراً يذكر في ضوئها اذا أطفىء احد هذه المصابيح . وأيد هذا الرأي عالم آخر ذو منصب رسمي ، يدعى همفريز ، فقال ان اقل العوامل تأثيراً في أحوال الجو ، هي العوامل التي مصدرها خارج الارض ، لانها يسيرة الفعل او ان فعلها لم يثبت ولذلك لا يلزم ان نعمل لها حساباً في التغيرات الجوية

الاَّ ان ابوت لم ينحرف عن جادَّته ، ومع انهُ لم يكن مقتنعاً الاقتناع كلهُ بصحة رأيه ، كان واثقاً بأنهُ سائر في الاتجاه الصحيح . فقال رداً على ما تقدَّم « يبدو أن تغيراً قدرهُ نصف واحد في المائة في اشعاع الشمس ، يستطيع ان يحدث تغيراً ظاهراً في احوال الجو . فقد يصحب التغير في اشعاع الشمس تغيرٌ في مقدار الغبم فيتضاعف التأثير ويتجمع . ثم إن التقلبات الشمسية تؤثر في الاشعة التي فوق البنفسجي ، وعليهِ فقد تغيِّر كثافة طبقة الاوزون . وهذه الطبقة من الاوزون قائمة على ارتفاع أربعين ميلاً فوق سطح الارض وهي عامل فعَّال في امتصاص الحرارة المنطلقة من الارض — بعد امتصاصها — الى الفضاء . فاذا قلَّت كثافة طبقة الاوزون مليمتراً ، فقد يكون ذلك كافياً لهبوط درجة الحرارة على سطح الارض هبوطاً غير يسير (١) . وعند ذلك تتأثر حالات الضغط الجوّي بتغيُّر درجات الحرارة . وكذلك يمكن ان يحدث تقلُّب عظيم الشأن في الظواهر الجوّية ... وبهذا قد يفسر تأثير تغيُّر يسير في إشعاع الشمس ، في أحوال الجوّ على الارض

ولم يقف ابوت عند هذا الحدّ . بل مضى يستدعي اكفَّ الاغنياء لينشىء المحطات الجوية بغية جمع اوفى قدر من الحقائق في شتى انحاء العالم : فأنشأها هنا وهناك وعندئذ ، وكان من نصيب مصر ان أنشىء فيها احد هذه المحطات ، في جبل سانت كاترين بصحراء سيناء سنة ١٩٣٢ وختم اعمالهُ في السنة الماضية لقلة المال اللازم للمضي في البحث

وكذلك ولد هذا العلم الجديد !

(١) راجع مقتطف ايلول ١٩٣٨ صفحة ٢٣٢

اثر الامراض

المتوطنة في كفاءة الجندي المصري

لدكتور محمد كامل عبد الغالي بك[1]

(١) مقدمة

يطلق الكثيرون آمالاً كباراً على مستقبل الجيش ، عند اتمام برنامج زيادة عدده وتغيير سلاحه وانشاء القوى الميكانيكية والقوى الجوية

ويرجع هذا التفاؤل الى الشهرة التي اكتسبها في الحروب التي اشتبك فيها في القرن الماضي منذ عهد قريب ولا يزال الجيل الحاضر يتندر باخباره نقلاً عن اجدادهم وآبائهم الذين شهدوا هذه المعارك في فلسطين وسوريا والاناضول واليونان والقرم وكريت وفتح السودان

وقد أبلى الجندي المصري في جميع هذه المعارك بلاءً حسناً حتى عند فتح الاستانة لولا تدخل الدول الاوربية . وليس عجيباً ان يتفاءل المصريون المعاصرون بمستقبل جيش هذا ماضيه القريب ، اعتقاداً منهم بأن العامل الأول يظل أمراً على الجندي المصري تغير ذو شأن في الاربعين عاماً الاخيرة التي انقضت على فتح السودان (سنة ١٨٩٦) . وقد اشتهر الجندي المصري في هذه المعارك بالصلابة والاقدام وقوة الاحتمال وعلى الاكثر على قلة الطعام بالقياس الى الجيوش الاخرى وأخذ قسطه من الراحة والترام . ولكن هناك متطلبات جديدة معروفة في الاوساط العسكرية ولا سيما الفائقة من حركة التجنيد ، نرى المقررين والضباط الذين يدربون المجندين من الجند تنقص هذه الصفات في المصري ، ونعين فيما يلي العوامل التي تسبب ذلك ألا وهي الامراض المتوطنة التي [illegible]

(ب) الامراض الطفيلية بين افراد الجيش المصري

في خريف سنة ١٩٢٠ أثارت حكومة السودان مسألة دخول افراد الجيش المصري الى السودان وهم مصابون بالامراض الطفيلية ، خصوصاً البلهارسيا والانكستوما ، وخطر ذلك كامل في الشرطة بالسودان حيث يعسكر الجنود

---

(١) الأستاذ بكلية الطب ومدير معهد الابحاث ومستشفى الامراض المتوطنة بوزارة الصحة . وهذا نص المحاضرة التي القاها في مؤتمر الجيش المصري للثقافة العلمية بدورته التاسعة

وقد رأى كبير اطباء الجيش — الدكتور سبنس — وقتذاك أن هذا الطلب ينطوي على كثير من المغالاة اذ أن عدد الجنود الذين يدخلون الى السودان كل عام لا يتجاوز الفين ، وكان محل اقامتهم بالخرطوم او حلفايا او ام درمان حيث لا ينتظر في الظروف العادية ان ينشروا الامراض الطفيلية اذ ان وسائل التخلص من الفضلات والمواد البرازية والبول في تكناتهم لا تدع مجالاً لانتشار هذه الامراض . ولقد انتهز كبير اطباء الجيش تلك الفرصة لبحث موضوع انتشار الطفيليات وتأثيرها في كفاءة الجيش المصري . فبدأ ابحاثهُ بالالتجاء الى قسم البلهارسيا والانكلستوما بمصلحة الصحة ، وقد درست وقتذاك بعض أطباء الجيش على فحص الافراد وعلاجهم من هذه الامراض ، وقد أمرنا الجيش الادوات والادوية اللازمة

دوَّن الدكتور سبنس نتيجة هذا البحث في رسالة نال بها درجة دكتور في الطب من جامعة ادنبره وسأستشهد ببعضها فيما يلي

(ج) نسبة المصابين من المقترعين للجندية في مصر

يسير نظام التجنيد في مصر من ناحية انتخاب الافراد الصالحين للخدمة العسكرية على نفس النظام المتبع في انجلترا مع العلم بأن التجنيد في مصر عام بينما هو في انجلترا بالتطوع . . . فتقوم بفحص المقترعين في سن التاسعة عشرة هيئة من الضباط ليس فيهم طبيب ليستبعدوا منهم بدون فحص طبي أولئك الذين لا شكَّ في عدم صلاحيتهم بمجرد المشاهدة كالقصر الشديد أو العاهات الجسمانية كالعرج والعور والعمى الخ

وقد تدهشون حينما تعلمون ان ٨٠٫٠٠٠ من ٩٠٫٠٠٠ مقترع يرفضون لهذه الاسباب وحدها ، كما ذكر الدكتور سبنس . يعني أن نحواً من ٩٠ ٪ من المقترعين تبدو عدم لياقتهم للخدمة العسكرية للعيان دون فحص طبي

ومن الـ ١٠٫٠٠٠ الباقية ينتخب ٤٠٠٠ ويبقى الباقون (٦٠٠٠) اما لعدم لياقتهم بعد الفحص الطبي او لحظهم الفرعان او دفع البدل العسكري او لغير ذلك من الاسباب كوحيد أبيه هرم أو وحيد أمه الطاعنة او عائلة ليس لها عائل . وقد وجد ان ٩١ ٪ من يقبلون في الجيش من المقترعين (أي من هذه الاربعة آلاف) مصابون بالامراض الطفيلية . ولكن نظراً لبساطة عدوانهم او عدم ازمانها لا تؤثر تأثيراً شديداً في مظهرهم الخارجي ، ولكنها تؤثر في كفاءتهم كجنود . . . فقد بدء تدريبهم في الطابور العسكري ، قبل أن لا يمضي على عدد منهم بعد مضي قليل من الوقت . والمرة الوحيدة التي ذكرها الدكتور سبنس والتي لم يحدث فيها اغماء في الطابور كانت الدفعة التي فحص وعولج فيها جميع أفرادها من الامراض الطفيلية قبل تدريبهم

وقد جاء في هذا البحث ايضاً انهُ في سنة ١٩٢٣ كان ١٤ ٪ من المرضى بالمستشفى العسكري

الجيش المصري يعالجون من الامراض الطفيلية وان ٢٩٪ من الذين يقصون من الجيش لعدم صلاحيتهم بعد تجنيدهم يرجع السبب في إقصائهم الى البلهارسيا وأغلبها البلهارسيا المعوية المنتشرة في شمال الدلتا . وعلى ذلك يمكن اعتبار ان عدد الافراد الصالحين للجندية رغم اصابتهم بالطفيليات اصابة بسيطة لا يتجاوز ٤٪ بين سن ١٩ و ٢١ اي السن التي يجب فيها ان تكون الصحة الجسمانية والكفاءة البدنية في أعلى درجاتها

ولو قارنا هذا بنتائج التجنيد في الجيش البريطاني ، مع أن التجنيد فيه بطريق التطوع ، لوجدنا أن ٢١٫٥٪ تقريباً يرفضون بمجرد الفحص الطبي يقابله ٩٠٪ من المتقدمين المصريين وان ٢١٫٥٪ تقريباً يرفضون بعد الفحص الطبي يقابلهم ٦٠٪ من الذين عندنا تكون اصابتهم للخدمة العسكرية هناك ٥٧٪ مقابل ٤٪ في مصر . وهذه الحقائق تدعو الى الجزع الشديد من جهة كفاءة الجيش المصري للدفاع عن بلادنا تجاه الجيوش الاوروبية وتتطلب المبادرة بدون تواني الى اصلاح هذه الحالة ، خصوصاً اذا علمنا ان نتيجة أي اصلاح من هذا القبيل سوف لا يظهر أثرها كاملاً إلا بعد مرور ٢٠ عاماً ، عندما ينشأ جيل جديد قد اتخذت الاحتياطات لوقايته من عدوى الامراض الطفيلية في سن مبكر

(ب) الاسباب التي طرأت وكان من أثرها انحطاط كفاءة المصريين البدنية عامة وبالتالي كفاءة الجندي المصري

كانت الاراضي المصرية الزراعية الى أوائل القرن الحالي تقريباً تروى ريًّا حوضيًّا ، أي انها تزرع محصولاً واحداً في السنة يستمر بضعة أشهر ، وتكون الارض جافة ومعرضة لاشعة الشمس بقية اشهر السنة كما هو الحال اليوم في مديريات جرجا وقنا واسوان . ولقد كانت هذه الاحوال غير ملائمة لنمو الطفيليات التي تصيب الانسان كالبلهارسيا التي تعيش القواقع الناقلة لها في المياه الراكدة او البطيئة الجريان والانكستوما التي تعيش يرقاتها في الارض الرطبة التي تروى باستمرار او التي يقرب مستوى المياه الجوفية فيها من سطح الارض . والملاريا التي يتكاثر بعوضها الناقل لها في المزارع الارز وبعض البرك وحواشي الترع التي لا توجد الا في المناطق التي يستديم الري فيها طوال شهور السنة ويكون الصرف فيها ممدوداً او سيئاً

فبينما تكون نسبة العدوى بالبلهارسيا بنوعيها البولي والمعوي ٨٠٪ من سكان الدلتا والفيوم نجد ان العدوى لا تزيد بحال عن ١٠٪ من مجموع السكان في المناطق التي تروى ريًّا حوضيًّا بمديريات جرجا وقنا واسوان . بل اغلب هؤلاء العشرة في المائة يصابون بالعدوى اثناء رحلاتهم طلباً للرزق بالعمل في الجهات التي تروى ريًّا صيفيًّا والتي تنتشر فيها العدوى

والشأن في الانكستوما والملاريا ، يجري على هذا المنوال مع تفاوت في النسب

هذه الامراض نظراً الى وجود مسبباتها في محيط الفلاح بالمناطق الزراعية وفي المياه التي يشربها والمزارع التي يشتغل فيها ، يكون التعرض لها في سن مبكر ، فلا يكاد يحبو الطفل حتى يصاب بالانكستوما ، تخترق يرقاتها جلده في فناء الدار حيث يتبرز أفراد العائلة وعنده يشب عن الطوق ، ويرتاد مجاري المياه حول القرية — يستي الماشية او يستحم او يسبح — يصاب بالبلهارسيا ... بل ان جراثيم البلهارسيا كامنة في الماء الذي يجلب في « البلاص » للشرب والنظافة

وهو في جميع ادوار حياته معرض للدغ البعوض الناقل للملاريا في المناطق التي تنتشر فيها زراعة الارز أو توجد بها البرك او مجاري المياه الصالحة لتوالد هذا النوع من البعوض

ويكاد يكون جميع الاطفال في كثير من القرى مصابين بالبلهارسيا ويشاهدون قطرات الدماء تنزل في اعقاب بولهم ، فيعتقدون ان هذا علامة على الرجولة والقوة

فاذا سألت صبيًا : هل انت مصاب بالبلهارسيا اجاب : كلا ، فاذا سألته : هل تبول دماً اجاب : نعم

فاذا قلت له : ان هذا هو البلهارسيا

اجابك : لا ... ان هذا علامة الرجولة وجميع الاولاد يتبولون دماً مثلي

وهناك مشاهدات عديدة تثبت أثر الري المستديم مع انعدام الصرف في انتشار هذه الامراض على صورة لا تقبل الجدل ، فقد فحصت مناطق في مديريتي قنا واسوان ، قبل تحويل الزراعة فيها من حوضية الى مستديمة بواسطة اقامة طلمبات على النيل . فكان من أثر ذلك أن زادت نسبة المصابين بالبلهارسيا من (٠ — ١٠ ٪) قبل اقامة الطلمبات الى نسبة تتراوح بين ٤٥ر٢٥ ٪ بعد ثلاث سنين من إقامتها

ومثل آخر نسوقه : وهو منطقة كوم امبو الواقعة بالقرب من اسوان التي استغلتها شركة روتها ريًّا مستديمًا ... فنسبة البلهارسيا فيها ٨٢ ٪ بينما هي لا تزيد عن ١٠ ٪ في المناطق المجاورة التي لا زال يروى على طريقة الحياض

وأود أن أشير الى القول بأن هذه العلاقة بين الري المستديم مع رداءة الصرف وانعدامه والتشبع بالمياه ، يرجع بها ويقرر بطريقة لا تدعو الى الشك الى ما بين الاخوة نتيجة للاعمال والدراسات التي قام بها معهد الابحاث بوزارة الصحة

ويسرني أن أذكر أن الاتجاه الحالي في مصلحة الري بوزارة الاشغال يتصرف الآن الى تحسين الصرف وخفض مستوى المياه الجوفية مما سيعود على صحة السكان وعلى الانتاج الزراعي بالخير الجزيل . ويكفي التقدير ما تبذله وزارة الاشغال من العناية بهذا الموضوع ان الوزير الحالي معالي حسين سري رئيس هذا المجمع الاسبق رأى ان يلقب نفسه (بوزير الصرف) لا (وزير الري) في مصر ومن الضروري ان يكون هناك تعاون وثيق بين القائمين بأعمال الري

والمصرف وبين رجل الزراعة ورجال الصحة، لان هذه الاعمال مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً تامًّا بحيث يكون لأي تغيير في احدها اثره في النواحي الاخرى . وهناك بوادر تشعر بأن هذا التعاون سيكون لهُ اثره في رقاهية الفلاح من جهة الصحة ومن جهة تحسين احواله الاقتصادية

(د) ما يطرأ على المصريين اذا اصيبوا بالامراض الطفيلية في سن مبكر

هذه الطفيليات تفرز سمومها في جسم الانسان وتحدث فيه فقر الدم، فتصوء تغذية اعضائه ويضعف عمله، وربما كان التأثير في قواه العقلية اشد منهُ في قواه البدنية

وكثيراً ما يغلط رجال الخدمة العسكرية في شخصية المتقدمين لضآلة أجسامهم، حتى انهم ليظنون انهم امتحنوا الشخص المطلوب بأخٍ لهُ أصغر منهُ، اذ لا يمكن تقدير عمر أحد هؤلاء الشبان بأكثر من ثلاثة عشر او اربعة عشر عاماً . بينما يتضح من التحقيق الدقيق في النهاية ان هذا هو الشخص المطلوب بالذات وانهُ قد بلغ حقيقة السادسة عشرة او العشرين من عمره وان ضآلة جسمه وظهوره بمظهر الطفولة ناتج عن عدواه في سن مبكر بالامراض الطفيلية . . .

وكثرة هذه الحالات في شمال الدلتا ساقطة في ذلك، مع كثرة انتشار الامراض الطفيلية بين ان قصر المصريين وطولهم، قد يرجع في أكثر الحالات الى درجة انتشار عدوى الطفيليات بينهم . ويتضح ذلك جليًّا بمقابلة نسب المرفوضين من المتقدمين لقصر قامتهم في الوجه البحري ومصر الوسطى ومصر العليا حيث نجد انهم يمثلون ٨٨ر٢١٪ بالوجه البحري، بينما يمثلون ٨ر٧٪ بمصر الوسطى، و٤١ر٩٪ بمصر العليا . . .

هذه النسب تتفق عامةً مع درجة انتشار الطفيليات فيها . . . بل لو قابلنا هذه النسب بنسب انتشار الطفيليات في القاهرة والاسكندرية حيث تكاد تكون عدوى الطفيليات معدومة فيهما لتبين ان القاهرة ٥ر٠٪ وفي الاسكندرية ٥ر٢٪ بينما هي في محافظة دمياط التي تقل أقل انتشار عدوى الطفيليات في شمال الدلتا بشكل واضح ٩ر٢١٪

(ز) تأثير الامراض الطفيلية في الانتاج الحقلي

يضرب المثل بالفلاح المصري انهُ صبور دؤوب لا يعرف الكلل طيلة يومه، وقد تمتد به ساعات العمل الى شطر من الليل . . .

ولكن هذا الفلاح لا يبلغ إنتاج حقله النجاح في هذه المدة الطويلة وموازنته بما ينتجه الفلاح الاجنبي . وقد قام المستر راون مدير قسم البساتين بوزارة الزراعة بعمل هذه الموازنة بين الفلاح الانجليزي والمصري فوجد ان نفقات انشاء فدان في انجلترا تقل عن نفقات انشاء فدان مصري مع ان أجر الفلاح الانجليزي يبلغ أضعاف اضعاف أجر الفلاح المصري

ولكن هذا الفرق الكبير في الاجر لعوض الزيادة العظيمة في انتاج الفلاح الانجليزي عن جملة عمال مصريين من مناطق نموذجية

هنالك تجربة اخرى تبين أثر هذه الامراض في الانتاج . ففي مكان منعزل في غانا البريطانية تقيم ادارة مناجم البوكسيت (خام الالومنيوم) وامنى الشركة القائمة على هذا العمل بعلاج العمال والعناية بهم وقد أمكن لطبيب هذه الشركة ان يقنع المدير بوجوب علاج هؤلاء العمال من الانكلستوما وبعد تردد كثير وافق على ذلك . . . وذكر في تقريره النهائي الذي نشر في مجلة « طب البلاد الحارة » بلندن انهُ يقرر ان الشركة لم تصرف اي مبلغ أتى بفائدة تماثل ما جنتهُ الشركة مما أنفقتهُ على علاج العمال من مرض الانكلستوما ، فقد زاد انتاج العمال أنفسهم وبلا تغيير في ساعات العمل ٣٣٪ مقدراً بالاطنان التي استخرجت وبغير ان يشعر العمال انفسهم بذلك . وعلاوة على ذلك فقد قلت الاجازات المرضية بين العمال من الامراض الاخرى البسيطة كالالتهاب واشباهها قلة ظاهرة

ويمكننا ان نتصور كيفية حدوث ذلك بان العامل السليم عند ما يضرب بمعوله في الارض يغور الى بعد اعمق في حالة العافية مما يغور اليهِ في حالة مرضه

وذكر الدكتور سنس ان الجنود المصريين في السودان يستهدفون بسرعة للامراض وتضعف مقاومتهم اثناء المرض، مما دعا الفلاح المصري الى كره الغربة، واذا تقرب انتهز اول فرصة لاوبته الى الوطن ، وفي محيطه الجديد تظهر عدم مقاومته للعوامل الجديدة المحيطة بهِ . . . .

وتلك نقطة هامة تتعلق بامانينا العريضة في استعمار السودان . واكثر المصريين مهاجرة داخل القطر المصري ممن يسكنون جرجا وقنا واسوان (المناطق التي تقل فيها عدوى الطفيليات)

تأثير الامراض الطفيلية في القوى العقلية

تمكننا من تقدير درجة التأخر العقلي الناشئة عن هذه الامراض ، بواسطة اختبارات الذكاء . وقد تبين من ذلك ان مقدار الذكاء في طفل لهُ من العمر احدى عشرة سنة مصاب بالانكلستوما هو ٢٠٪ سنة اي ان قوته العقلية تكون مساوية لطفل سليم في الثامنة والنصف من عمره . . . والبلهارسيا والملاريا لهما نفس تأثير الانكلستوما وربما اشد

والفلاح المصري مشهور الآن بتخلفه تفكيره ومن مظاهر ذلك انهُ يلجأ الى اعادة اي سؤال يلقى عليهِ مهما يكن بسيطاً قبل اجابته . . . فلو سألته عن اسمه لبدأ بترديد سؤالك قائلاً : « اسمي ايه ؟! » قبل ان يجيب . ويكابد الضباط عناء كبيراً في تدريبهم على الحركات العسكرية البسيطة مما يستفد صبر الضباط فيعمدون الى عقاب الجنود او صفعهم ونعتهم بأسوإ الصفات مما لا يحدث مثله في الجيوش الاوربية اذ ان هنالك للجندي كرامة لا يستهان بها . والحقيقة ان

الضباط والجنود مسئولون . فالضباط لا يظنون ان ما بالجندي من عدوى جعلت مداركه لا تتعدى مدارك صبي صغير . ولو علموا ذلك لتذرعوا بالصبر الطويل . والجندي يصل ما في وسعه باخلاص كبير على الاقل خوفاً من العقاب ولكن مداركه رغم ارادته لا تسمو الى الدرجة التي يتطلبها ضباطه منهُ . ومن المعلوم ان تقدم الجنود في التعليم عامل تقدم التلاميذ في تلقي الدروس وهذا التقدم يتركه المتأخرون لا النوابغ . فالمعلم والضابط كلاهما يراعي في دروسه ان يسير طبقاً لمقدرة اقل قلة من التلاميذ والجنود

ومن الطريف أن مدرسة تابعة لاحدى الارساليات الدينية في كينيا فحص جميع تلاميذها للانكلستوما . فلاحظ القائمون بالتدريس ان الاطفال المصابون هم الذين لا ينصتون للدروس ويشاغبون ويشاكسون زملاءهم ، ويأتي ترتيبهم في المؤخرة . وقد شوهد انهم تحسنوا جداً في الخلق والتحصيل بعد علاجهم ، حتى أنهُ اتبع نظام دوري في هذه المدرسة يقضي بعلاج جميع الطلبة الراسبين في كل امتحان لعدوى الانكلستوما بدون أي فحص ، وقد أتى ذلك بأحسن النتائج

ويلاحظ هنا ان الجندي في الحروب الحديثة لا يطلب منهُ الشجاعة والصبر والاقدام فحسب ، ولكن يطلب منهُ استعمال أدوات حربية غاية في دقة الصناعة والتعقيد الميكانيكي يقتضي استعمالها ذكاء ودقة في الملاحظة والتقدير ، بحيث تكون مثل هذه الامراض الطفيلية عقبة كبيرة في الحصول على عدد كاف من الاشخاص الصالحين لمثل هذه الاعمال . بل ان هناك قلة الطيارين الذين يجب ان تتوافر فيهم صفات الرجل الكامل بدنياً وعقلياً . ولقد علمنا انهُ توجد الآن صعوبة كبيرة في الحصول على العدد الكافي من الطيارين من بين أفراد الجيش المصري . ونحن ما زلنا في البداية ولم تصل الطائرات الى العدد الذي يفي بحاجات الدفاع عن البلاد

(ح) كيف يمكن ان نمد الجيش المصري بحاجته من الجنود الاصحاء جسمانياً وعقلياً .

أوضحنا فيما سلف ان الامراض الطفيلية تحدث أبلغ الضرر عندما تصيب الاطفال فتعيق نموهم الجسماني والعقلي ، ولذلك يجب ان توجه العناية الى المحافظة عليهم من العدوى ، ونصل الى هذه الغاية بما يأتي : —

أولاً — توفير المياه الخالية من الجراثيم للشرب في القرى سواء أمين آبار عميقة كانت ام مياه مرشحة ومعقمة

ثانياً — إقامة مراحيض في كل منزل من منازل الريف ، حتى لا يلجأ السكان الى التبرز في فناء الدار او حولها أو على شواطىء مجاري المياه حول القرية او غير ذلك

ومما يؤسف له أن الاحصاءات دلت على ان ٢٪ فقط من منازل الريف المصري بها مراحيض ، بلا نظر الى تيسها من الوجهة الصحية

ولا يقتضي لعلاج ... ما دامت الوزارة مقتدرة في أقصية الدور وفي الطرقات وعلى شواطئ ... ويتعرض للدوي منها الاطفال عند لعبهم أطفارهم

ثالثاً ... بطانا الثرى على وجه العموم بإزالة القمامة والقاذورات يوميًّا ، بالكنس والرش والتخلص منها بحرقها او دفنها في الارض أو نحو ذلك

يبقى علينا ان نبحث (مختصراً) لأمل لنا بالتوفق في الحصول على جنود اكفاء في المستقبل وان لم يكن الوقت لتنفيذ كل ذلك وهذه مجالس القروية والمحلية التي يجب ان تركل اليها هذه الاعمال ، علينا ان نبادر بفحص وعلاج تلاميذ المدارس الالزامية التي سيدخلها جميع الأطفال المصريين في السنين القريبة . وربما ان أجدى على مصر علاجهم قبل تعليمهم ، فكثير منهم لا يمكنهم الاستفادة من التعليم بهذه المدارس لشدة عدواهم . . . زد على ذلك أن الفقر المدقع ، يدفع بأهل هؤلاء التلاميذ الى ارسالهم في الصباح على الطوى لا تستر أجسامهم ملابس تحميهم من برد الشتاء او حر الصيف ، وتستوفي الحشريات دمائهم مما يجعل هذه المدارس بدون علاج الاطفال وتغذيتهم كما قدمت ، دور تعذيب لا دور تعليم

ويسرني أن أذكر ان وزارة المعارف منتبهة لهذه الحالة السيئة وتقوم الآن بوضع نظام كامل لعناية بصحة هؤلاء الاطفال في سائر المدارس كشطر هام من واجباتها التعليمية . . . .

إذ اتضح ان اعتلال صحة هؤلاء الاطفال عقبة ليس من السهل التغلب عليها لنجاح التعليم

وسيكون لذلك النظام عند تنفيذه أثره الحسن في رفع مستوى التعليم والصحة والذكاء

وسيكون من نتائجه البعيدة ان يكون هؤلاء الصبية عند بلوغهم سن التجنيد اصلح من الجيل الحاضر للتجنيد في الحديثة

وفي الوقت الحالي يجب ان يكون فحص المجندين عامًّا وشاملاً ، ويجب ان يعالجوا جميعاً حتى الشفاء من ... الامراض قبل البدء في تدريبهم . ولا يكون الفحص والعلاج قصراً على من تبدو عليهم مبادئ بعض الامراض او ضعف البدن

ولذلك يجب ... تقديم الطبي في الجيش المصري بجميع الوسائل الحديثة لتشخيص والعلاج على نطاق واسع ... في ان ... سيؤثر في رفع مستوى كفاءة الجندي المصري وبما اسلفنا يتضح أنه لا يمكننا الحصول على جنود اكفاء ، دون رفع المستوى الصحي لافراد الامة الذين يجند افراد الجيش من بينهم

اذن فأهم وسائل الدفاع عن القطر المصري ليست فقط في تكديس الذخائر والطائرات وتوزيعها في جهات ... يحسنون استعمالها بل ايضاً في ادخال المياه الصالحة للشرب في القرى وتعميم المراحيض ... فحص الاطفال في المدارس وعلاجهم من الامراض المعدية

الشعر والحياة

لفليكس فارس

أينَ يا نفسُ تكمن الغاياتُ في بقاءٍ غاياته شهواتُ
أينَ يا ارضُ في ترابكِ ما يجـــدي وما تنتهي بهِ الرغباتُ
أينَ مقياسُ ما يفيد وما لا تقعَ فيهِ إنْ حُدَّتِ الحاجاتُ
نَهْلةٌ بعدها كُسيرةُ خُبزٍ كلُّ شيءٍ سواها فَضَلاتُ

***

علمتني الحياةُ انَّا خيالاتٌ م ترامى ما حوطها الزائلاتُ
ليس للشيءِ في الوجودِ وجودٌ إنَّما الشيءُ ما تريك الصفاتُ
كلُّ ما في الآفاقِ وصفُ حروفٍ والمعاني ما تنشرُ الكائناتُ
ما الحياةُ الدنيا سوى صفحاتٍ لكَ منها السطورُ لا الصفحاتُ
أنت تتلو منها شعورك فيها فحياةُ (اللاشاعرينَ) مماتُ
هي دنيا تداخلَ البؤسُ والنعـــماءُ فيها فكلُّها شُبَهاتُ
فقصورٌ وعزةٌ وثراءٌ وجنانٌ ظِلالُها وارفاتُ
وقفارٌ ضلَّ الحُداةُ عليها وبحارٌ تجتاحها العاصفاتُ
ومهودٌ يثوّر الطفلُ منها فاذا الطفلُ في اللحود رفاتُ
كلُّ شيءٍ فيهِ ابتسامٌ ودمعٌ يتمُّ في صبيها نَقَماتُ
كلُّ يأسٍ فيهِ ارتياحٌ خفيٌّ كلُّ فجرٍ تطوى بهِ حَسَراتُ
كم فراقٍ يقرّب الروحَ للرو حِ وقربٍ في ضيقه فلواتُ
كم فقيرٍ لم يعرفِ الجوعَ يوماً وغنيٍّ تُجيعهُ الخيراتُ
لستَ تدري اذا سبرتَ الخفايا ما توارى الآلامُ واللذاتُ

عِشْقهُ النبعَ الجموحَ في القلـــب زئيرٌ قراره زفراتُ

***

كلُّ ما في الوجود يعرق في الشعـــر فطيرُ الفلاة والزهراتُ
تلاقى في الثور شدواً وعطراً ثم تُغني أشباحَها الظُّلماتُ
يذهب الزهرُ والطيورُ تتبقى في الحفايا العطورُ والنغماتُ
ما أفادَ الطيرَ الشجيَّ التغنّي والأقاحي أنفاسُها العطراتُ
ليس مما تجودُ نحيا فرزق الـــكلِّ في الكونِ قسمةٌ وهباتُ

***

أيها الشاعرُ الشجيُّ تغنَّى ليس منكَ الإلهامُ والقافياتُ
أتدري كُنهَ الشعورِ ومن أيِّ سهمٍ تجتاحك الخاطراتُ
أنت ثيارةُ الوجودِ فمن أي وجودٍ تهزُّكَ النغماتُ
أتشكو وفي ضميرك من كلِّ جمالٍ وروعـــةٍ لوحاتُ
أتشكو وفي فؤادك من كلِّ نؤادٍ متبسّمٍ خفقـــاتُ

***

مُتعةُ العيشِ في نفوذِ المعاني والمعاني في روحنا كامناتُ
ما يفيد الكتابُ غرّاً جهولاً أُغلقت دون فهمه الآياتُ ؟

***

ليس للشيء في الوجودِ وجودٌ أنما الشيء ما تُريك الصفاتُ
ليس يُرضي الخيالَ الأحبالُ إن هذا ما علّمتني الحيـــاةُ

[1] ألقيت عند التشييد في الجلسة التي أقامها المجمع الأدبي لنادي بلدية الاسكندرية في ٩ — ٥ — ٣٨ ، وقد تناقرفيها شعراء الاسكندرية في موضوع «الشعر لا يُجدّد ما» . وقد رأى الشعراء : عثمان علي ، يوسف فهمي رشاد عبد العزيز ، عبد الشكور ، وعارضه الشعراء : علي شيوب ، عبد القادر الغزالي ، مصطفى صبحي ، محمد السيد ، ورأس المذكرة : الشاعر فيكس فارس

المعدة والانفعال

بحث طريف

في طبائعها المتقلبة

كتب الدكتور وتحيت طد — استاذ التشريح في جامعة وسترن ريزرف الاميركية — في المجلة الطبية الشهرية ، انهُ شرع من سنين يبحث احوال المعدة وطبائعها المتقلبة في اثناء السل والكلب ، وصدف هو وزميلتهُ المس كوتزل عن معد الحيوانات ومعد المرضى لانهما قصدا الى دراسة طبائع المعد في الاصحاء . وبعد بحث طويل استغرق خمس سنوات وشملت تجاربه نحو ثمان مائة طالب من طلاب كلية الطب في الجامعة المشار اليها ، وضمّ رسالة عنوانها « نماذج السلوك في القناة الهضمية » ولكن العلماء استقبلوها عند نشرها في سنة ١٩٣٠ بكثير من السخرية الا انّ التجارب التي اجرياها بعد نشر رسالتهما ايدت قولها الاول وهو ان للمعدة طبائع متقلبة وان معرفتها تؤدي خدمة غير يسيرة للذين يريدون ان يتمتعوا بناحية من نواحي الهناءة والرغد في الحياة

والمعدة كما لا يخفى عضو عضلي تنقبض عضلاته وتنبسط في حركة منتظمة كانقباض عضل القلب وانبساطه . الا انهما في المعدة ابطأ منهما في القلب وقد كان الرأي ان الانقباض والانبساط في عضل المعدة يدفعان محتوياتها الى الاثني عشري على نحو ما يدفع الانقباض والانبساط في عضل القلب الدم في العروق . وعلى ذلك قيل ان الانقباض والانبساط في عضل المعدة يكونان على اشدهما خلال تناول الطعام وبعده وان المعدة تكون بين رجبة واخرى في حالة راحة . وقيل كذلك ان المعدة تفرز عصارة حامضة حامضة غرضها الوحيد ان تهضم او تشرع في هضم بعض مواد الطعام ثم يدفع هذا الطعام الى الاثني عشري بحركة المعدة العضلية المعروفة باسم Peristalais وقد ترجمهُ الدكتور شرف بقوله الحركة الديدانية الخاصة بالامعاء والاعضاء التنوية

والواقع ان احداً لم يرَ المعدة وهي تقوم بعملها الا بعد ان كشفت الاشعة البينية . فهم كان بعض الجراحين قدروا فيها في اثناء العمليات الجراحية . ولكن الاحوال التي تجري فيها

هذه العمليات تؤثر في المعدة فيقلُّ نشاطها الى حدٍّ ممكن . ثم ان افراز الحمارة المعدية بُحث في الحيوانات ولكن هذا البحث كان يقتضي شقَّ البطن ، وبشقه تعود الاحوال السوية داخل المعدة وهي غير سوية

ولكن اذا مزج الطعام بقليل من مركب كربونات البزموث ، غدا الطعام غير شفاف عند تعريضه للاشعة السينية . واذاً تسهل مراقبة المعدة بتعريضها لهذه الاشعة عند ما يدخلها هذا المزيج . ومما يبعث على الدهشة ان الدكتور طد وزميلتهُ استطاعا في اثناء تجاربهما ، ان يراقبا الحمارة المعدية وهي تجمع داخل المعدة

جربت تجارب من هذا القبيل في المستشفيات ولكن معظم المعد التي اجريت عليها كانت معداً مريضة . فعمد الدكتور طد وزميلتهُ الى إجراء تجارب واسعة النطاق على فريق من طلبة الجامعة وانتهوا منها الى نتائج تبعث على الاستغراب

وكان اول ما استوقف نظرهما عندما شرعا في هذه التجارب كبر حجم المعدة وتراخيها وقد شرعا في البحث في شهر سبتمبر من سنة ١٩٢٥ فما اقبل شهر فبراير من السنة التالية حتى تبيّنا ان المعد التي كانت في سبتمبر كبيرة متراخية غدت في فبراير اصغر حجماً واشدَّ نشاطاً . وما اقبل شهر سبتمبر من سنة ١٩٢٦ اي ما انقضت سنة تامة على بدء التجارب حتى زاد انكماش المعد ونشاطها . وعندئذٍ كان قد دخل الجامعة فريق جديد من طلبة السنة الاولى فاذا معدهم كبيرة ومتراخية كمعد زملائهم في شهر سبتمبر السابق ، وفي خلال السنة المدرسية انكمشت ونشطت

هذه الظاهرة الغريبة حيرتهما . وبعد استقصاء خطر لهما انهما امام عضو يتأثر تأثراً كبيراً بالانفعال النفساني . ذلك ان الطلاب الجدد في الجامعة تساورهم المخاوف من بيئة جديدة واساتذة لا عهد لهم بهم من قبل . ولم يستحسن الدكتور طد ان يتم هذه الحالة بالخوف فوسمها بالقلق . فلما استردَّ الطلاب ثقتهم استردَّت معدهم نشاطها المألوف . ومن غريب ما رواه في المجلة الطبية الشهرية انهُ بعدما انقضت سنوات على اجراء هذه التجارب وشاع امرها بين الطلاب وغدوا يتقدمون لها بغير جزع او اضطراب تبين ان معدهم عند الامتحان ليست منتفخة ولا متراخية

واستنبط احد معاونيهما — الدكتور سمرفلد — طريقة بديعة لتقدير حجم المعدة من قياس ظلها في صور الاشعة السينية . فتمكن بها من ان يثبت انهُ عندما يتناول الطالب سائلاً قدرهُ اربع أوقيات لا تلبث معدتهُ بعد خمس حتى تحتوي سائلاً يزيد على ربع أوقيات . والزيادة تتوقف بتفاوت نوع السائل . فاذا تناول ربع أوقيات من اللبن الحليب كان تضخم المعدة اكثر من تضخمها إذا تناول اربع أوقيات من اللبن الكامل . وقد دلَّ القياس على أن مقدار

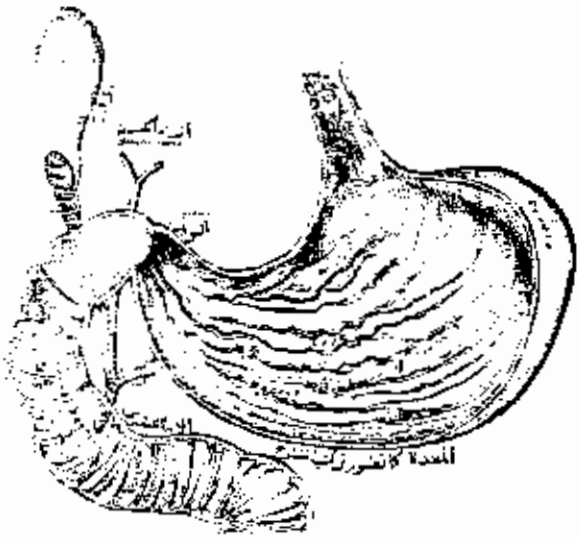

المعدة كما تصور ركب

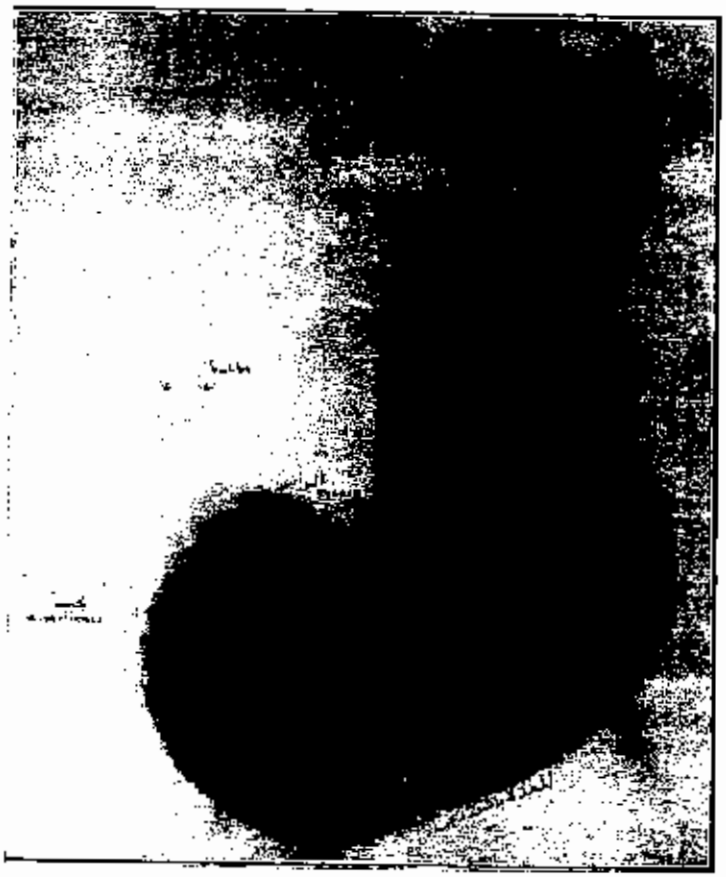

العليا صورة المعدة مفتوحة كما تصوَّر في كتب التشريح والسفلى صورتها الحقيقية كما صورت المعدة وتحن

السائل في المدة بعد انقضاء خمس دقائق على تناول اربع أوقيات من اللبن ، بلغ اثنتي عشرة أوقية ، ولكنهُ بلغ بعد تناول الحليب عشرين الى ثلاثين أوقية

إلاَّ ان الدكتور سمرفلد أثبت ان هذه الزيادة لا تصدق الاَّ حين لا يكون في حالة القلق . فكأنَّ مؤثراً قد أثّر فيها أفضى الى تجمع الصفارة المعدية فيها. فوجه الباحثان عنايتهما الى البوَّاب وهو الصمام الفاصل بين المعدة والاثني عشري . راقبا البواب فوجدا انهُ يبقى منغلقاً على طريقة بعد دخول الطعام المعدة عندما تكون المعدة في حالة قلق . أما الطلاَّب الذين كانوا قد تمرَّدوا هذه التجارب وعادوا لا ينفعلون بالاستعداد لها واجراءاتها عليهم فقد كان البواب ينفتح بعد انقضاء دقيقتين على وصول الطعام الى المعدة ، فيخرج [illegible] الى الاثني عشري . وبذلك تمكنا من تفسير تضخم المعدة في حالة القلق . ذلك ان [illegible] مؤثراً بمقدار ما ينصرف من الصفارة المعدية او ما يبقى في المعدة منهُ بعد الطعام

هذه التجارب دلَّت على تأثر المعدة بالانفعال النفسي . وبذلك يفسر لنا كثير من الطعام قبل الاسراع الى اللحاق بقطار او دخول امتحان صعب او الاقبال على حضور جلسة خاصة . ففي هذه الحالة يقفل البواب متأثراً بالحالة النفسية فتجتمع في المعدة الطعام الصفارة المعدية ، وحينئذٍ يحسُّ الانسان بثقل وانتفاخ وبصعود غازات حامضة

والمعدة تتفاوت في تأثرها بالانفعال . بل لقد ينشأ الاضطراب من اطعمة معينة . فقد ان هذه الاطعمة تؤثر في الجهاز المسيطر على البوَّاب في معدة دقيقة الاحساس فتحدث [illegible] بعض الناس بمواد معيَّنة فيصابون بحالات مرضية . فاذا كان الفعل شديداً فقد يفضي الى التهيُّج . أما اذا كان غير شديد فقد يطول الشعور بالثقل والتلبك وقد يصحبهُ عطاس واحتقان في الرأس

ومن غريب ما قد يحدث ان العطاس الشديد يفتح البوَّاب في بعض الاحيان . وبهذا قد يفسر استعمال بعضهم النشوق بعد الطعام

وإذا كان العقل والشعور يؤثران في المعدة ، فالمعدة تؤثر فيهما . ولعلَّ خير مثل على ذلك الكاتب الانكليزي جنصن المشهور في الادب الانكليزي بألمعيته ، ويعزى كثير من براعة التخيُّل والتفكير المبدع الى سوء الهضم . بل يسأل بعض الباحثين عن كان في وسع [illegible] ان يبدع مذهب التطوُّر لولا حدَّة تخيله الناشىء عن سوء الهضم ؟ ويسأل غيرهم هل كان في وسع جوزيف كونراد الروائي البولندي الانكليزي في العصر الحديث ان يبدع ما أبدع لولا سوء الهضم المزمن . ومن يستطيع ان يبيّن مدى ما يكتسب من روايات أدجار آلان بو الى سوء الهضم وما يعزى منها الى ادمانه المشروبات الكحولية ؟

وليس ثمة ريب في ان بعض الناس يلمع ذكاؤهم عندما يجلسون الى مائدة والبعض الآخر

يكاد يغلب عليه الناس ، وان طعام واحد قد يكون غذاء الواحد وسمّ الآخر

لقد اقتضى فهم هذه الحقائق سنين من البحث والتجربة . فأولاً ثبت للدكتور طد ومعاونيه تأثير الحالة النفسية في المعدة . ثم تأثر المعدة بما يصلها من الطعام . قال : وما زلنا نجهل ما يحدث في المعدة عند ما نزدرد طعاماً لا تؤثره . ولكننا نعلم ان شيئاً يحدث فيؤثر في الجهاز العصبي الحركي المسيطر على البوّاب فيقفل . وليس ثمة ريب في ان ما نشعر به من الثقل بعد تناول بعض الاطعمة سببهُ إقفال البوّاب وتجمع العصارة المعدية مع الطعام في المعدة

ولا يخفى أن العصارة المعدية تركب في الدم وتفرز في المعدة . فاذا لم يكن هناك سبيل يعود به جانب منها الى الدم عن طريق الامتصاص من الامعاء ، لا يلبث الجسم حتى يغدو جافاً كالمومياء ، ومع ذلك لا نكاد نعلم شيئاً عن هذه الدورة الداخلية — دورة العصارة المعدية — ولكن الدكتور طد استحدث بتجاربه طريقة لبحثها وهي طريقة مراقبة المعدة بالاشعة السينية ولا سيما تجمع العصارة المعدية فيها عند ما يقفل البواب

وهذا يفضي بنا الى سؤال كبير الشأن وهو خاص بالباعث على انتقال الطعام من المعدة الى الاثني عشري . ومن غريب ما يقال في هذا الموضوع ان اللعاب يسيل عند ما نضغ طعاماً جامداً ولكنهُ لا يسيل عند ما يدخل الفم طعام سائل : أما العصارة المعدية فتفرز في الحالين وافرازها عند دخول السائل المعدة أكثر منهُ عند ما يدخلها الطعام غير السائل

ويلوح من هذه التجارب ان افراز العصارة المعدية ، أسلوب من أساليب الخلق ، لغسل داخل المعدة ودفع السائل في المعدة الى الاثني عشري . ذلك انهُ عند ما يكون الطعام الذي يدخل المعدة جامداً يشرع عضل المعدة في الانقباض والانبساط الى حدّ ما دافعاً الطعام الى الامام ، ويساعد ما يفرز من العصارة المعدية على غسل المعدة

ومهما يكن الطعام ، وسواء أجامداً كان أم سائلاً ، يلاحظ ان الانتقال من المعدة الى الاثني عشري يبدأ بعد انقضاء دقيقتين من وصوله الى المعدة ، على شرطين : — ان يكون هناك اقفال يؤثر في المعدة ، وان لا تكون المعدة مسدودة لشدّة الاحساس بذلك الطعام . وفي كلا الحالين يأمر البوّاب فيقفل وتتجمع العصارة المعدية تتفتح المعدة ويحس صاحبها بالنفس وسوء الهضم وما يصحبهما . فالطعام لا يبقى طويلاً في المعدة الا في هذين الحالين على ما يعلم

وعسى ان يكون في هذه الحقائق ما يبين بعض القرّاء على تجنب ما يصابون به أحياناً من سوء الهضم لانهم تناولوا الاكل وهم معرّضون لانفعال نفساني شديد ، أو لان معدهم شديدة الاحساس بضروب من الطعام لا تسيغها . ففي الحالة الثانية يجب على كل منهم ان يتبين هذه المواد بالاختبار ويمتنع عنها بقوة المشيئة ، وفي الاولى يجب مراعاة اليقظة والحكمة

الفن الاكبر (١)

لميخائيل نعيمه

جاء في الكتاب ان الله خلق الانسان على صورته ومثاله

لست ادري ، أيمن المؤمنين انتم ام من الملحدين . وان كنتم من المؤمنين ، فأيّ الايمان ايمانكم ؟ او كنتم من الملحدين ، فأيّ الالحاد الحادكم ؟ اذ أنّ في الناس من يتجنّح بالايمان وفي تجنّحه الالحاد كله . وفيهم من يغالي في الالحاد وفي مغالاته الايمان كله . مثلما فيهم الذين لا قدرة لهم لا على الايمان ولا على الالحاد

اما انا — أجارني الله واجاركم من هذه الثنون بين اليقينين ! — فأومن بالله وبانهُ مصدر كل منظور وغير منظور . وايماني به هو حجر الزاوية في حياتي . وأؤمن بالانسان وبانهُ صورة الله ومثاله . وايماني بالانسان هو الفلك التي تحملني في خضم هذا الوجود

لولا ايماني بالله لما كان ايماني بالانسان . ولولا ايماني بالانسان لما كان ايماني بالله . فالايمانان من معدن واحد ، بل هما واحد . والذي هداني الى الله هو الله ذاته ، لا ما قرأته عنهُ في الكتب المنزلة وغير المنزلة . والذي قادني الى الانسان هو الانسان نفسه لا ما وعيتهُ من آثاره وتواريخه ودرسته من علومه وفنونه . فمتى ندّعي الايمان بالله قبل ان ينكشف لنا الله في الانسان وعيناً نحاول فهم الانسان قبل ان يتجلى لنا الانسان في الله . وعيناً نطلب ذاك او هذا قبل أن ينعتق الخيال فينا من كل قيد فيصير الخالق في الخليقة ، والخليقة في الخالق

ما خلق الله في كل ما خلق إلاّ ذاته . اذ ليس فوقه او تحته ، ولا امامه او خلفه ، ولا قبله أو بعده شيء لم يكن فيه منذ الازل . ومثلما لا يفيض ينبوع الاّ بالذي فيه ، ولا تأتي شجرة

(١) الخطبة التي القاها في الكلية الاميركية للبنات ببيروت في ٤ مايو ١٩٣٨

بغير الشر الذي في احشائه ، ولا يشتمل عود إلاَّ بالنار التي في قلبه — هكذا لا يفيض من الله إلاَّ الله ، ولا يثمر الله الاَّ الله ، ولا يسطع الله بغير الله . لذلك كان الانسان الصادر عن الله صورة لمصدره . فكان أزليًّا بأزليته . أبديًّا بأبديته . خالقاً بعين القدرة التي خلقته

لكنها صورة ما تزال غامضةً في الانسان المتدثر بدثار الحسّ الخشن وكل ما يلازمهُ من من خير عليل وشر هزيل . وكانها الصورة الشمسية قبل تظهيرها . واذ ذاك فغاية الانسان من وجوده واحدة لا تقبل الشرك من ايّ نوع كان . ألاَ وهي تمزيق دثار الحسّ لتظهر الصورة بتمامها فيرتفع الانسان الى ما فوق الخير والشر . واذ ذاك فما الزمان بمقيده ، والمكان بحدوده ، والموت بظلماته ، والولادة بأشتها ، وكل ما يتخلل ذلك من أنين وحنين ، ودمع رطباً ينة ، وقلق رتيبه ، سوى مساحيق وعقاقير سحرية تُعدّها لنا الحياة لنجلو بها صورة الله فينا ، حتى اذا ما انجلت كل الانجلاء اصبحنا في غنىً عن تلك المساحيق والعقاقير الى الابد وعدنا لساعد في استعمالها أولئك من اخواننا في الناسوت الذين ما برحت صورهم غامضة ، مبهمة

والناس من هذا القبيل رجلان : رجل يعرف الغاية من هذه المساحيق والعقاقير فيحسن استعمالها ليخلص منها بها ، ورجل يجهل الغاية او يشرك معها غايات سواها . فمساحيق الزمان والمكان ، وعقاقير الخير والشر ، وعناصر الموت والحياة لا تزيد صورة الله فيه الاَّ غموضاً . وما دام الله فينا غامضاً فنحن في ظلمات السجون وقبضة العذاب

هذه هي غاية الحياة في الانسان وحياته . ومن كان ذلك اتجاهه تجرّدتْ به روحه عن كل معرفة سوى معرفة بأنه صورة الله ، وجمعت به عن كل ارادة سوى الارادة المنبثقة من تلك المعرفة والتي لا هدف لها الاَّ الكشف عن الصورة والتبع بها صافية ، ساطعة ، كاملة . فأصبح في نظره كلّ عصر وكل عمل بل وكل نبة لا تستمدّ حياتها من هاتيك المعرفة وجعاً وعناء وأصبحت كل إرادة لا تستوحي فوقها من تلك الارادة غلاًّ في العنق وسهماً في الكبد . وهكذا كانت عنده معرفة الله في الانسان وإرادة الوصول اليه نقطة الدائرة من الحياة . فكان كلّ ما تمركز فيها ثم انبعث عنها من اعمال الناس عبارةً عن أفق واسع الى أفق أوسع . وكان كل ما زاغ عنها خيبةً تعود الى خيبة ، وعثرةً تفضي الى عثرة

***

والآن هذا عساني أقول في الفن الذي سألتموني ان أحدثكم عنهُ ، والذي احاطهُ الناس بهالةٍ من التمجيد والتعظيم ، والتبخير والتكبير ؟ هل يخرج الفن عن انه عملٌ من اعمال الناس ؟ إذنْ هو كسائر اعمال الناس — منهُ ما يتمركز في نقطة الدائرة التي حدثتكم عنها . فهي معرفة

ولهُ إرادة . وهو القليل ، القليل . ومنهُ ما هو زائغ عن نقطة الدائرة . فلا معرفته معرفة، ولا إرادته ارادة . وهو الكثير ، الكثير . الاول يحلو صورة الله في الانسان . والآخر يطمسها بكثير الخطوط والاصوات، والتيارات والحركات ، والاشكال والالوان . الاول يفرض ذاته علينا فرض الصلاة على المؤمن ، والنعاس على الجفن ، والارج على الانف ، والنور على حدقة العين. والثاني يحاصرنا بدماراته الطويلة عن رسالته « العلوية » في خدمة الحق والجمال . وحقه لا يتجاوز اللحم والدم فهو خدعة . وجماله لا يتعدى نطاق البصر فهو شفاعة

اذا اردتم مثلاً للفن الذي يذهب بالانسان الى ابعد من الانسان فلسكم في اي هرم من اهرام مصر ذلك المثال . خذوا هرم الجيزة : جدران اربعة محدودة ترتكز على قطعة محدودة من الارض . وهذه الجدران تتماسك بعضها ببعض وبالارض تماسكاً يجعل منها كتلة واحدة تبدو عند قاعدتها ابدية ببقائها، مروّعة بضخامتها ، ساحقة بثقلها . ثم تأخذ في الارتفاع قيراطاً فقيراطاً وفتراً فتراً ، واذ ترتفع تنحني بعضها الى بعض وتبقى متشابكة متماسكة . لكنها كلما ازدادت ارتفاعاً ضاقت مساحة ، ونقصت ضخامة ، وخفّت وزناً . وعندما تبلغ اقصى مداها في الارتفاع تتلاشى في نقطة في الفضاء . هي نقطة الانفكاك — نقطة الانعتاق — نقطة تلاشي النهايات في اللانهاية . فكأن جهات الهرم الخمس — جدرانه الاربعة والارض القائمة عليها — ما تضخّمت في البداية إلاّ لتتقلص في النهاية . ولا ثقلت وزناً الاّ لتصبح قبر وزن ، ولا ارتبطت بعضها ببعض الاّ لتتفك من كل رباط . ولا كانت شيئاً الاّ لتغدو لاشيء

وهذه بالتمام هي حال الانسان مع حواسه الخمس . فهي لا تقع منها الاّ كدرجات يرقى بها الانسان الى ما وراء الحسّ . ولا خير في قيودها الاّ لتنعتق بها من كل قيد . ولا معنى لوجودها المحدود الاّ لتبلغ بها الوجود الذي لا حدّ لهُ

***

ويلذ لي ، قبل ان أترك مثال الهرم ، ان أذهب به معكم الى أبعد مما ذهبت . تأسألكم ان تتمثلوا هرماً قائماً على شاطىء بحيرة صافية وقد انعكس ظله في ماءها فان الهرم وظله كما لو كانا هرمين متقابلين تلاصقت قاعدتهما وكانت قمّة الواحد في الفضاء وقمة الآخر في الماء . ومن ثمّ أريدكم ان تتمثلوا خيال الهرم في الماء كما لو كان خيال العالم في ضمير الله ، وقمّته كما لو كانت نقطة المصدر . أو شاطىء البحيرة تتمثلوه كما لو كان الحد الفاصل بين عالم الخيال وعالم الحس ، او عالم الروح وعالم المادة

يبتدىء الظلّ في نقطة لا سبيل لك الى ادراكها لا بالحسّ لانها لا تحسّ ، ولا بالعقل لانها

أبعد من مجال العقل ، ولا بالفكر لانها أوسع من نطاق الفكر . وقد لنستطيع ان نتخيل وجودها لانها خيال . ثم يستطيل الظل ويتسع في خطوط تجعل لهُ شكلاً . ولكنهُ شكل لصيق بالخيال لا غير . ثم ينتهي الظل بالتلاشي فاذا به يتحوَّل فوقهُ الى طائفة من حجارة متراصة ، مترابطة ، لها وزن ولها شكل ، ولها لون ولها قياس . وهذه الحجارة تمتن في الصعود الى ان تنتهي في الفضاء بمثل النقطة التي ابتدأ منها الظل في الماء ، فلا وزن لها اذ ذاك ولا شكل ، ولا لون ولا قياس . هكذا يتكاثف الروح فيغدو مادَّة . وتتقلص المادة فتعود روحاً

ولكم من بعد ذلك ان تتمثلوا كل انسان هرماً مستقلاً في ذاته . ثم ان تتمثلوا ذلك الهرم حجراً في هرم أكبر هو البشرية ، والبشرية حجراً في الهرم الاكبر الذي هو الكون . وعندئذٍ فالبشرية التي نحن منها ليست مجموعة اجناس ، وطوائف ، وملل ونحل يفضل بعضها البعض بقوته او بماله ، او بجاهه او بسلطانه ، او بنسبه او بعلمه . بل هي بناء واحد أسفله في التراب وأعلاه في اللانهاية . وهو بناء متحرك لا يعرف الجمود . أسفلهُ ينهض أبداً بأعلاه الى فوق ، وأعلاهُ يجذب أسفله الى حيث لا قيد ولا حدّ ، ولا ولادة ولا موت ، ولا عقاب ولا ثواب — الى الله — ولا فرق بين حجر وحجر في هذا البناء — أي بين انسان وانسان — الأعلى قدر ما يقترب الواحد من الاساس والآخر من القمّة . فالذين في أسفل هم الذين يحملون اثقال الحراس الساهرة ولم يتنبه خيالهم بعد ليهديهم الى الصلة الابدية بينهم وبين القمّة والى الايمان بانهم بلغوها يوماً ما . والذين اقتربوا من القمّة هم الذين لمع خيالهم واشتد ايمانهم فخفت اعباؤهم الحسّية . والذين بلغوا القمّة هم الذين انعتقوا من ربقة الحسّ فما عادوا يشعرون بجاذبية الارض وضغط السماء . وقد يكون في أعالي الهرم كثير ممن يحسبهم الناس في أسفله . وفي أسفله كثير ممن يحسبهم الناس في أعاليه . وربَّ حجر يلاصق القمّة كان عبداً عند الناس . وسلطان عندهم لم يكن غير حجر في الأساس

***

ما عاديت في الكلام عن الهرم الا لاعطيكم مثلاً للفن الذي هو في نظري جدير بالاعتبار وهو الفن الذي إذا ما تمثلتموه أحسستم كأنكم تنعتقون من الحسّ . واذا ما حاولتم تحديده قادكم الى حدٍّ لا حدود . فرأيتموكم شاملين مثلما الله شامل . ورأيتموكم أزليين أبديين مثلما الله أزلي أبدي . ورأيتموكم خالقين مثلما الله خالق . وبكلمة أخرى ، هو الفن الذي يكشف فيكم عن صورة الله ومثاله . ولا أريد ان أمشي بكم الى متاحف الارض وبمعالمها ، ومراقصها ومغانيها ، وسمارحها ، ومكاتبها لأدلّكم في رسوم اي الرسامين ، وتماثيل أي المثّالين ، وبناء أي البنّائين ،

وألحان أي الموسيقيين ، ورقص أي الراقصين ، وتمثيل أي الممثلين ، وشعر أي الشعراء تمحون لمثل هذا الفنّ أثراً . فالفن كالطبيعة — مفتاحه في نظر الناظر وسمع السامع وما يستبطنان عدّة من خيال . فلا أنتم تستطيعون ان تنظروا بعيني ، ولا أنا أستطيع أن أسمع بآذانكم

أما الفن الذي لا يطمح من تصوير الطبيعة الاّ الى نقل جانبٍ ضئيل — وضئيل جدًّا — من أشكالها وألوانها فحسبما دقّ صنعاً لن يعطيكم ذرة مما أنتم قادرون ان تتناولوه مباشرة بحواسكم. فما رأيت البحر على لوحة رسّام الاّ كان سخريةً بالبحر الذي أبصرتهُ بعيني وسمعتهُ بأذني . ولا الشمس الاّ كانت تجديفاً على الشمس التي عرفتها في كل ذرة من نفثات دمي . وكذلك الفن الذي لا يخرج في تصويره الانسان مما ألفناه فيه من عواطف وأفكار ، ونيّات وشهوات، وأفراح وأوجاع ، وتقاليد وأوضاع ، فهو ليس للانسان اكثر من نقل على باب سجنه ، وغشاء فوق الاغشية التي على عينيه ، ونير فوق النير الذي على عنقه

هل منكم من لم يرَ من الناس أشكالاً تضيق بها ذاكرته ؟ أم من يجهل ان الانسان يولد ويموت ، وانهُ بين الولادة والموت يدأب ليعيش ، فيقاتل ويناضل ، ويبغض ويحب ، ويغضب ويرضى ، ويحسد ويطمع ، ويمرض ويتعافى ، ويتزاوج ويتناسل الى كل ما هنالك من هواجس ونزعات وتقلبات ؟ فأي نفع لكم من يصوّر كل ذلك بالألوان او بالحجر او بالكلام فلا يزيدكم معرفةً بما أنتم عارفون ؟ ولئن كانت لهُ مقدرة على الوصف والتصوير ليست لكم ، فقد تهركم المقدرة . لكنها لا تخفف من ثقل ازراركم ، فلا تعطيكم جناح امل ، ولا تذكي فيكم شرارة ايمان ، ولا تدنيكم قيد شعرة من المعرفة بأنكم صورة الله ، ومن الارادة التي تمكنكم من كشف تلك الصورة

***

أذن فالفن نوعان : فنٌّ يبتدىء بالمحسوسات لينتهي منها الى ما وراء الحس . فكأنهُ يعالج مسابق الزمان والمكان عارفاً ان لا نفع منها الاّ التخلص من قيود الزمان والمكان . وفنٌّ ينشأ في المحسوسات ليفنى فيها . جاهلاً انه متصل من سابق الزمان والمكان . فكأنهُ لا يعرف الا [illegible] بضع واحداً منها . ومما يؤسف لهُ اشدّ الاسف ان اكثر فنون الناس من هذا النوع الذي كنت أدعوه عقيماً لولا اعتقاد راسخ في ضميري ان الحياة أدرى مني ومنكم بتدبير شؤنها . وان لا عقم فيها نهي كالارض تحوّل كل موت الى حياة ، وكل قذارة الى طهارة ، وكل عقم الى خصب

***

ألم اقل ان الانسان خالق بعين القدرة التي خلقتهُ ؟ وماذا عساهُ يخلق غير ذاته ؟ فهو في كل ما يعمل انما يخلق ذاته كما يعرفها في اللحظة التي يعمل فيها . ونحن لو كانت لنا عيون تتفذ من

ظواهر الامور الى خفاياها الا بصرتنا الانسان كل الانسان في اقل حركة من حركاته وسكنة من سكناته. فما كتب كاتب كلمة الا كتب ذاته فيها. ولا لبس لابس رداء الا لبس فيه ذاته. ولا لفظ ناطق بكلمة الا لفظ بذاته. والذي نخلقهُ في كل ما نخلق انما هو صورة الله فينا على قدر ما تكون غامضة او جلية. فمن السف، والحالة هذه، ان نحاسب كاتباً في ما يكتب، او شاعراً في ما ينظم، او رسّاماً في ما يرسم، او ملحناً في ما يلحن او أي رجل في ما يعمل. اذ انهُ، حتى ولو حاول، لما استطاع ان يعمل اكثر او اقل مما يعمل ولا غير ما يعمل. واعمال الناس هي المصاديق والعقاقير السحرية التي يجلون او يطمسون بها صورة الله فيهم واذا كان لا بدّ لنا من محاسبة فلنحاسب انفسنا لا غير. ولنحاسب انفسنا حساب من يعرف ان من الاعمال ما يطمس فينا صورة الله ومنها ما يجلوها. ولنحاسب انفسنا حساب من يريد ان يعمل الاعمال التي من شأنها ان تجلو صورة الله. فلا لبث بشيء لان الله في كل شيء ونحن فيهِ مع الله. ولا نكبر على انسان لانهُ صورة الله. ولا نصغر أمام انسان لانا مثال الله. ولا نقيم الفواصل بيننا وبين الناس، او بين الناس والناس، لان الناس كلهم حجارة حيّة في هرم الوجود الالهي

***

إنّ أجل الفنّ ليس في المتاحف ومحترفات الفنانين. بل في حياة موحدة الغاية والارادة، في قلبها ايمان لا يتزعزع بهدف الانسان الاسمى، وفي ايمانها محبة لا تنضب لكل من شاركها وماشاركها في ذلك الهدف، وفي اعمالها وأقوالها، وتزعاتها ونياتها دعامة لذلك الايمان وزيتاً لتلك المحبة

فان سئلتم عن ابدع آيات الفن وأغلاها، قولوا: هو ضمير لا يستحي. وجبين لا يعفر. ولسان حليم شكور. وقلب عفيف غفور. وعين لا تبصر القذى. ويد لا تنزل الاذى. وفكر يرى في انملة عطية. وخيال يربط الازلية بالابدية». وهذه قد تمرّون عليها فيمن لا علم لهم بأسرار الدنان والاحان والمواني قبل ان تلمحوا لها اثراً في كبار الشعراء والرسامين والملحنين وقد تجدونها في الاكواخ الوضيعة قبل ان تجدوها في القصور الرفيعة. وفي المساكر الحقيرة قبل المتاحف الشهيرة. فلا تخدعنكم الالقاب. ولا تغرنكم الشهرة. ولا تعمينكم تقاليد الناس الفنية عن الفن الاكبر — فن امتشاق الانسان من عمد ناموسه، والوصول به الى ذروة الالوهية

وان لم يكفكم لبلوغ المحجة عمر واحد — ولن يكفيكم عمر واحد — فان تتبع اعماراً بعدها اعمار، بعدها اعمار. وان لم تكفيكم الارض — ولن تكفيكم الارض — ففي الفضاء ساكن، بعدها ساكن، بعدها ساكن

الحياة الفكرية

في عهد الشدة وعصر الاستقرار

لناير أرقم

من الشائع المتعارف ان عصر النمو الفكري والتفوق الفني والنبوغ الادبي في حياة الامم وسير الحضارات ليست هي الاوقات الممتازة من الناحية الخلقية او من الوجهة السياسية ، وقد اشتدت العناية بالادب وكثر تذوق الفن ونظم الاقبال على صنوف العلم في أغلب نهضات الامم ووثباتها المأثورة بعد انتهاء عهد الضعف الوطني وانتصار السياسي ، وكانت تلك الحياة الفكرية الخصبة نتيجة متطورة من تأثيره وثمرة مرتقبة من ثباته وتأييده واستقراره ، فيخرجها أبدع طرائفها الادبية وأنفس آيات فنها في عصر اكتمال قوتها السياسي وفي ريعان عزتها القومية ، وفي عصر بركليس لما أخذت تظهر بوادر الضعف وتتشور علامات التدهور والانحلال كثر التهافت على الفن وذاع التعلق بالادب والاقبال على العلم كأنه تعزية لازمة محتومة وعلامة واضحة الدلالة على بدء نضوب القوة القديمة ونفاد الجعبة الكاملة ، وكذلك كان الحال في روما ، وذلك أنها لما لانت قرتها وتعبت القابض على النظام وتزلزلت الاسوار وزرقت الطبائع النافرة ولطفت الامزجة الجامحة ساد الفن وعم الادب والتأنق الحياة الفكرية ، وقد جاء هوميروس في العصور الاولى ليتغنى بأمجاد الاقدمين كما جاء شكسبير في ختام العصور الوسطى ليروي لنا نفسية الانسان في عصر [illegible] وشهوات ونزعات وميول ولعدنا ما كان في حياة أعظم [illegible] من أثاين الطرب والفكاهة والمجون والدعابة ولما انتهى عصر الا[illegible] الوضاءون وكثاب السير ورواة [illegible] عصور الامن والهدوء والحياة رضية مثلما كان الحال في [illegible] مضطرباً بماني أشد الازمات والحادث ما بين مصدات [illegible] حتما جمالها الشم من خطر الاتصال بالغاز والاقباس من [illegible] وثبات من عصر [illegible] ونزواته الهادمة ، وكان السلام مزرقة في رونقها فلا [illegible] على الراحة والاتكال على الزيت والغذاء ومنتهى أوب الاحراء صيد الوحوش [illegible] الفتح وسلة [illegible] ازهاق الارواح. وقد ولد في ذلك العصر الهادي [illegible] ظله مجرجاما ورداً ونزل عليه

وحي حكمته وهو جالس تحت ظلال شجرة «البو» الجميلة فكانت البوذية ثمرة تلك الحياة الوادعة الحالمة الشبيهة بظلال الخيال ومخبرات الاماني والآمال ، وقد يدعونا ذلك الى ان نستخلص ان الحياة الفكرية تنمو وتزهر حيث تتمكن الحضارة وتستقر الحياة ويأمن الناس صولة الثورات وطوارىء الحدثان ويظفرون في هذا الامن الشامل بالهدوء الذهني والفراغ اللازمين لظهور بدائع الفن وطرف الادب ، وما دام الفن يحتاج الى الاتقان والتجويد والاناة واعمال الفكرة والانصراف عن الشواغل في العالم الخارجي فاحر بأيام الطمأنينة والهدوء ان تكون عصوراً ذهبية للادب والفن

ولكن اذا كانت عصور الهدوء والاستقرار صالحة للادب والفن منشطة لسير الفكر فهل أوقات الثورات العاتية والانقلابات العاصفة معوقة للادب قاضية على الفن ؟ وهل هي حقيقة تسلب رجال الفكر ونوابغ الفنون الهدوء الفكري والرزانة والاتزان وتحول بينهم وبين متعة الفراغ الكافي لنماء آيات الفن العظيمة ؟ لسنا نجد في التاريخ أدلة كثيرة تثبت ذلك وتنهض به بل قد نلتقي في التاريخ بحقائق تنقضهُ ، فان أوقات الثورات والانقلابات تستفز المشاعر وتهز النفوس هزاً عنيفاً وتحرك أوتار القلوب وتثير دوافع الجرائم وتستجيش عوامل الهمم فتقوى الخواطر وتتفتح العقول وتشحذ الاحاسيس ويتبع ذلك ظهور نوع من الادب الحر القوي المفعم بالرجولة ، وكثيراً ما كانت أيام الحروب والثورات مبتدأ لجلائل المبتكرات وأنضج ثمرات العقول ، وقد كان القرن السادس عشر مثلاً من القرون الخاصة بالثورات وضروب الحروب المذهبية الدينية والمعارك السياسية الاجتماعية والمجادلات العلمية الادبية وكان في نفس الوقت عصر نهضة جمت جوانبها وفاض معينها وتناعيك بقرن يحتشد فيه من أعيان الانسانية واقطاب الفكر أمثال لوثر المصلح ورافائيل ومشيل انجلو والشاعر اريستو والكاتب مونتين والعلامة إراسموس ومن العلماء أمثال جاليليو وكوبرنيكس والفيلسوف فانيني وغيرهم من أساطين الفكر وجبابرة العقول وقد انتفضت في ذلك القرن فروع الحياة الفكرية جميعها ووجد كل فن معبراً عنهُ وممثلاً له وكانت ايطاليا حينذاك بخاصة من بين دول أوروبا ممزقة الاوصال مصدوعة الوحدة مسرحاً للفوضى والجرائم المنكرة وأفاعيل القسوة ولكنها كانت في عين الوقت استاذة أوربا وحاملة لواء الحركة الفكرية

وقد مرت بنا نهضتها الادبية العجيبة في أوائل القرن التاسع عشر وفي ظروف عصيبة وعهود عاصفة وكانت بمثابة الشعل متقدة الاجزاء مجروحة العزة القومية وقد أتم فيلسوفها الكبير هيجل كتابه « ظاهرة العقل » وبنابليون النابليونية تدوي في أذنيه وقائد فيلسوفها نفث تحيه وهو يذود عن وطنه ويثير حمية تلاميذه وأتباعه ، وقد قويت في ذلك الوقت البضة الفكرية في المانيا فنبغ مذاهب فلسفية عظيمة كأروع ما عرفت الفلسفة ومن آراء طريفة في التاريخ والنقد الى نظريات أصيلة في اللغة والعلوم ، وقد كان مجيئاً ظهور تلك النهضة الرائعة في المانيا التي صرعتها الحوادث وأساء اليها الدهر ولكن أوقات الاضطرابات والثورات من شأنها ان تهيء

القلب وتحرك رواكده وتبعث كوامنه فيظهر من النفس كل خفي ويتكشف كل كنز دفين وتتفتح أزاهير الروح الداخلية وتخرج من المبتكرات العظيمة والمنشآت الفنية الخالدة كما خرج هذا العالم الذهبي من جوف الحوباء القديم والفوضى السالفة، وكأن الحركة العامة الشاملة والاضطراب السائد والقلق المستحوذ يرمض الخواطر ويفض اغلاق النفوس فتسخو بقوتها المذخورة وتجود بثراتها الجم المدخر، ولئن كانت حياة الدعة والاستقرار تريح الفكر وتمنحه الهدوء إلا أنها تقله وتخضعه للنظم والقوانين وتحصره في حدود العرف الشائع والرأي العام الدائع، اما في أوقات الاضطرابات فان العقول تجد مراحاً تنطلق فيه كما شاءت لها طبيعتها إذ يقل ضغط الروابط الاجتماعية وتتحطم اغلال العرف وقيود المصطلحات وغير عجيب ان تجود تلك الازمنة بكل نفس ثائرة هدامة خارجة عن الفرائض المرعية في الدين والآداب والاساليب المتبعة في الفكر والمناهج المألوفة في الفن، ولقد كانت الديانة المسيحية السامية وليدة ثورة من أشنع هذه الثورات ونبت عصر من أشد عصور الاضطرابات. وكذلك نشأت الديانة الاسلامية خلال العواصف والقلاقل ولذلك جاء المتنبي والمعري في أزمنة انحلال وقد تزلزلت رواسي الحياة وتداعت اركان الحضارة

في عصور الاستقرار يسود نوع خاص من الفكر وفي عهود المشادة ينبعث نوع آخر مغاير له، فأدب عصور الاستقرار يمتاز بجودة الصناعة وحسن الصقل وبراعة الاتزان وانسجام التأليف ولكنه خال من الحيوية القوية والروح المتوثبة، وأدب عصور المشادة يمتاز بقوته وشدة اسره وعمقه وغزارته وبعيد ابتكاراته وطريف مخترعاته، وفي ازمنة الاستقرار يتصور الناس ان الفن حلية على جيد الحياة وان الادب تسلية تقطع بها ساعات الفراغ ويرجى بها السأم وان العلم نوع من الرفه، أما أزمنة المشادة فينضب عن أدبها روح الجد ونزعة الجهاد البعد عن الزخارف وعدم تكلف الصنعة، وفي اوقات الاستقرار تسود افكار معتدلة لا شذوذ بها ولا مغالاة ولكن في أيام المشادة والانفعالات تظهر الافكار الكبيرة وكأن الغرض في تلك الازمنة تخرج عن مداراتها المألوفة فتلمس شيئاً من اسرار الحياة المحجبة وغرائبها المستورة وتبصر لمحات من الابدية الخفية ويهبط عليها نوع من حكمة الوحي وقداسة الالهام ويظهر في تلك الفترة الجليل والسخيف والرائع والمضحك وتتجلى المتناقضات والخوارق والمعجزات وتتمازج اشد الوان الريح المختلفة وتواريها المتناقضة وقد ظهرت في العصر الذي ارسل فيه المتنبي حكمه الخالدة في مسمع الايام حماقات الشاعر ابن سكرة ومسخ فات ابن حجاج

وعهود الاستقرار عهود الزان وانسجام تنفرس اعمالها هادئة مطمئنة غير مأخوذة بروعة المجهول ولا سكرى بنشوة الجهاد والمكافحة. ولتوضيح ذلك سأوازن بين شاعر يمثل عصراً من عصور الاستقرار النسبي كالبحتري وآخر يمثل عصراً من عصور المشادة والقلق مثل المتنبي، والبحتري والمتنبي شاعران متناقضان في كل شيء، البحتري رجل حضارة نهر سلس الطباع غير ناقم ولا منحط والمتنبي ثائر الطبع غير مستقر النفس، والاول يجيء في عصور الاتزان

وقد استفاضت الحضارة واسبغت ظلها . والثاني لا يقبل الى الدنيا الا في اوائل الحضارة او في نهايتها ، في ثورة التكوين او في اضطراب الانحلال ، والبحتري أتقى صياغة وأرشق معرضاً ولكن المتنبي يدهشك من هيئات اسلوبه ويغرب فيه بقوة روحه وشدة طبعه ، وقد ظهر الاول والخلافة لم تذهب بعد هيبتها ولم تصلب العواصف بقوتها فكانت شخصية الخليفة تستغرق كل الشخصيات وتميل عليها وتبسط ظلها فوقها . ولكن الثاني جاء في وقت ملكيات محدودة متعددة الاشياء والنظائر فتفتت شخصيته ولم تجد قوة تصدها وتهزمها ولذا ترى الاول يتقاسى شخصيته ويفنى في شخصية ممدوحه بينما المتنبي يقبض على ممدوحه من صفات نفسه وشمائلها وتنسج له حلة من خياله، والاول كالبحيرة هادئة تحرك عليها النسائم عذب مياهها وتحدث بها موجات لطيفة هادئة . والثاني كالبركان الثائر يقذف بالحمم المستمرة ويصب عليه الألم الدائم والشكوى المستمرة وسوء الظن بالبشر والتقلب بين السخط الثوري عليهم والكره الشديد لهم والبحتري ناعمة بالملوك لشوائه عامرة بالذات اوقاته وأحدها نفس راضية والثاني نفس معذبة لا تأوي الى ظل من الامن ولا تستقر على راحة

وترى في شعر كل منهما صورة من عصره ، فالبحتري ينظر الى الاشياء القريبة المنال الدانية من الفهم ويتجنب كل ما يحسر الفكر ويكد الذهن ويراعي في شعره موازنة عجز البيت بصدره ويدخر الكلمات الرشيقة والالفاظ الطلية ليقفل بها القافية ويحاول ان يوجد توازناً ملحوظاً بين الفكرة والتعبير عنها ويقدر لذة الاذن وسعة السمع فيتخير الالفاظ الرقيقة المهذبة ويطرح الغريب الوحشي والحشو والزوائد في شعره بلاغة وبراعة وتخلله موسيقية هادئة منسجمة وأوضح صفاته التناسق والسلاسة لا الحرارة وقوة الروح وعبقريته عبقرية متزنة وليست عبقرية متقدمة جريئة كعبقرية المتنبي ، وعواطفه هادئة لا تتعامى الى الحدود البعيدة والغايات القاصية فهو يقف بالحد قبل كل شيء ولوع بالزينة والتظرف وانتقاء العبارات السائغة المقبولة ، وهو يحس في نفسه مشاعر ويكظم فيها اهواء ولا يرضى الوجود والحياة لكل فكرة تمر بخاطره وعاطفة تختلج نفسه وهو يقبل الافكار التي اقرها المجتمع واصطلح عليها العرف حتى لا يصطدم بمعتقداته ولا يخرج مقتداً وذلك للمح في استهانة المتنبي بأوضاع اللغة وشذوذه عن القياس مع جريانه على [illegible] وضعية هو فوضى عصره وشذوذه ولكنك تسمع خلال شعره نبضات قلب كبير وزفرات روح طموحة لم تنل ولم تذلل وهو يأخذ الحياة مأخذ الجد فلا يكثر في شعره من التجمل والزخرف ولا يجري وراء المحسنات والرقائق ولا تقارنه في شعره تلك النظرة الاخلاقية النافذة التي امتاز بها عن سائر شعراء العربية والتي هي اساس فلسفته في [illegible] وخلاصة تأمله في طبيعة البشرية ، وخلاصة القول ان البحتري مثل صادق ونموذج تام لادب الهدنة الزخرف الذي يظهر في عصور الاستقرار كما ان المتنبي خير عنوان لادب القوة والابتكار الذي يسود في عصور الشدة والقلاقل والاضطرابات

الدستور

والنعرات المذهبية

لانيسي الفرسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

إنّ من يعرف الشرق العربي قبيل الدستور يعرف ما بلغهُ من الاختلال الاجتماعي والاقتصادي . فسياسة الحكومة الخرقاء والدعايات الاجنبية المختلفة كانت من افعل الوسائل لتوسيع شقّة الخلاف بين ابناء البلاد حتى اصبحت البغضاء الطائفية مستحكمة الحلقات وكثيراً ما كان ذلك يفضي الى « حوادث » دامية وشرّ مستطير . ومهما نحاول تخفيف الامر فلا سبيل الى انكار ما كان في العهد الحميدي من حزّازات بين الاكثرية والاقلية ، بل بين الفروع التي تنتمي الى كلٍّ منهما . وفي ذلك يقول سليمان البستاني وهو عثماني صميم ومن الذين خدموا الدولة نائباً ووزيراً «لم يكن من مصلحة ظلمة الاستبداد في الحكومة الغابرة ان يؤلّفوا بين القلوب اذ كانوا يعتقدون لجهلهم ان وفاق الامة يدك معاقل صولتهم »[1] والى هذه الحال يشير بطل الانقلاب نيازي بقوله من خطبة القاها في جمعية الاتحاد والترقي وذلك قبيل اعلان الدستور[2] « تعلمون ان سفالة الحكومة وجبنها وهوسها صيّرتا سخرية بين الناس والذي يجب ان نقوم به لقاء الحكومة ولقاء مؤامرة اوربا على تقسيمنا هو ان تثبت فعلاً في ثورتنا هذه اننا نحب المسجيين كاخواننا ونساوي بينهم وبيننا . فليست ثورتنا ضد الاشخاص والعناصر بل هي نهضة ضد اصول الادارة التي اوقعت العداوة بيننا وبين اخواننا في الوطن». فنيازي هنا يصرّح بهذه الحقيقة المؤلمة ويعزو اللوم في ذلك الى سوء الادارة من جهة والى سياسة المستعمرين من جهة اخرى . ولقد يصحّ ان نستثني مصر لما كانت تتمتع به من حرية اجتماعية بعد الاحتلال على ان سائر البلدان العربية ولاسيما سوريا كانت — كما هو معروف — تتخبّط في دياجير التعصّب

(١) كتابه عبرة وذكرى (١٩٠٨) ص ١٠١ (٢) من تأملات نيازي رامع الوردالصافي ١ — ٦٤

وتقاسي منهُ الاهوال . فلا عجب اذا رأينا السوريين واللبنانيين يهاجرون الى وادي النيل او يضربون في آفاق الارض سعياً وراء الرزق والحرية . وقد اصاب حافظ ابرهيم اذ قال في وصف هؤلاء المهاجرين [1] —

لم يحمهم عَلَمٌ فيها ولا عددٌ ... سوى مضاء تحامى وِرْدَهُ الذُّيَّابُ
لهم بكلّ خضمٍّ مسرب نهج ... وفي ذرى كل طودٍ مسلك عجبُ
ما عابهم انهم في الارض قد نُثروا ... فالشهب منثورةٌ مذكانت الشهبُ

ولا ينكر ان كثيرين من العقلاء كانوا يرغبون في الحسنى . وفي القضاء على هذا الاختلال الاجتماعي المؤذي ، لكن السياسة على ما يظهر لم تمكّنهم من ذلك

فلما أعلن الدستور ونودي في الناس بالحرية والمساواة والاخاء زال الضغط فجأةً عن الصدور حتى رأينا من غريب المشاهد ما كان له اثر عميق في ادب ذلك العهد . زعماء الطوائف يتعانقون في الساحات العمومية ويتعاهدون على المودّة الاخوية . قال الدكتور عرد بلس من خطبة له القاها في الجمعية الجغرافية الوطنية باميركا (في ١٨ دسمبر ١٩٠٨) ذاكراً تلك الحال في بيروت — [2] « فأطلقت حينئذٍ الحرية في المدينة ولم يعد الناس يملكون ضبط نفوسهم عن اظهار بهجتهم — والناس الذين قضوا السنين الغابرة والعداوة بينهم مستحكمة صاروا الآن اصدقاء اعزّاء في الحفلات والمجتمعات وصار رؤساء الدين من المسيحيين والمسلمين يتضامون ويتعانقون . قطعت الاغصان من الاشجار وأتي بالبسط من المنازل وأكتظت الشوارع بالناس فكانوا يضيفون اخوانهم الذين فقدوا صداقتهم زماناً طويلاً . وكانت امارات المودّة والالفة ظاهرة في كل مكان حتى بين الرعاع وذوي الجرائم »

ولنترك لاديب بيروتي معروف وصف مشهد من هذه المشاهد وهو اعرف بما حدث في اهم الحواضر العربية قال — [3] « من أبهج ما رأيت من هذا القبيل ان نفراً من شبان حيّ السراي (حي اسلامي) ركبوا العربات فسارت الى محلة الجمّيزة (حي مسيحي) فجدّدوا عهود الاخاء مع اخوانهم المسيحيين بعد ان ابلاها الجهل ورجال السوء . هناك تآخى الفريقان وتحابّ القبيلان وعلموا ان الثمانين جسم واحد تديره روح واحدة »

ويزكي هذه الشهادة ما ذكرتهُ مجلة الهلال عن بيروت اذ قالت [4] — « اظهر اهل بيروت بعد اعلان الدستور ما ادهش العثمانيين من الاتحاد والحرية الشخصية وصحة المدارك . فقد كان أهلها اول من تصافح فيهم الشيخ والشبيب . واظهروا في اثناء انتخاب النواب لمجلس الامة

(١) من قصيدته الشهيرة (لمصر ام لربوع الشام تنتسب) (٢) راجعها في المقتطف ٣٤ — ٣٥٠
(٣) مصطفى الغلاييني في لسان الحال ٦ آب ١٩٠٨ (٤) الهلال مج ١٦ — ٩٩٦

استقلالاً في الفكر واتحاداً في الكلمة. ولما وثب بقية حزب التقهقر بجمعية الاتحاد والترقي بالاستانة كانوا في مقدمة الناقمين على الواثبين. وقاموا يؤيدون الدستور بخطابهم ورسائلهم. وعزوا على بعض الجواسيس يسعون في التفريق بينهم فتبصروا عليهم . وجددوا الوفاق بين طوائفهم . وقالوا اذا تباغضت الطوائف في كل المملكة فنحن متفقون في نعمة الدستور الى آخر نسمة من الحياة »

والشعراء في هذا الوفاق وفي الحض على نبذ التعصب الذميم قصائد كثيرة نجتزىء منها ببعض مقطعات على سبيل التمثيل . فمن ذلك هذه الابيات [1]

قد صرتم امةً في الارض واحدةً ... من آل عثمان لا عُرباً ولا عجما
فلا تفرّقكم اجيالكم فرقاً ... ولا تفتّتكمُ اديانكم رِمَما
كم قيدوكم بها اسرى وكم سفكوا ... دماءكم او احلوا فيكم النقما
واليوم جرّد سيف الحق صاحبه ... وهاجم الظلمَ حتى فرّ منهزما
تعانق الشيخ والقسيس واصطحبا ... من بعدما افترقا ضدين واختصما
تآخيا في حمى الدستور واتّحدا ... ورفرفت راية التوحيد فوقهما

وهذه النغمة تسمعها في بيروت كما تسمعها في دمشق وبغداد وسواها . فمن دمشق مثلاً قول أحد أدبائها [2] من قصيدة : —

أيها الشرقيُّ قد بلّغتَ ما ... كنت ترجوه فهل تمّ خلل
فانبذ البغضاء والحقد ودع ... كلَّ ما فيه فسادٌ وزغل
كلُّ من في الشرق اخوانٌ فلا ... فرق بين الخلق من كلّ النحل

ومن العراق قول شاعره [3] —

أكرم بمصرٍ حيانا بالمساواة ... وخصنا بالتهاني والمسرات
عصرٌ به قد تآخينا فليس ترى ... بعد الاخاء طريقاً للعداوات

والذي يظهر من مراجعة النقات الدستورية ان هذا الشعور الأليم بمساوي التعصب الديني كان أبرز في الشعر السوري اللبناني منهُ في سائر الاقطار العربية . ولعلَّ من أسباب ذلك أن مسألة « الاكثرية والاقلية » لم تبلغ في مكان ما بلغتهُ في الاقطار السوريّة . فمصر كما ذكرنا كانت تحت نفوذ الاحتلال ، والعراق قطر اسلامي لا قوّة للاقلية فيه وبالتالي لا تنافس طائفي موجب للبغضاء . وان كان شيء من ذلك في ذلك الحين بين المسلمين أنفسهم من سنّة

(١) من قصيدة لفولا رزق الله الهلال ١٧ — ١٧٢ (٢) هو شاكر يافث: شيخو ٢ — ١٦٥
(٣) من قصيدة: راجع شيخو ٢ — ١٦٤ (ولم نجدها في ديوان الشاعر)

وشيعة . ولم يظهر في الشعر العراقي من اشارة الى احتكاك المسلمين بالمسيحيين الا في عهد الانتداب ، كما نرى في قصيدة وجّهها الرصافي الى المسيحيين ومطلعها (١) —

أما آن ان تُنسى من اللوم أضغان تبينى على أنّ المساواة بيان
علامَ التعادي لاختلاف ديانةٍ وإن التعادي في الديانة عدوان
إذا جمعتنا وحدةٌ وطنيّةٌ فماذا علينا أن تُعدّد أديان

وهي طويلة وتشفّ عن خوف العراقيين من السياسة العاملة على هدم الكيان القومي بالتفريق بين طوائفه . وسنرجع الى ذلك بعد .

أما سوريا وبنوع خاص منطقتها الساحليّة التي تشرف عليها جبال لبنان فقد كان التناقض الطائفي فيها على أشدّه ، وكانت دائماً اكثر تعرّضاً للدعايات الاجنبية وأكثر اختلاطاً بالحضارة الغربيّة . فنشأ عن ذلك ضغائن ورواسب دموية كان لها أثر عميق في النفوس . فلا بدع أن نرى الشعر السوري واللبناني في ذلك العهد أشدّ تهجماً على التعصّب الديني وأكثر ترحيباً ورجاء بالعهد الجديد . وقد حملت النشرة الدستورية بعضهم على الخروج عن حادّة الاعتدال . فلم يقفوا عند حدّ التهليل بالاخاء والدعوة الى نبذ الاحقاد ، بل تجاوزوه الى درجة التطرف فصاروا يعزون الى الدين ورجاله كلّ أسباب التعصب والشقاق ، ويرجعون اليهم كلّ ما أصاب الشرق من البلايا الاجتماعية ، كقول احد شعراء المهجر (٢)

وإني ليوهيني تقسّم أمتي بأديانها والشرّ بين المذاهب
متى ينتهي كهّانها وشيوخها فنخلص من حيّاتهم والعقارب
شقينا لتمام وراحتهم فهم يموتوننا كالميس تحو الحاطب
فما الدين إلاّ نسخة بعد نسخةٍ يزخرفها للناس أهواء كاذب

وفي الشعر الدستوري كثير من مثل هذا التطرّف (ومعظمهُ في الاوساط المسيحية) . فلا تعجب اذا رأينا رجال الدين ينكرون ذلك ويقاومونهُ كما فعل الآب لويس شيخو في كلامه على الحرية الدستورية إذ قال (٣) . « وأسوأ من هؤلاء (أي المبالغين والمتهوّرين) اولئك الذين تسرّلوا بالدستور فاستباحوا في شعرهم ذمار الدين وانتهكوا حماه وبحثوا حتى عثّلير فترى هذا ينسب الى الدين كلّ الشرور وأسباب التقهقر ، والدين كما لا يخفى يأمر بالاخاء والتحاب

(١) ديوانه (١٩٢٣) ١٥٠ (٢) ابو الفضل الوليد في « أغاريد وعواصف » ٤٠ (٣) آداب القرن التاسع عشر ٢ — ١٦٨

وغيره يدّعي أن الدين لا دخل لهُ في العمران وانهُ من المسائل العرضية (كقوله)

خلِّ قسِّي وشيخكم في جدالٍ وأحكمِ لي في المسائل الجوهرية

وإذا ذكر الذين حُكم عليهم بالظلم وقت الاستبداد تعجَّب أنهم لم يكرموا كآلهة مثل السيد المسيح

مات عيسى فألّهتهُ ألوف وألوف ماتوا وراحوا ضحيّه

« ويجعل آخر كلّ الاديان متساوية وكلها صحيحة » . . . الى ان يقول .. « فنشدكم الله ايها الشعراء صونوا تراثكم من كل امتهان ولا تبتذلوا موهبة جاد بها عليكم المنان »

***

ولا بدّ لنا من القول ان هذه الحرب التي اثارها الشعر الدستوري على التعصب الديني قد احدثت شيئاً من التقارب المنشود، لكنهُ لم يكن ثابت الاركان . فظلت الطائفية اساس الاجتماع والسياسة في البلدان العربية . وظلت مسألة الاكثرية والاقلية عقدة من العقد المستعصية ، حتى في مصر حيث كانت السلطة الاحتلالية تقوم بدور الحماية لحقوق الاقليات . ففي سنة ١٩١١ عقد الاقباط في اسيوط مؤتمراً خاصًّا للمطالبة بامور تتعلق بطائفتهم [1] وازاء ذلك عقد المسلمون مؤتمراً في عين شمس [2] ومن بواعث الرضى أن جوّ المؤتمرين كان مشبعاً بروح الوئام . الاّ ان المدقق في البواعث على انعقادهما لا يسعهُ الاّ ان يرى شبح الطائفية فيهما ماثلاً للعيان . وكذلك كان هذا الشبح في سائر الاقطار العربية

فالدستور أرهف الشعور الاخوي بين الطوائف حيناً ، وفتح للاحرار باب التهجم على التعصب ، حتى ظنّ كثيرون ان اسباب الجفاء الديني قد زالت من الشرق العربي ، وان ابناء الشرق ، على اختلاف نحلهم ، سيتعاونون في ظل الحياة الجديدة بعهد جديد تتقلّب فيه روح الوطنية الحرّة على الصور الدينية القديمة . والحق يقال ان الشعر العربي لم يقصّر في الدعوة لهذا العهد الجديد ، ولم يألُ جهداً في اثارة النفوس للتخلص من قيود الاوهام وما ورثهُ من سخافات القرون المظلمة . لكن تلك الدعوة على ما كانت أرسخ من ان تستأصلها ثورات انكلابيه فعادت الى الظهور ولا تزال الى الآن تعمل عملها في حياة الشرق الاجتماعية والسياسية . ونرى انهُ قد ظهر بعد هبّة الدستور هبّات اخرى هي ايضاً أرهفت الشعور القومي واعدّته للتشريعين الى الاتحاد والوئام . على ان عوامل التفريق لا تزال تعمل في الشرق عملها الهدّام . ولا يزال الشرق رغم الجهود البذولة بعيداً عن هدفه الوطني المنشود

(١) الهلال ١٩ — ٥٠٦ وكان كاتب هذه السطور ممن اتيح له حضور هذا المؤتمر
(٢) » ١٩ — ٧٠٥

﴿ بعد النشوة الدستورية ﴾ حاولنا فيما سبق ان نؤرخ العواطف العربية بوصفنا الاثر الذي أحدثهُ الدستور لاول وهلة في نفوس العثمانيين وسائر ابناء الشرق الاوسط . وقد رأينا كيف برز الشعر في مفتتح العهد الدستوري بحلل قشيبة من الحماسة شدا بها الامل ولحنها الاستبشار . على انهُ لم يظلّ كذلك طويلاً . فلم تكد تمرّ سنة على اعلان الدستور حتى رأينا كثيراً من النغمات الشعرية مصطبغة بألوان قاتمة من الاشفاق والحذر . ولو تحرّينا الاسباب لوجدناها متباينة الاصول . فمنها نفسيٌّ ومنشأه ذلك التراخي الذي يعقب عادة شدّة الانفعال او الثوران العصبي . خذ الغضب مثلاً فهو يثير النفس ويسعرها موقتاً بشيء من القوة ، لكنهُ لا يلبث ان يزول ويعقبهُ « رد فعل » مقترن بالضعف والهبوط . ومثله الاغراق في الحبور او الحزن والامل وما الى ذلك من الظواهر النفسية . وذلك ما حدث في الهبة الدستورية . فقد كان الشعر على اثرها متوتّراً شديد الحماسة ثملاً يترنح بخمرة الانتشاط . تهزج ورقص صخب ما شاء . ثم عراه في بعض الاوساط هبوط تدريجيٌّ الق عليهِ سمحة من التشاؤم

ومن اسباب هذا التشاؤم خيبة الامل في النظام الدستوري . كان الناس يرجون من الدستور المستحيل . يرجون منهُ ان يقلب الاحوال وينير الطباع وان يجيء لهم فجأة باسباب التقدم والسعادة . على ان النظام وحده غير كافٍ ، ولا بدّ من اتحاد الزمن والعلم والاخلاق للوصول الى الغاية المنشودة . وكما ان الشجرة لا تنمو الاّ اذا تهيأت لها اسباب النموّ ولا تثمر الاّ متى حان الاوان ، كذلك كل دستور . وما على القائمين بهِ الاّ تعهده بحنكة واخلاص ، وتدريب الناس تدريباً منظّماً على السير بموجبه والعمل بمقتضياته . ولا شك في ان العثمانيين عموماً لم يكونوا على استعداد كافٍ للحياة الدستورية . وقد ظهر في تطبيقه نقائص لم يكونوا يترقبونها مما أثار في النفوس احساسات ممكوسة ظهرت في الادب بمظهر الخيبة والتشاؤم

واذا عرفنا ذلك عرفنا الدافع الى قول جرجي زيدان بعد زيارته لسوريا ولبنان عام ١٩١٠ مشيراً الى التشاؤم المستحوذ على بعض النفوس . وحذّراً من التمادي في ذلك [1] « وطائفة تمثّلت استبداد الدستور فعبر تريد ان تصير المملكة العثمانية التي نهضت من غيبة حال الاحتضار وقد نضبت ماليتها وأجدبت أرضها وأظلمت مدنها وخربت طرقها وشوارعها وفسد كل شيء فيها حتى اخلاق أهلها . واختلّ نظام اجتماعها وفرّق التعصب بين طوائفها ومذاهبها — تريد هذه الفئة من المتفدين ان تصير هذه المملكة في سنتين مثل اوربا وهذا مستحيل »

فقد أدرك زيدان يومئذٍ ما كان يشعر بهِ الناس عموماً من سوء الظن بالحكومة الدستورية وخيبة الامل بما أعلنتهُ من الاصلاح ، فلم يجارهم في النقد بل رأى التريث والصبر أولى وأحسن

(١) راجع الهلال ١٩ — ٢٩

للوصول الى الغرض المقصود . وقد شاركه في ذلك كثير من المفكرين . الاّ أن بعض الشعراء لم يستطع الصبر على هذه الحال فاندفعوا في سيل الهكم والانتقاد ، كقول الرصافي من قصيدته شكوى الى الدستور [١]

قل أيها الدستور تسمع شاكياً بك اليوم يرجوان يرى نهضة الشرق
لقد جئت من أفق الصوارم طالعاً علينا طلوع الشمس من منتهى الافق
فصادفت منّا أمةً قد تشقّت لقاءك حتى جاوزت مبلغ الشق
وظلنا نرجّي منك للخرق راقعاً ولكن تراخي الامر متسع الخرق

وقول الشاعر القروي في البرازيل [٢]

جاءت فكبرنا وشقّ هتافنا قلبَ العنان تيهاً بالجاني
ودعا الفقير لها وسمّاها أخو البؤس الشديد بأعذب الاسماء
حتى اذا فتر التحمّس وانجلى صبح الحقيقة عن دجى الضوضاء
نادى فلم يجد النداء ودعا فما لبّاهُ غير تجاوب الاصداء

ولولي الدين يكن قصيدة موضوعها (الاسترقاق في أيام الحرية) صدّر بها أحد فصول كتابه الصحائف السود سنة ١٩١٠ . وفيها يقول عن الحرية

تشتاق في عزّها ذويها وحصنها دونهم حصين
حتامَ هذي القيود تبقى يارب قد كلّت المتون

وقد عبّر عن عواطف كثير من الناس حين قال على طريقته الشعرية النثرية [٣]

« قلت حين نبذوا لنا جيفة الدستور : نؤازر هؤلاء القوم القائمين فينا بالامر ، ربما أصابوا من حيث لا يشعرون . وكم رمية من غير رام . وقلت اطمئني أيتها القلوب واسكني يا ثائرات النفوس . ووقف اخواني الثمانيون يتفرّجون فما راعنا الاّ مذابح وفتن ، وغارات تتلوها غارات ، وصخب وضجيج ، وبنا نواب الامة يتجاذبون أطراف الفوائد كلٌّ يريد أن يسمّن كبشه » ثم يقول « اخواننا الذين يظلهم الدستور العثماني لا قبل لهم بمعارضة الحكام وهم معذورون . كمْ شفارٌ أرهفت ، وسيوف سلّت تتخطف الرقاب كما تتخطف الثمار »

ويلخ به التشاؤم سيلفه في هذين البيتين [٤] مخاطباً رجال الدولة

أفلا يزال السوط حاكمكم وأبو السباط يلذ ذعرا [٥]

---

(١) ديوانه (١٩٣١) ٣٧٥ (٢) الرشيديات (سان باولو ١٩١٦) ٧١ (٣) راجع كتاب التجاريب (١٩١٣) ٢٤و٢٥ (٤) راجع كتاب التجاريب (١٩١٣) ٤٢ (٥) اشارة الى اقتضاء السيد الحيدي

وقول أحرار تنصحكم لا حرَّ منكم كلنا كذبا

على ان أتم ما نجده في هذا الباب قصيدة موضوعها « بين أنقاض الوطن » قالها يصف حال الدولة وما وصلت اليه على يد الدستوريين وهي تليف على الستين بيتاً (١)

سلطة بشرى واثقينا بعهده وما يجتني من كاذب الحلم حالمُ
أقيم بناء الجور فوق شفا ولم تغو آساس لهُ ودعائمُ
فإن ظنَّ ... قائماً فهو مائلٌ ومن ظُنَّ منهم بانياً فهو هادمُ
وأربعة (٢) مرَّت ولم تحل لامرئ نهادتهُ على الاقطار وهي محاتمُ
تعوَّض يأساً من غدا وهو آملٌ وشام يقيناً من سرى وهو واهمُ

ومثلها تشاؤماً وسخطاً قصيدة موضوعها « التعصب يخرج الحرية من ديارها » . قالها حين تقى الحكام جيل الزهاوي من بغداد ومطلعها « اسيرٌ بدار الظلم اعياه أسره » وفيها يندد بالجور والتعصب ويلوم أولي الامر على انتهاك حرمة الدستور . وهي تبلغ ثلاثين بيتاً ويتجلى لك روحها في قوله (٣) —

أحين هوى عبد الحميد بعرشه وغيره بالغم في الناس غايره
يقوم اناس يستعيدون عهده وفينا يازي قائم وعساكره
ألا لا ترجّي العدل والعدل دونتا مرارده محمية ومصادره
تحلى زماناً ثم لم تبتسم لنا ازالته حتى استمرَّت اواخره

فولي الدين يكن الاتحاديين الاستبداد بالامر والضغط على الحريات مما يجعل الدستور نظاماً أجنبياً خير منهُ . وقد يقال ان هذا الشاعر عصبي المزاج يميل الى سوء الظن فيبالغ في نقده سيئات الدستوريين . على انهُ لم ينفرد بذلك والذي يراجع ادب ذلك العهد يجده مشبعاً بالياس والمرارة . او على الاقل مصطغاً بصبغة عدم الرضا كما ترى في مقال لرفيق العظم صور فيه ... (٤) يسميه الناس بين رأسمالي وأشتراكي بالصفة النهائية فيقول — « ان الاحزاب في البلاد الدستورية كالقواعد التي يشاد عليها بناء الدستور . ولا يمكن لقاعدة واحدة ان تحمل ذلك البناء . فهل لاحد انا الاتحاديين ان يتسموا في هذا الامر قليلاً ليعلموا ان القوة لا تنبع بحزب واحد يحمل ذلك البناء الثقيل بازاء امة جامدة مثل هذا الجمود المخيف . فهي في حاجة الى من يسوقها الى ميدان السياسة ويرشدها الى فضيلة الحكم

(١) راجعها في التجارب ٨ : ... (٢) أربعة اعوام مرت على اعلان الدستور (٣) راجعها في التجارب ٨ : ... والمنتطف ٦ — ٢٤٣

الدولي ألا وهي الاحزاب فانها هي التي تتولى تمرين الشعب على ذلك الحكم وتشوقه اليه لتكون يداً واحدة في المحافظة على الحرية والدستور» وهذا الكلام كلام عارف بأحوال البلاد مطلع على دخائل الامور. فهم ليس فيه لذع ولي الذين ولكن فيه ما يشير الى الاسباب التي ادرت كوامن نفسه احساسا

ومن المتقدين من رأى الخلل في الشعب نفسه لا في القائمين باصلاحه او المتولين لشؤونه فمن الاجحاف عندهم ان تلقى كل التبعة او معظمها على عاتق الذين احدثوا الانقلاب وتولوا الاحكام. وان يعزى اليهم وحدهم هذا الفشل في تعيين النظام. وعن ذلك يقول الاستاذ الدكتور فيليب حتي من خطبة له موضوعها من اللوم[1] — «ما لنا قائمة نبدأ بها على حكومتنا ورجال الحكم فينا ولا لوم على هؤلاء ولا تثريب. انما اللوم كل اللوم عليناً نحن كافة من ان الحكام ليسوا الا بعض افرادها يرتقون بارتقائها وينحطون بانحطاطها. يقولون الداء اختلاف العناصر والدواء ائتلافها وامتزاجها — يقولون الداء «المركزية» والدواء توسيع اللامركزية والسلطة الادارية — يقولون ويقولون والواقع غير ما يقولون. الداء الحقيقي هو جهلنا حقائق الامور واحباطنا علميًا وأدبيًا كأفراد وبالتالي كجمهرة، والدواء التهذيب الحقيقي. وما الضعف القومي سوى عبارة عن مجموع الضعف الافرادي. أنا في حاجة الى تهذيب عام يشمل الفتيان والفتيات — حاجتنا الى مبادىء قويمة في آداب عصبية — الى رجال» وتصف لنا الشعر قصيدة المؤلف موضوعها «الفاشية في الشرق» وقد نظمت على اثر بعض الحوادث المؤسفة عام ١٩٠٩ ومنها[2] —

سلانيك(٣) حي الجند عنا وسلمي عليهم سلام المستهام المتيم
وهبت لنا الدستور منك تكرماً وما نحن اهل للعطا والتكرم
ضجيج وأوهام هو الشرق كله فهل من فحول في الشدائد مقدم
يقولون ان الشعب في الشرق حاكم وربك ما للسلطان منه بأعظم
أغيروا أغيروا الجاهلين فانما في الشرق نسرق في الظلام المخيم
أغيروا أغيروا الجاهلين وبشروا بدستوركم في دار الشرق يعلم
فما الشعب بالرأي العمومي ناهض الى ذروات المجد من غير سلم

وعما زاد الحالة تفاقماً والنفوس تشاؤماً ما نشأ بعد خمود الثورة الدستورية من المنافسة بين العرب والاتراك. بعد تلك الغبطة المتفائلة التي نراها في الادب ما بين سنتي ١٩٠٨ — ١٩٠٩ والتي كانت تميل الى تعزيز الجامعة العثمانية والتباهي بها أمام الاجانب، أخذ التشاؤم يتسرب الى بعض الاوساط اثر اشتداد العرب الى المطالبة بحقوقهم وصاروا يلهجون بذويهم وعاهم في السلطنة وتلك هي الشرارة الاولى من النار التي تأججت بعد ذلك في الثورة الحجازية ثم في الحركة القومية العربية بعد الحرب الكبرى. وسنفرد لهذه الحركة وآثارها في الادب العربي فصلاً خاصة ونتقدم بها الى كلمة في الحرب العامة (١٩١٤ — ١٩١٨) وآثارها في [illegible] نحن بصدده

(١) القاها في [illegible] ونجدها في [illegible] — [illegible] الصادر في مجلد ١ جزء [illegible] (٢) [illegible] في الشرق الشعر لفيليب حتي

حضارة الميتانيين

بقلم قيصر صادر

عضو جمعية العاديات السورية

لا ندحة لمن اراد ان يتتبع تاريخ الحضارة الحثية في سوريا الشمالية من ان يلمّ بتاريخ سائر الحضارات التي ازدهرت بجانبها لارتباط بعضها ببعض الى حدّ كبير ونخص منها بالذكر الحضارة الميتانية التي لا تكاد تذكر في بطون التاريخ الا لماماً لاحتجابها وراء طيات متراكمة من الاسرار والادهار، على اننا سنحاول ان نميط اللثام عن آثار هذه الحضارة القديمة وندرسها على ضوء المكتشفات الحديثة التي أخرجها العلم للعيان من جوف الاطلال وحسر عن وجهها أكمام الاتربة فتوفر منها لدينا بينات لا يرقى اليها الشك ساعدت على تحديد تاريخ تلك الحضارة وتتبع تطورها

تدل بعض الاسانيد التي ترتقي الى فجر الالف الثالثة قبل المسيح على انه كان يُطلق اسم السوباروو على منطقة واقعة في شمالي ما بين النهرين تمتد من جبل زاخو[1] حتى ضفاف نهر الفرات وتشتمل على حدود اشور وميتانيا[2] وان مشاحنات قوية كانت تقع ما بين سكان هذه المنطقة والمملكة الاكادية التي كانت منتشرة في انحاء بابل ويلوح من بعض الآثار ان الحضارة الميتانية قامت على انقاض الحضارة السومرية في هذه المنطقة وتشرّبت من أصولها . وقد دلت بعض الاسماء المنقوشة على لوحات عثر عليها في خرائب أور وسامرّا على وجود عنصر أسيوي بجانب العنصر السامي الاشوري في شمالي شرقي بابل منذ الالف الثالثة قبل المسيح ويبدو لنا هذا العنصر أشد قوة وأكثر انتشاراً في الالف الثانية اذ نلاحظ اشتقاق كثير من الاسماء من لغته الخصبة وقيام المملكة الحورية الميتانية في تلك المنطقة على سواحل نهر الخابور

﴿ خارطة المملكة الميتانية ﴾ ان المملكة الميتانية التي كانت تعتبر من اهم المواقع السياسية في تاريخ الالف الثانية ق.م كانت تمتد قديماً بضفاف النهرين اي الدجلة والفرات ثم اتسعت غرباً حتى بلغت شواطىء العاصي وقد كانت عاصمة هذه المملكة «واشوكاني» التي يعين العلامة الاثري

---

(١) Zagros زاخو سلسلة جبال قائمة في القسم الأدنى من اسيا يتألف منها الحد الغربي لمرتفع ايران وهي تمتد من تخوم كردستان حتى حدود بلاد العرب والفرس ويبلغ علوها ٤٠٠٠ متر في قسمها العالي تقطنها اليوم عشائر كردية ولورستانية وبختيارية (٢) راجع مقال الاستاذ تورو دانجان العالم في الآثار الحثية المنشور في مجلة سيريا Syria العدد الثاني عشر عام ١٩٣١

المسيو هروزني موقعها في رأس العين على ضفة الخابور . وكانت هنالك مملكة حورية متاخمة لها او بالحري مدغمة بها في كثير من العلاقات والشؤون وكانت قاعدة هذه المملكة الحورية اورفه على ما يُعتقد وكانت مقدرات هاتين المملكتين مرتبطة بحكم الجوار ارتباطاً وثيقاً بعضها ببعض ولاسيما ما يتعلق منها بتعزيز الدفاع عن تخومهما حتى ان الاشوريين لم يفرّقوا بينهما فأطلقوا عليهما اسم مملكة هانيجلباد . على ان هذا الارتباط بين المملكتين لم يدم طويلاً فبينما نرى المملكة الميتانية آخذة بالاتساع والسيطرة على مرور الاحقاب ، لا تكاد الاسانيد التاريخية تحدثنا عن مصير جارتها التي بدأ يخبو ذكرها على ما يظهر ثم يستدل من كثرة اسماء الاعلام الحورية الواردة في ألواح كركوك [1] وفي غيرها من الآثار المكتشفة في بلاد كنعان وفينيقيا على تشتت شمل الحوريين وانحسارهم من مملكتهم خلال الالف الثانية وهجرتهم الى تلك الديار

﴿ تاريخ المملكة الميتانية ﴾ ان الكتابات الاثرية المكتشفة ليومنا بمختلف اللغات القديمة من حثية واشورية ومصرية أتاحت وضع تاريخ المملكة الميتانية منذ القرن الخامس عشر ق. م فقط بعد ان ظلت احقاباً طويلة أثراً منسيًّا في غياهب الجهل ولعل الحفريات القادمة كفيلة ببث تاريخ ما قبل ذلك العهد من الارض التي طوته تحت طبقاتها العميقة منذ الوف الاعوام فليس بوسعنا اليوم اذاً غير ان نبدأ منذ عام (١٤٥٠) ق . م اذ نقف على صولة ملك الميتانيين «سوزارطار پارشطر» الذي استطاع ان يوسّع حدود مملكته ويجلب لعاصمته واشوكاني ابواباً من الفضة والذهب من بلاد اشور . وقد عثر على رسالة مبصومة بخاتمه يباهي فيها بسيطرته على املاك واسعة في شرقي مملكته مما يستدل منهُ على بلوغ سطوته حتى اعالي جبال زاخو . ويؤخذ من كتابة الفراعنة ان الميتانيين بعد أن صدوا غارة الملك تحوتمس الاول في مجدو عام ١٤٨٣ ق.م ما لبثوا ان خضعوا له واستسلموا لمشيئته ثم اندحروا في حروب أخر فولوا الادبار . ويروى انهم احتأوا في الديابيس هرباً من بطش جيوشه الظافرة . وكذلك تكرر اندحارهم عند ما حمل تحوتمس الثاني (١٤٤٧ — ١٤٢٠) ق . م في اوائل عهده حملته المشهورة على سوريا وعبر العاصي متجهاً نحو قادش حيث زحف عليهم وأسر منهم (٥٥٠) جنديًّا — من نخبة جنودهم الاشداء الذين كانوا يؤلفون "حرس المارياني . بيد انهُ سرعان ما انقلبت تلك العداوة الى تحالف وصارت مملكة ميتانيا تعد في مقدمة الممالك الموالية لمصر . وقد وصف امنوفيس الثاني بالكتابة المنقوشة على المسلة النهالية القائمة في معبد الكرنك استقباله كبراء الميتانيين الذين أتوا اليه حاملين الجزية على ظهورهم مستندين منهُ نفثات الحياة باعتباره من مصاف الآلهة

ومما زاد في تعزيز أواصر الصداقة بين المملكتين على توالي الايام زواج تحوتمس الرابع (١٤٢٠ — ١٤١١) من ابنة ارتطاما الاول ملك الميتانيين . على أن رضا مليك مصر بأن يتخذ

(١) نعني بألواح كركوك تلك المجموعة الثمينة التي اكتشفتها بعثة اميركية في يورغان تپه (العراق) سنة ١٩٢٥

له زوجة شرعية خارجاً عن الاسرة الفرعونية كان مما يثير العجب لعلمنا بشدة حرص الفراعنة على نقاء الدم الجاري في عروقهم . فيجمل بنا إذاً ان نبحث عن الاسباب التي حملته على هذا الزواج في ميدان السياسة فنرى في هذا القران رغبة من فرعون مصر في التقرب من الميتانيين لخطب ودهم وحملهم على مناوأة الحثيين من الحلف لاشغال هذا الشعب الباسل الذي كان يخشى زحفه على وادي النيل بعد ان جمع شمله وشكل وحدة قوية في تلك الآونة وأخذ يتطلع الى توسيع حدود مملكته جنوباً. على ان هذا القران على الرغم من شذوذه في بلاط مصر عن الاصول الفرعونية لم يكن ميسوراً من الجهة الثانية كما يظن ، لان البلاط الميتاني كان منقسماً الى حزبين فمنهم من كان راغباً في هذا القران تقرباً من مصر ومنهم من كان راغباً عنه حرصاً على حسن العلاقات مع الجوار. ويذكر تحوتمس الرابع انهُ اضطر أن يرسل سبع مرات متتالية يطلب عروسه ويظهر أنهُ لم يتسنَّ له ان يحظى بها إلا عندما رجحت كفة الحزب الاول. وقد اشترط عليه ان يجعلها ملكة البلاط الكبرى وكذلك كان. وقد عرفت هذه الملكة باسم ميتونيرا وكانت كبيرة الشأن في البلاط . ويلوح من نص رسالة أخرى وجدت في حفريات تل العمارنة موجهة الى أمنوفيس الثالث (١٤١١—١٣٧٥) ق.م. من ملك الميتانيين «توزارطا» بن الملك «سوطارنا» ان هذا الاخير كان أكره على تقديم ابنته المدعوة «جيلوخيبا» حظية لامنوفيس الثالث الذي احتفر بسبب تذكارية بهذه الحادثة الخطيرة . وقد جاء في هذه البسبة انهُ في السنة العاشرة من عهد ملكه تقبل من سوطارنا ملك النهرين الكبير ابنته حظية مع حاشية بلغ عددها ثلاثمائة وسبع عشرة امرأة . فكانت ترمي المملكة الميتانية من وراء ذلك الى تأمين سلامة حدودها من جهة مصر كما كانت ترمي الى علاقتها مع بلاد آشور القائمة في جوارها والتي كانت خاضعة لها تستمد عونها في الحرب والحرب منذ القرن الخامس عشر ق.م. كما تثبت ذلك الكتابات المحفورة على أقصاب المدافع الآشورية التي تذكر أسماء كثير من قتلى ضباط الآشوريين المتطوعين في الجيش الميتاني تحت امرة الملك هابجلباد الكبير . على ان السلام لم يخيم طويلاً على البلاد الميتانية فما كاد يتوفى الملك سوطارنا حتى نشبت في البلاد الحروب الأهلية واغتال شخص يدعى بردي ني [illegible] توزارطا الشرعي وتولى العرش مكانه وكان صغير السن فاضطر ان يجعل رعيته تخلد الى الكتمان وأعاد الى البلاط الطأنينة بعد ان انتقم من قتلة أخيه في عاصمته واشوكاني . بيد انهُ لم تتسنَّ له السيطرة على المملكة كلها فانقسمت البلاد على ذاتها وانزعهُ أخوه الثالث المدعو «ارتطاما» الملك على مناطقة الحوريين التي استولى عليها بمساعدة الملك الحثي «سبيلوليومه» فسرعان ما استحكم النزاع واشتدت المنافسة بين الاخوين عاصفل ارتطاما على مناجزة أخيه الاستيلاء على مقاطعة الميتانيين نفسها ولكنه فشل في هذه المحاولة فشلاً ذريعاً وبعد ان [illegible] فانتهز توزارطا فرصة هذا الانتصار وبعث بهدايا ثمينة من الغنائم التي سلبها [illegible]

رأس الجيول — من الحجر الركاني الازرق يزيد عن حجم الرأس الطبيعي قليلاً وجد في ملاّحة الجيول التي تبعد أربعين كلم متراً شرقي حلب ونقل الى متحف الثوفر وهو يعد من أهم الآثار الميتانية

نحت بارز مجسم من الحجر الكلسي الأبيض بحجم (١,٣٢ × ١,٣٩ × ٠,٣٤ متراً)
اكتشف في تل حلف ونقل الى متحف حلب يمثل الاله أنكيدو المشهور في الاساطير الدينية
القديمة بكونه نصفه انسان ونصفه ثور مع رفيقه جيلجماش يسندان مظلة مزينة بزهر الاقحوان
فوقها قرص الشمس مختصاً على الطريقة المصرية

[حضارة الشرق]

الثالث فكان بينها عجلة مذهبة مع خيول مطهمة وزوجان من الحلى لزينة صدر اخته جيلوهيبا. فلما درى سيبلوليوما بهذا التقرب من فرعون مصر تحاشى ان يشن الغارة مباشرة على توزارطا كما كان مزمعاً الاخذ بثأر حليفه ارتطاما ولكنه اخذ يطوق المقاطعات السورية التي كانت خاضعة لنفوذ الميتانيين ويتزعها منهم بالحنكة والدهاء شيئاً فشيئاً حتى دانت له كل البلاد الواقعة غربي الفرات. ولما شعر الاشوريون بضعف شوكة توزارطا قاموا يطالبون بخلع نيره عن بلادهم فاضطر الى التخلي عن معظم تلك البلاد ايضاً وتخاذلت بذلك صولة مملكته تخاذلاً دائماً. واتفق بعد ذلك ان بعث امنوفيس الثالث في العام الخامس والثلاثين من عهد ملكه برسول الى توزارطا يطلب اليه يد ابنته « تادوهيبا » فطال التداول بين الفريقين ثم انتهى بالموافقة على اعطائها وقد عزز على قائمة الهدايا التي قدمها توزارطا مع ابنته الى فرعون مصر واستوعب تعدادها ٢٣٥ سطراً من سطور الملات الكبرى. ولكن امنوفيس الثالث الذي كان قد شاخ ما عتم ان مرض وأشرف على الخطر وبعث يرسل الى حميه ان يرسل اليه تمثال الآلهة عشتار من نينوى ذاك الآلهة الذي كان معتاداً ان يلتمس الشفاء من يده إذ يظهر من جواب الملك الميتاني الذي أرفقه بالتمثال المذكور انه سبق لهذا التمثال ان حل في وادي النيل قبل بضعة أعوام وأتى بمعجزات خارقة. فيستدل من ذلك أن البلاد الاشورية ما برحت حتى ذاك العهد خاضعة اكثر مقاطعاتها لحكم الملك الميتاني مما أتاح له ان يتصرف بآلهة اشور المقدسة هذا التصرف الحر. على انه بالرغم من وساطة الآلهة عشتار مات امنوفيس الثالث ان قفى نحبه خلفه امنوفيس الرابع (١٣٧٥-١٣٥٨) وتزوج من ارملته الصبية تادوهيبا الميتانية التي يذهب بعض علماء الآثار الى أنها نفس الملكة نفرتيتي المشهورة التي عثر على تمثالها النصفي الجميل في تل العمارنة ونقل الى متحف برلين. وها كم مقتطفاً من نص الرسالة الانيقة التي وردت على فرعون مصر من حميه مهنئاً باعتلاء العرش وعند ما توفي أخي امنوفيس الثالث بكيت عليه أياماً طوالاً ثم لما اليها وانقطعت عن الاكل وانشرب حزناً على فقدانه بيد أنه عندما علمت ان ابنه الكبير امنوفيس الرابع حل محله أيقنت ان أخي لم يمت واطمأنت على بقاء العلاقات بيننا على ما كانت عليه »

« التحالف مع الحثيين » غير انه ما عتم ان تبدل مصير العلاقات المصرية الميتانية وضعف نفوذ الحزب الموالي لمصر في مملكة ميتانيا مما أهاب بالحزب الموالي لأشور ان ينقلب عليه عام ١٣٧٠ ق.م. ويحمل ابن توزارطا على قتل أبيه طمعاً في اعتلاء عرشه ولكنه لم يكد ينتشر خبر وفاة الملك توزارطا حتى اتحد ارتطاما ملك المقاطعة الحورية مع أشوربالي ملك المقاطعة الاشورية وحاولا اقتسام المملكة الميتانية. فعند تطور الحال الى هذه الخطورة حمل رئيس الحزب الموالي لمصر بماتيعزا ابن ملكه توزارطا الصغير وهرب مع سائر أمتاعه بالتي مركبة الى بلدة بابل بيد انه لم يتحصن هناك وقد تبعه عساكر الاعداء الفئة تحسر أعوانه وتفرق أمته وخرج اليعزا من بابل بثلاثمائة مركبة من متقدميه والتباس الذي عليه وسلك طرقاً غير مسلوكة

كاد يموت فيها جوعاً حتى وصل الى مقر الملك الحثي سيبلوليوما وطلب الالتجاء اليه فلم يخب ظنه بشهامة هذا الملك الكبير الذي كان بالامس عدو أبيه اللدود فأخذ بنصرته وزوجه من ابنته وأرفقه بأحد أولاده المدعو «ياسيل» وكان هذا قد استولى حديثاً على كركميش فهاجم الاميران معاً مقتصبي البلاد الميتانية، واستولوا عليها فاختص ياسيل بالمقاطعة الحورية وعاد ماتيعوذا الى عرش أبيه باحتفال باهر بايعهُ فيه سيبلوليوما بالملك بيد انهُ كان قد تأخر حتى البلاد كثيراً وتبددت ثروتها وسلبت غنائمها، سلبها مستعمروها الذين استنفدوا خيراتها كلها لمنفعة المملكة الاشورية واستعادوا الى عاصمتهم ابواب الذهب والفضة التي كان جلبها الملك سوزاروطا الى واشوكاني. وقد عثر في مكتبة برغاز كوي على نصوص المعاهدة المعقودة ما بين سيبلوليوما وماتيعوذا بنسختيها المتبادلتين مكتوبة باللغة المسمارية الاكادية التي كانت بمنزلة لغة دولية في ذاك العهد وهي من المعاهدات التي أملت فيها ارادة الجانب القوي على الضعيف وقد سردت في مقدمتها الحوادث الماضية والحروب الواقعة ما بين الفريقين ثم كيفية التجاء ماتيعوذا الى البلاط الحثي واقترانه بابنة الملك الكبير وتتويجه ملكاً على ميتانيا ويحث في صلب المعاهدة من نظام معيشة زوجته ابنة الملك الكبير في البلاط الميتاني وعن الميزات التي يجب ان تكون لها في التقدم على سائر زوجات ماتيعوذا اللواتي حدد عددهن بعشر فقط. وعن حق تبوُّء اولادها وحدهم العرش من بعد أبيهم وعن الطاعة المتوجبة على الرعية لهذه السلالة المباركة والموالاة الدائمة للمملكة الحثية ثم تلا ذلك بنود الاتفاقات السياسية التي تحتم على الشعبين ان يكونا على وفق دائم وان يوحدا جهودهما لدرء غارات العدو عن بلادهما وان يسلكا سياسة واحدة في معاملة العبيد الهاربين من احد الفريقين الى الآخر. وتختم سيبلوليوما نسخته بتسمية نفسه منقذ ميتانيا الاكبر. اما نسخة ماتيعوذا فتكاد لا تفرق نصوصها عن الاولى الا في الحوادث الماضية التي تختص بشخصه فيسهب في بيانها ويزيدها ايضاحاً وتختم هذه النسخة بيمين مغلظة يقسمها بالمحافظة على الولاء وقد أُلمع في ذيلها الى ان كلاً من الملكين قد اودع صورة من هذه المعاهدة في هيكل الاله الذي يدين به واستنزل اللعنة على كل من يعبث بها غير انهُ لم يكتب لماتيعوذا في لوح القدر ان يبقى على العرش زمناً طويلاً فما كاد يتوفى سيبلوليوما حتى بلاده في سنة ١٣٤٧ ق.م حتى انتهز الاشوريون فرصة ضعف إبان صولتهم وهاجموا البلاد الميتانية التي كانوا يرمقونها من بعيد بعيون ملؤها الجشع والتي لم يكن لها من الحصون الطبيعية ما يرد عنها غائلة الاعداء فأغارت امام قواهم الغالبة عزائم ملوكها الضعيفين فاستولوا عليها وضمها الى سائر اجزاء المملكة الاشورية الكبرى التي طغت إبان صولتها على كل الممالك الصغيرة المجاورة لها وفي ذلك باد ذكر الميتانيين من تاريخ الامم في اواخر القرن الرابع عشر ق.م ولم يبق لهم من اثر غير بعض النقوش المدفونة التي انتشلها العلم حديثاً من بطون الارض وأخذ يقرأ اساطيرها الغابرة على ضوء مصباحه المنير

أبو العلاء المعري

ونظره الى الحياة

لعبد الرحمن شكري

اذا قرأ القارىء شعر المعري أدرك نظره الى الحياة بنظر شوبنهور وان كان الفيلسوف الالماني بعيد بين سلوكه في الحياة ونظره اليها واختلف قوله وفعله فهو في قوله يحث على الزهد في الحياة وفي فعله يغنم مغانم لذاتها وفي قوله يرى السعادة في رفض لذاتها وفي فعله يغانس الناس فيها . أما المعري فقد وافق قوله فعله فزهد في قوله وزهد في فعله وهو أيضاً يرى السعادة في رفض مطامع الحياة وجشعها والتقاتل عليها ولو انهُ في بعض قوله قد أدرك بثاقب فكره اختلاف مظاهر السعادة في النفوس فقال : —

تاهت العيشَ النفوس بغيرهِ فان كنت تستطيعُ الذهاب فاذهب

وقال : — ان الشبيبة نار ان أردت بها أمراً فبادره ان الدهر مطفيها

وقال وقد عرف ان من الناس من يجد لذة وسعادة حتى في الاقدام على المهالك :

ومن حبِّ دنياهم رموا في وغاهمُ بيض المنايا بالنفوس الحاتب

فهو في اعترافه بمظاهر السعادة التي يجدها أناس في غير الزهد كما يجد سعادته في الزهد يذكرنا بأبي العلاء فرنس ركيف انهُ صور الناس في قصة تايس وكلٌّ ينشد السعادة فبعضهم ينشدها في رفض مطامع الحياة وبعضهم في نشدان مطالب الآخرة وبعضهم في الاقبال على الحياة فاذا بالمعرّي وأبطال أشكال وألوان النفوس المختلفة ترى أكان في نظر المعري الى الحياة انكسار لمطالب النفس ولشرور الحياة فان الانسانية قد أفادها اظهار تلك المطالب والنفوس حتى وان خالف الناس الشاعر او المفكر المظهر لتلك العيوب في يأسه اذا كان يائساً من معالجتها فلا يستقيم طلب المثل العليا الا بسخط هؤلاء الساخطين وبانكارهم ما ينكرون وبلفت الناس الى عيوب النفس وشرور الحياة والمعرّي يفعل ذلك وهو يعترف بعيوب نفسه قبل ان يلوم الناس على عيوبهم فتراه يقول :

بني الدهر مهلاً ان ذممت فعالكم فاني نفسي لا محالة أبدأ

ويقول رس الخالق ان كلاً راغب في أم دفر وهو من عيابها

(أم دفر في الدنيا) والحقيقة ان عائب الدنيا انما يعيبها لانهُ يود لو كانت أهنأ وأسعد فهو انما يرغب عنها لشدَّة رغبته فيها وفي السعادة التي كان يأملها فيها ولم يستتم لهُ

وقد رأينا في كثير من عصور التاريخ ان رؤية السعادة في الزهد في الحياة وفي رفض مطامعها والامتناع عن التنافس عليها مبدأ يذيع في العصور التي تعم فيها الشرور وتضطرب فيها الاحوال السياسية حتى يود الناس ان يجدوا ملجأ يحتمون به من شرور الدنيا كما كان البوذيون يفعلون في معابدهم والمسيحيون في أديرتهم والمسلمون في تكاياهم وحتى يريد الناس ان يتجردوا من التأثر بحوادث الحياة فلا فرح ولا حزن كما قال المعرِّي

ومن عاين الدنيا بعين من النهى فلا جَزَلٌ يفضي اليهِ ولا كبت

الا أن المعري مع ذلك لم يعلم ان عظة التجارب لا تتغلب على الطباع في كثير من الاحايين فقال :

فهيم اناس كالجهول ولا يظفر الا بالخبرة الحكماء

وقال: — نزول كما زان آبؤنه ويبقى الزمان على ما نرى

وقال : — العقل يسعى لنفسي في مصالحها فما لطمع الى الآفات جذاب

ومن أجل ذلك كان المعرِّي يرى ان الفضائل والرذائل طباع وأن الوعظ والزجر والوعد والوعيد لم تغير من أساس النفس الانسانية على مرِّ الدهور فقال

كم وعظ الواعظون منا وقام في الارض أنبياء
فانصرفوا والبلاء باقٍ ولم يزل داؤك الداء

وقال : — ولو أن الانام خافوا من العقبى لما جارت الحياة لحظه

ولكنهُ يرى ذلك لا يأس من اصلاح النفس بتهذيب الوليد ومن العجيب ان المعرِّي كان يتعصب لاحد رجال الطب النفسي ويشرح دواوينه وأسماه معجز أحمد على اختلاف مزاجيهما في الوسائل والغايات وان اتفقا في النظرة الى الحياة والى النفوس الانسانية فيقول المتنبي

يسر عدو الانام معرفتي بها وما الناس روَّى وجهه غير راحم
فليس بمرحوم اذا ظفروا بهِ ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

انظر الى قوله (ان روَّى وجهه غير راحم) وهو لا يرى إثماً في أن يصول بمن وصفهم من البشر في قوله

تسيخ بهِ الصوارم الخمس ناقة ويسبح دم الحجاج في الحرم

ولا نحسب ان استحسان المعرِّي لهذين البيتين للمتنبي يستغرق هو وحده الذي جلب له هذا الاعجاب وإن كان في بعض ما قاله المتنبي من حكمة التأمل ما يقربه الى المعري بل لكل من أسبابه أيضاً ما يطمح اليه صاحب نفس يأبى ان يغلب على أمره في الحياة وما تطمح اليه من الرغبة في مجاراة المكافحين في الحياة بما يعينهم به في رغبة الرغبة إعجاباً برغبة الرغبة وهذا الاعجاب قد يختفي في النفس بسبب

مزاجها الفاتر من القتال على الحياة ولكنهما قد يظهران في بعض الأحايين بالرغم من محاولتها التخفي بالرغم من لوم النفس التي يختفيان فيها للقاتلين على الحياة وتهجينها جشعهم وأي النفوس لا تنزع الى القتال على الحياة بالرغم من شرورها منه ومن الشرور التي تنشأ منه والتي يصفها المعري في قوله:

إن العراق وإن الشام مذ زمن صيفران ما بهما للملك سلطان
ساس الامور شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خص الناس كلهم ان بات يشرب خمراً وهو سبطان
من يلزم إمام يستقيد لنا فتعرف العدل أحيان وغيطان

وهو في البيت الأخير ينشد إماماً عادلاً قادراً يدفع الشر بالشر ويقضي على شرور (الشياطين المسلطة) فهو إذاً يجيز القتال على الحياة وإن كان مزاجه ينفر من مظاهر ذاك القتال ووسائله بل هو يعمد الى نفوس (الشياطين المسلطة) والى نفوس المجرمين والى الوحوش فيقول:

وما ذنب الضراغم حين صيغت وصيّر قوتها فيما تدمّي

ولكن هذا لا يمنع من طلب إمام قادر يستقيد منهم بقوته ولا يمنع ان يقول المعري: —

لا الفائزون بعزها ويسارها إلا قريبو الحال من خُبّابها

ولعلّ هذا الفكر كان يعتمل في نفس المعري رغم شاعلة بالرغم من لومه ذوي العز واليسار والسلطة في قوله (من ليس يحفل خص الناس كلهم) وهذه الحالة النفسية تذكرنا بحالة الطغرائي النفسية التي جعلته يقول:

أولي بني الأيام نظرة راحم وان ظنت الحيران اني حاسد
لهم في تضاعيف الرجاء مخاوف ولي في تصاريف الزمان مواعد

على ان المعري قد بلغ في بعض قوله غاية اليأس وان كان بعض قوله يدل على ان تحت اليأس من صلاح الناس وإلحاده وغوايته أملاً في صلاحها فان الامل كثيراً ما يتخذ من قوة سخط اليأس باعثاً يبعثه ويغذيه في إصلاح ما يريد اصلاحه فيظهر الامل أملاً ممكوساً محولاً الى يأس لاشتداد قوة سخط اليأس وبلاغته وأثره في النفوس وهذا هو ما يظهر به بعض اتصاله بالأمل فالشاعر قد يظهر اليأس ويبالغ فيه بدافع تستحوذ النفوس الى الاصلاح بتخويف الناس من مغبة هذا اليأس — صلاح الحياة لا خوا وأمضوا واستطالوا وأطالوا في بلاغة بأسهم من غير طائل. لكن المعري كما قلنا قد تجاوز هذه المنزلة من اليأس الى ما هو أشد منها أي الى اليأس من الناس وبلاغته بعمومه ولذته كما في قوله:

أفلح بما شئت فيه من خلق فكلنا في تحمّل ودلس
ما النحو والشعر والكلام وما مرتش والسبب بن علس
ما أنت عن ناقص دجنته والصبح ناوفن لنا بغلس

وربما يدهش القارىء اذا قلت ان هذا من اشد اليأس ولا يهمنا مرقش والمسيب بن علس فلعل الوزن وسقافية وحضورها في ذهن المعري اثناء النظم هي الاسباب التي ادت الى ذكرها ولكن مظهر اليأس هو ان الانسان سواء أكان شاعراً أم غير شاعر اذا دهمهُ الهم في الحياة لجأ الى الفنون كي يجد فيها لذة وعزاء وسلوى ومهرباً وقوة لاستئناف الحياة والمهرب من الحياة قد يكون قوة لاستئناف الكفاح في الحياة اذ ليس المهرب هنا الا تراجع طالب الراحة وتجديد القوة . فالرجل من العامة يتنفس عن نفسه بفنون العامة من آهات او ادوار غناء والرجل من الخاصة يتنفس عن نفسه بما يناسبهُ من الفنون والشاعر يتنفس عن نفسه بشعره والمعري في هذه الابيات يتساءل عن قيمة النحو والشعر والكلام ويرى انها عفت وتحيل ودلس ولكنهُ لم ييأس منها تماماً لانهُ لو كان قد يئس منها حقيقة لما التجأ اليها كما فعل عند ما نظم هذه الابيات نفسها الا ان الناقد منها منزلة من منازل اليأس من الفنون . وهذا شوبنهور الفيلسوف الالماني يقول (ان الانسان يداوي قبح الحياة بالفنون) وهذا نيتشه الفيلسوف الالماني يقول (انك تكره الحياة وتذكرها اذا حسبت لها مغزى خلقياً ولكنك تحبها وتقبل عليها اذا أيقنت ان لها مغزى فنياً) وأساس تزكية هافلوك ايلس للحياة في كتابه المسمى (رقصة الحياة) هو اعتباره الحياة فناً في جميع مظاهرها . ولكن المعري لم يكن همه ان يزكي الحياة ولا ان (يتحيل) كي يحبها ويقبل عليها بأن يعد مغزاها مغزى فنياً لا خلقياً كما يريد نتشه الفيلسوف الالماني بل لعلهُ حتى ان يمنع الطمئنان الانسان بسبب تحيل الفنون في تزيين الحياة من الرغبة في اصلاحها والقيام بما يحقق هذه الرغبة لان نظرة المعري الى الحياة كانت نظرة خلقية قبل ان تكون فنية . وللمعري أبيات يخيل للقارىء فيها انهُ فكر في بعض جوانب نظرية النشوء والارتقاء انظر الى قوله :

جائز ان يكون آدم هذا قبله آدم حمى إثر آدم

ولكن لو سلمنا هذا البيت وأمثاله على ان المعري فكر في بعض جوانب نظرية النشوء والارتقاء فان شعر المعري لا يدل على انهُ قد تملكتهُ نشوة أمل كنشوة الامل التي تملكت الاوربيين عند ما ظهرت نظرية النشوء والارتقاء بل كنا نشعر عقيب يأس في أوربا قول مرت نفس المعري بمثل هذه الاطوار ؟ وهل بقيت في نفسه بقية من نشوة الامل وهل هي التي جعلتهُ يستحسن ببلاغة اليأس والسخط لتحقيق آماله الخلقية للحياة والنفوس كما بقيت بقية كبيرة في أوربا عقب نشوة الامل الناشئة من نظرية النشوء والارتقاء ؟ ؟ لا شك انا نبالغ في نسبة آراء هذه النظرية الى المعري ولا يبلغ بردن على المبالغة انها لو كانت قد انفجر فجرها في أفق نفسه لأحدثت نشوة أمل لبلابل صدره كما نسمع ألفاظها في شعره وندرك معانيها واضحة فيهِ من غير لبس او شك

مزاجها الطافر من الفتك على الحياة ولكنهما قد يظهران في بعض الأحايين بالرغم من محاولتها التخفي بالرغم من لوم النفس التي يختفيان فيها للفتاكين على الحياة وتهجينها جشعهم وأي النفوس لا تنزع الى القتال على الحياة بالرغم من شرورها منه ومن الشرور التي تنشأ منه والتي يصفها المعري في قوله:

إن افتراق وإن الشام مذ زمن صيفان ما بهما للملك سلطان
ساس الامور شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خص الناس كلهم ان بات يشرب خمراً وهو مبطان
حتى يقوم إمام يستقيد لنا فتعرف العدل أجيال وغيطان

وهو في البيت الاخير ينشد إماماً عادلاً قادراً يدفع الشر بالشر ويقضي على شرور (الشياطين المسلطة) فهو إذاً يجيز القتال على الحياة وإن كان مزاجه ينفر من مظاهر ذلك القتال ووسائله بل هو يضيف أيضاً الى نفوس (الشياطين المسلطة) والى نفوس المجرمين والى الوحوش فيقول:

وما ذاب الضراغم حين صيدت وصبر قومها فيما تدمّي

ولكن هذا لا يمنع من طلب إمام قادر يستقيد منهم بقوته ولا يمنع ان يقول المعري: —

ما الظافرون بعزها ويسارها إلا قريبو الحال من خيّابها

ولعل هذا الفكر كان يعث في نفس المعري حقداً شاملاً بالرغم من لومه ذوي العز واليسار والسلطة في قوله (من ليس يحفل خص الناس كلهم) وهذه الحالة النفسية تذكرنا بحالة الطغراني النفسية التي جعلته يقول:

أوالي بني الايام بطرة راحم وان ظنت الجهال اني حاسد
لهم في تضاعيف الرجاء مخاوف ولي في تصاريف الزمان مواعد

على أن المعري قد بلغ في بعض قوله غاية اليأس وان كان بعض قوله يدل على ان تحت اليأس من صلاح الناس وفسادهم رغبة ما في صلاحهم فان الامل كثيراً ما يتخفى في قوة سخط اليأس يأثرة ويستتر بها في اصلاح ما يريد اصلاحه فيظهر الامل أحياناً محمولاً على يأس الا انه في قوة سخط اليأس وشدته وبلاغته وأثره في النفوس وهذا هو ما يظهر به بعض الصلحين من اليأس فانه اذا [illegible] تشجعت النفوس الى الاصلاح بتخويف الناس من تمادي فساد الناس في صلاح الحياة لما طلوا وأمعنوا واستطالوا وأطالوا في بلاغة يأسهم من غير تفاؤل. لكن المعري كما قلنا قد تجاوز هذه المنزلة من اليأس الى ما هو أشد منها اي الى اليأس من الناس وبلاغة عمومه ولزومه كما في قوله:

أفر لما تحن به من عتر فكلنا في تحمّل وذلّ
ما النحر والنذر والكلاب وما مرتش والمسيب بن علس
عاشت على ما شاء دجلته والصح ناوفن لنا بفلس

وربما يدهش القارىء اذا قلت ان هذا من اشد اليأس ولا يهمنا مرقش والشنفرى بن علس فلعل الوزن والقافية وحضورهما في ذهن المعري اثناء النظم هي الاسباب التي ادت الى ذكرهما ولكن مظهر اليأس هو ان الانسان سواء أكان شاعراً ام غير شاعر اذا دهمهُ الهم في الحياة لجأ الى الفنون كي يجد فيها لذة وعزاء وسلوى ومهرباً وقوة لاستئناف الحياة والمهرب من الحياة قد يكون قوة لاستئناف الكفاح في الحياة اذ ليس المهرب هنا الا تراجع طالب الراحة وتجديد القوة . فالرجل من العامة يتنفس عن نفسه بفنون العامة من آهات او ادوار غناء والرجل من الخاصة يتنفس عن نفسه بما يناسبهُ من الفنون والشاعر يتنفس عن نفسه بشعره والمعري في هذه الابيات يتساءل عن قيمة النحو والشعر والكلام ويرى انها عبث وتحيل ودلس ولكنهُ لم ييأس منها تماماً لانهُ لو كان قد يئس منها حقيقة لما التجأ اليها كما فعل عند ما نظم هذه الابيات نفسها الا ان الأدب منها منزلة من منازل اليأس من الفنون . وهذا شوبنهور الفيلسوف الالماني يقول (ان الانسان يداوي قبح الحياة بالفنون) وهذا نيتشه الفيلسوف الالماني يقول (انك تكره الحياة وتكرها اذا حسبت لها مغزى خلقيًّا ولكنك تحبها وتقبل عليها اذا أيقنت ان لها مغزى فنيًّا) وأساس تزكية هافلوك ايلس للحياة في كتابه المسمى (رقصة الحياة) هو اعتباره الحياة فنًّا في جميع مظاهرها . ولكن المعري لم يكن همه ان يزكي الحياة ولا ان (يتحيل) كي يحبها ويقبل عليها بأن يعد مغزاها مغزى فنيًّا لا خلقيًّا كما يريد نتشه الفيلسوف الالماني بل لعلهُ خشي ان يمنع اطمئنان الانسان بسبب تحيل الفنون في تزيين الحياة من الرغبة في اصلاحها والقيام بما يحقق هذه الرغبة لان نظرة المعري الى الحياة كانت نظرة خلقية قبل ان تكون فنية . وللمعري ابيات يخيل القارىء فيها انهُ فكر في بعض جوانب نظرية النشوء والارتقاء انظر الى قوله :

جائزٌ ان يكون آدم هذا قبله آدمٌ على إثر آدم

ولكن لو دل هذا البيت وأمثاله على ان المعري فكر في بعض جوانب نظرية النشوء والارتقاء فان شعر المعري لا يدل على انهُ قد تملكتهُ نشوة أمل كنشوة الامل التي تملكت الاوربيين عند ما أعلن لهم هذه النظرية ولكنها نشرت عليها يأساً في أوربا فهل مرت نفس المعري بمثل هذه الاطوار ؟ وهل بقيت في نفسه بقية من نشوة الامل وهل هي التي جعلتهُ يستعين ببلاغة اليأس والسخط لتحقيق آماله الخلقية للحياة والنفوس كما بقيت بقية كبيرة في أوربا عقب نشوة الامل الناشئة من نظرية النشوء والارتقاء ؟ ؟ لا شكَّ اننا نبالغ في نسبة آراء هذه النظرية الى المعري ونبلغ برهان على المبالغة انها لو كانت قد انفجر فجرها في أفق نفسه لأحدثت نشوة أمل للابل صدره كما نسمع أنغامها في شعره وندرك معانيها واضحة فيه من غير لبس او شك

مزاجها النافر من التشاؤم على الحياة ولكنهما قد يظهران في بعض الأحايين بالرغم من محاولتها التخفي بالرغم من لزوم النفس التي يتخيلان في المقاتلين على الحياة وتهجنها جشعهم وأي النفوس لا تنزع الى التشاؤم على الحياة بالرغم من الشرور ومن الشرور التي تنشأ منه والتي يصفها المعري في قوله:

إن العراق وإن الشام مذ زمن ... صيفرانِ ما بهما للملك سلطان
ساس الامور شياطين مُسَلَّطة ... في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يخذل خص الناس كلهم ... ان بات يشرب خمراً وهو مبطان
كي يقدم إثم يستفيد لنا ... فتعرف العدلَ أجيال وغيطان

وهو في البيت الاخير يشير إماماً عادلاً قادراً يدفع الشر بالشر ويقضي على شرور (الشياطين المسلَّطة) فهو إذاً يحب الناس على الحياة وإن كان مزاجه ينفر من مظاهر ذلك القتال ووسائله بل هو يبغض أيضاً من نفوس الشياطين المسلطة) والى نفوس المجرمين والى الوحوش فيقول:

وما ذنب الضراغم حين صيغت ... وصيّر قوتها فيما تسدّي

ولكن هذا لا يمنع من طلب إمام قادر يستفيد منهم بقوته ولا يمنع أن يقول المعري: —

انظافرون بعزها وبسارها ... إلا قريبو الحال من خُبَّابها

ولعل هذا الفكر كان يبعث في نفس المعري وحشة شاملة بالرغم من لومه ذوي العز واليسار والسلطا في قوله (من ليس يخذل خص الناس كلهم) وهذه الحالة النفسية تذكرنا بحالة الطغرائي النفسية التي جعلته يقول:

أوالي بي الأيام نظرة راحم ... وان ظلت الجهال اني حاسد
لهم في تضاعيف الرجاء مخاوف ... ولي في تصاريف الزمان مواعد

على ان المعري قد بلغ في بعض قوله غاية اليأس وان كان بعض قوله يدل على ان تحت اليأس من صلاح الناس والدنيا وغيرها أملاً في صلاحها فان الأمل كثيراً ما يتخذ من قوة سخط اليأس إثارة يسلط بها في صلاح ما يريد اصلاحه فيظهر الامل أملاً مكبوتاً محولاً الى يأس ثائر وقوة سخط اليأس وبلاغته وأثره في النفوس وهذا هو ما يظهر به بعض اصلاحيين اليأس فيظهرون اليأس ويبالغون فيه ليستحث النفوس الى الاصلاح يتخوفهم الناس من تشاؤمهم من صلاح الناس وصلاح الحياة لما علموا وأمنوا واستطالوا وأطالوا في بلاغة يأسهم من غير قائل. لكن المعري كما قلنا قد تجاوز هذه المنزلة من اليأس الى ما هو اشد منها اي الى اليأس من اليأس وبلاغته وعمومه ولدنه كما في قوله:

أفلح لما غير الدهر من ... فكلنا في تحيُّر ودلَس
والدهر والناس والكلاب معا ... عرقش والمسيب بن علس
ما نلت عن شمس دجنته ... والصبح ناوفن لنا بغلس

وربما يدهش القارىء اذا قلت ان هذا من اشد اليأس ولا يهمنا مرقش والسيب بن علس لقلة الوزن والقافية وحضورها في ذهن المعري اثناء النظم هي الاسباب التي ادت الى ذكرها ولكن مظهر اليأس هو ان الانسان سواء أكان شاعراً أم غير شاعر اذا دهمهُ الهم في الحياة لجأ الى الفنون كي يجد فيها لذة وعزاء وسلوى ومهرباً وقوة لاستئناف الحياة والهرب من الحياة قد يكون قوة لاستئناف الكفاح في الحياة اذ ليس المهرب هنا الا تراجع طالب الراحة وتجديد القوة . فالرجل من العامة ينفّس عن نفسه بفنون العامة من آهات او ادوار غناء والرجل من الخاصة ينفّس عن نفسه بما يناسبهُ من الفنون والشاعر ينفّس عن نفسه بشعره والمعري في هذه الابيات يتساءل عن قيمة النحو والشعر والكلام ويرى انها علت وتحيل ودلس ولكنهُ لم ييأس منها تماماً لانهُ لو كان قد يئس منها حقيقة لما التجأ اليها كما فعل عند ما نظم هذه الابيات نفسها الا ان الأسف منها مرتبة من منازل اليأس من الفنون . وهذا شوبنهور الفيلسوف الالماني يقول (ان الانسان يداوي قبح الحياة بالفنون) وهذا نيتشه الفيلسوف الالماني يقول (انك تكره الحياة وتكرها اذا حسبت لها مغزى خلقيًّا ولكنك تحبها وتقبل عليها اذا أيقنت ان لها مغزى فنيًّا) وأساس تركية مانفلوك ايلس للحياة في كتابه المسمى (رقصة الحياة) هو اعتباره الحياة فنًّا في جميع مظاهرها . ولكن المعري لم يكن همه ان يزكي الحياة ولا ان (يتحيل) كي يحبها ويقبل عليها بأن يعد مغزاها مغزًى فنيًّا لا خلقيًّا كما يريد نتشه الفيلسوف الالماني بل لعلهُ خشي ان يمنع اطمئنان الانسان بسبب تحيل الفنون في تزيين الحياة من الرغبة في اصلاحها والقيام بما يحقق هذه الرغبة لان نظرة المعري الى الحياة كانت نظرة خلقية قبل ان تكون نيّة . والمعري ابيات يحيل القارىء فيها انهُ فكر في بعض جوانب نظرية النشوء والارتقاء انظر الى قوله :

جائزٌ ان يكون آدم هذا قبله آدم على إثر آدم

ولكن لو سلّمنا هذا البيت وأمثاله على ان المعري فكر في بعض جوانب نظرية النشوء والارتقاء فان شعر المعري لا يدل على انهُ قد تملكتهُ نشوة أمل كنشوة الامل التي تملكت الاوربيين عند ما ظهر نظرية النشوء والارتقاء ولكنها نشوة عقبها يأس في أوربا فهل مرت نفس المعري بمثل هذه الاطوار ؟ وهل بقيت في نفسه بقية من نشوة الامل وهل هي التي جعلتهُ يستعين ببلاغة اليأس والسخط لتحقيق آماله الخلقية للحياة والنفوس كما بقيت بقية كبيرة في أوربا عقب نشوة الامل الناشئة من نظرية النشوء والارتقاء ؟ ؟ لا شكَّ انا نبالغ في نسبة آراء هذه النظرية الى المعري وأبلغ برهان على المبالغة انها لو كان قد انفجر فجرها في أفق نفسه لأحدثت نشوة أمل لبلابل صدوره كنا نسمع أنغامها في شعره وندرك معانيها واضحة فيهِ من غير لبس أو شك

بعد عهدي

بعلم الفلك

للدكتور فارس نمر باشا

— ٢ —

كنا في عهدنا نعد اسماء نجوم قليلة من النجوم التي ثبت انها متحركة في الفضاء مثل السماك الرامح والنسر الطائر و « الدجاجة » ولكن الفلكيين اكبوا بعد عهدنا على تتبع حركات النجوم وتسجيلها في قوائم ، فنشر الفلكي « تومبس بوس » سنة ١٩١٠ قائمة بـ ٦١٨٨ نجماً متحركاً ، ومن ضمنها كل النجوم اللامعة (من القدر الاول) في السماء وثلاثة مراصد « كروتجن » فنشر قائمة بـ ١٢٣٦٨ نجماً متحركاً ، الصل فيها إلى نجوم القدر التاسع التي لا تراها العين الا بالآلات . والتي ساعدهم على ذلك التصوير الضوئي وغيره .

كان عدد النجوم المزدوجة المعروفة في عهدنا نحو ٦ آلاف نجم من مزدوج بصري ، ومزدوج حقيقي ، ويعرف بالثاني[1] ، فبلغ ٧١٩٠ سنة ١٩٣١ ، وكان عدد النجوم الثنائية

---

(١) النجم المزدوج — والنجوم المزدوجة Double Stars تنقسم الى قسمين : الازدواج الحقيقي ، والازدواج البصري فالازدواج البصري ينشأ من وجود نجمين قريبين أحدهما من الآخر ، ولكن على مسافات مختلفة عن . فيظهر ان النجم مزدوج لانهما يمران على خط النظر تقريباً أما الازدواج الحقيقي ، وهو ما يسمى الازدواج الطبيعي ، فينشأ من ان كليهما يكونان على مسافة واحدة من تقريباً ، ويدور كل منهما حول الآخر ، ويطلق عليها اسم النجوم الثنائية — Binary وكثير من الثنائيات قد لا تظهر الحركة الدورية فيها الا بالطيف Spectroscope وقد تسمى الثنائيات الطيفية Spectroscopic Binaries وهذا ما يمر مستوى الدورة بالشمس ، قد يتفق ان يكسف النجم فيسمى الثنائي المكسف Eclipsing Binary واليك تقسيمها العلمي :

Double Stars.
Optical Pairs
Physical Pairs — Binaries
(1) Visual Binaries.
(2) Spectroscopic Binaries.
(3) Eclipsing Binaries.

(عن الدكتور محمد رضا منصور)

اي المزدوجة حقيقة لوجود ثلاثة بينها فرق ٦٠ نجم ، لبلغ ١٩٠١ سنة ١٩٢٤ ، لمساعدة المطياف على اكتشافها ، وقد توسعوا في البحث في هذه النجوم الثانية . ثم توصلوا إلى معرفة كثير من خصائصها مما لم يكن معروفاً في عهدنا . ونقل مثل ذلك في النجوم المتعددة أي الثلاثية والرباعية فأكثر حتى تدنو من القران او العناقيد في شكلها

والنجوم المتغيرة والمؤقتة وهي التي تزيد نورها تارة ، وتقل أخرى ، كان عددها في عهدنا نحو مائة ، وكان المعلوم منها قليلاً لا يروي غليلاً ، فتكشفوا واكتشفوا منها بعد ذلك ، حتى بلغ عددها ٧٠٠ نجم متغير ، وقسموها الى نجوم مؤقتة ، ونجوم متغيرة طويلة المدة ، ونجوم لا يقع تغيرها تحت ضابط . والنجوم المتغيرة في صورة « ڤيغاوس » وتعرف بالڤيغاوية . والنجوم الكاسفة مثل النجم المعروف « بالغول » ، فانهُ يدوم مشرقاً يومين كنجم من القدر ٢٫٣ ، ثم يقل نوره شيئاً فشيئاً حتى يصير خمس رابعة من القدر ٣٫٤ ، ثم يزيد نوره مدة خمس ساعات حتى يعود الى إشراقه السابق ويبقى كذلك ٢٫٥ يوم . ثم يعللون ذلك التغير بأن «الغول» نجم مزدوج ، وأحد الزوجين مظلم اكثر من الآخر . وهما يدوران حول مركز ثقلهما فمتى مرَّ المظلم أمام رفيقه ، حجب كثيراً من نوره عنا ، فكسفهُ . وبذلك يقل نور هذا النجم تارة ويزيد اخرى — وقد أثبت المطياف ذلك . وتوصلوا في رصد المتغيرات الفجائية في القديم المعروف « بقيصة مجلان » الصغرى في القسم الجنوبي من الكرة الزرقاء ، إلى اكتشاف ناموس سموه ناموس المدة والإشراق ، ومنه وصلوا الى قياس أبعاد الكثيرات في المجرة وغير ذلك من معجزات علم الفلك ، التي شرحها المقتطف في عدد شهر ديسمبر الماضي في مقالة عنوانها « ذرع الفضاء والاعلام التي يعتمد عليها في قياسه » فالاشارة الى تلك المقالة تغني الآن عن شرحها

وقد ترى فالكبر هذا الفرق الشاسع بين مقادير النجوم الظاهرية ، فلنشبه بين ما كان في عهدنا وما ظهر في هذه الأيام . فسيرا القدر الظاهر لنجم الجبانا ٠٫٠٤ والقدر الظاهر لأخفى النجوم التي صوَّرها التصوير الشمسي ٢٠

كان رأي الفلكيين في عهدنا ان النجم وظلها هما السائران وغيرهما ، ساكنة في الفضاء نحو نقطة في صورة « الجاثي » بسرعة [illegible] وأيهم اليوم انها سائرة نحو نقطة لا تبعد كثيراً عن « النسر الواقع » بسرعة ١٩ كيلومتر (١٢٫٣ ميل في الثانية)

الطائف أو القران محال في السماء نجومها بعيدة بعضها عن بعض بعد الطائف أو القران منها ما ترى نجومه بالعين المجردة كالثريا والدبران ، وربما يصل النظار إلى نجوم مفردة وهي كثيرة . وأهمها في بحوث الفلكيين القران الكروية الشكل وعددها المعلوم الآن [illegible] عنقوداً كرويًّا ، أجمل العناقيد الكروية في سماء الجنوب ، وقد رصد جيدًا وعين فيه ٥٠

الف نجم . والمظنون أنهُ إذا أُصيل عرض اللوحة الفوتوغرافية ، كشفت عن عدد لا يقل عن ١٠٠ الف نجم ، كل نجم في كثير منها يفوق شمسنا أنوفاً من المرات في اللمعان والاشراق . وقد قاس الفلكي « شپلي » أبعاد ٦٩ عنقوداً من هذه العناقيد الكروية ، فوجد أن أبعادها تتفاوت بين ٢٣ الف سنة من سني النور و ٢٢٠ الف سنة . والنور يقطع ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية ، فتأمل . ويرى هذا الفلكي أن هذه العناقيد الكروية غير داخلة في عالمنا ، اي في النظام المجري او نظام النجوم التي شمسنا وانظامها داخلة فيه . بل هي خارجة عن عالمنا ، وفي رحاب مناخة له من رحاب الفضاء

السدم لطخ نيرة في السماء تشبه الضباب الرقيق ويرى اثنان منها بالعين المجردة . أحدهما السديم الكبير في صورة « الجبار » ، والآخر السديم الإهليلجي الشكل في صورة « المرأة المسلسلة » . والباقي يرى بالمنظار . وقد كان عدد المعروف منها الى عهدنا يفوق اربعة آلاف سديم . ولكن التصوير الضوئي كشف أنوفاً كثيرة منها ، حتى لقد قدر الفلكي پرين Perrine أن عدد ما يرى منها بمراكة مرصد « ولسن » لا يقل عن نصف مليون سديم . وقد توسع تلك الايام كثيراً في البحث عن هذه السدم ورصدها وتقسيمها وتصويرها ، ودرس طيفها بالمطياف ، وقياس أبعادها وحجومها وتعيين مواقعها ، مما لا يستوفى شرحه إلا في كتاب على حدة . فلا أحاول شيئاً من ذلك في هذه المحاضرة . وانما أستطرد منهُ الى ذكر الرأي السديمي

الرأي السديمي

وصاحبه العلامة « لابلاس » وملخصهُ أن النظام الشمسي كله كان سديماً يشغل من الفضاء مساحة اعظم من مساحة أبعد السيارات عن الشمس ، وان هذا السديم الغازي الحامي حموًّا شديداً ، كان دائر على نفسه ، وبذلك تكوَّنت منهُ السيارات والأقمار والمذنبات وسواها ، باقتصالها عنهُ في حلقات تجمَّعت الى اجرام السيارات والأقمار ، او بقيت حلقات كحلقات « زحل » وأول من ذكر هذا الرأي باللغة العربية أستاذنا المرحوم الدكتور فان ديك في كتابه أصول الهيئة . وعقبنا عليه عقالة مسهبة تلوناها في المجمع العلمي الشرقي ج ٤ من مجلداته سنة ١٩٨٣ وذكرنا فيها نجربة « لابلاس » الباطلة على الراي بالتجربة . وقد توسع « ولپر پيرشل » في هذا الرأي ، فمثل به تكوُّن العوالم كلها من نجوم ثابتة ، وكواكب ، وسدم ، وظلَّ هذا الرأي متبعاً بتفاصيله عدة قرون حتى قام العلماء في هذا القرن ينقضونه . واتفق رأي اكثرهم اليوم على انهُ وإن كان أصل الاجرام سديماً ، لكنها ، وبخاصة السيارات ، لم تتكوَّن بانفصالها عن السديم الأصلي بصورة حلقات ، لأسباب واعتبارات شتى لا بسط الآن ذكرها ، بل تكوَّنت من تمزُّق جرم كثيف بقرب الشمس فصدها وشدَّ بعضها أجزاءه منها . هذا على

قول بعضهم وعلى قول الآخرين ، وهو المرجع عندهم الآن ، ان هذا الجرم اجتذب مادّة الشمس فكان مدًّا بعد مدّ ، وهذا المدّ انقدّ عن الشمس ، وكوّن سياراً بعد سيار. وخلاصة ذلك أن السيارات لم تتولد من الشمس إلاّ بعد ما مرّ كوكب صدمها فقدّ بصدماته أجزاء منها أو جذبها وأحدث المد فيها ، فانفصل بذلك أجزاء من أحشائها . فكان فلكي هذه الايام يرون ان كواكب السماء تولدت بالمزاوجة وليس بالانقسام ، سائرة في ذلك على سنة التولد في عالم الاحياء على وجه الارض . فمدون المحدثين اليوم عن رأي « لابلاس » القديم ، بعد من الانقلابات العظيمة في الرأي ، ويضارع في عظم الشأن مذهب « اينشتين » في النسبية وتجذب الفضاء ، وكون الجاذبية ليست قوة من القوى الطبيعية ، بل خاصة من خواص الزمان والمكان والحركة ، مما أعاد العلماء الى البحث في تعاليم « نيوتن » وقواعد الجاذبية

الى هنا اكتفي بالاشارة الى بعض ما جدّ بعد عهدي بعلم الفلك وأردفهُ بالملاحظات السموية التالية .

كان الناس في بدء امرهم ، يدرسون علم الفلك ليتفعوا بهِ في أمور دنياهم ، كما لا يزالون يدرسون كثيراً من العلوم الى اليوم — فكانوا يقيسون به الزمان ويتممون الفصول في تواليها كل سنة ، ويهتدون به كيف يسلكون الصحارى ويجوبون القفار ، ثم كيف يسلكون البحار . وزعموا انهم بعلم التنجيم ومراقبة الطوالع ، يكشفون الغيب ويطلعون مستقبل الانسان وحظه من سعد ونحس ، ثم صححوا خطأهم فانتقلوا الى معرفة المستقبل ، ولكن مستقبل حركات النجوم وسير الكواكب بدلاً من افعال البشر وأحوالهم ، حتى لقد بلغ منهم اليوم ان يقضوا زمانهم في الإنباء بمستقبل العالم ونهاية الكون . وما حمل الانسان على التنجيم ، غير زعمه ان للملوك والممالك ولعظام الأمم وسائر بني البشر ، قدراً عظيماً وشأناً جليلاً ، حتى ان حركات الاجرام السموية على جلالة قدرها ، إنما وجدت لتكشف حجب الغيب عن مستقبله وتدل على حظه . ولكن لما اتسع علم الانسان وأدرك امتهُ زهي الشأن في هذا الكون الى حد أن وجوده وعدم وجوده سيان ، نزل من علياء وهبط عن كبريائه ، وضرب علم التنجيم ضربة قاتلة ، بحيث لا يعيش الآن إلاّ حيث يخيم الجهل ويخبو نور العلم ، وعاد الانسان لا يطلع كثيراً بالانتفاع بعلم الفلك في دنياه ، واقتصر ذلك على [illegible] وتحولت رغبته الى النواحي العلمية المحضة ، حتى انهُ اهتم الآن بأمر سديم من اخفى السُّدم وأبعدها ، اكثر مما يهتم بضبط به الساعة ليوقت بها . وكذا يغفل شأن المريخ او المشتري وغيرهما من اقرب الكواكب الينا ليرصد نجوماً بعيدة عنا بعداً سحيقاً ، فلا يصل الضوء منها الينا في مئات بل ألوف بل ألوف الالوف من السنين . وقد اصبح لعلم الفلك شأن وأي شأن منذ صار حلقة في سلسلة العلوم وأصبح فيها كجزء منها لا ينفصل عنها ، ويمم الاكتشاف فيها الجواهر المتناهية

في الصغر ، كالمكاريب التي لا يبلغ قطر الكوكب منها جزءاً من مليون مليون جزء من المليمتر ، كما يعم السدم المنتشرة في الفضاء والتي يفوق قطر السديم منها ملايين الملايين من الفرسخان . وازدياد علمنا بالفلك يزيد علمنا بالطبيعيات والكيمياء ، والعكس بالعكس . فقد فات الزمان الذي كانت النجوم تعامل فيه معاملة نقط صغيرة نيرة في قبة السماء ، وأصبح كل نجم منها يعد كأنهُ بوتقة حامية حموًّا لا مثيل له على الارض ، تعمل الطبيعة فيها عملياتها وتجرب تجاربها على درجات من الحرارة والضغط ، لا يقوى الكيماوي أو العالم الطبيعي تجربتها على الارض ومعرفة نتائجها . وبذلك قد يمكنهُ ان يعرف للمادة خصائص لا تتيسر له معرفتها في الاحوال الطبيعية التي هو فيها — خذ ذلك المادة او الهيولي في بعض السدم . فقد تكون كثافتها أقل بمليون ضعف من كثافة أي مادة كانت على الارض . او خذ بعض النجوم ، فقد تكون مادتها أكثف بمليون ضعف من كل مادة على الارض . فيهيأ ان ندرك طبيعة المادة من مجرد التجارب التي نعملها في معاملنا ، حيث لا نستطيع ان نتقي الا جزءاً واحداً من مليون مليون جزء من الكثافة التي في الطبيعة . وزد على كل ما تقدم ان الانسان يجد في علم الفلك من اللذة والبهجة والروعة والجمال ما لا يجده في غيره من العلوم والفنون التي يمتاز بها الانسان على سائر الحيوان ، كما يجد فيه اعظم رافع له عن خبائث الحياة وخساستها . ويدرك صغر الدنيا وحقارتها بالنسبة الى عظمة الكون وعجائبه

لا اريد ان ازيد الثقيل على مسامعكم بذكر ما وصل اليه علماء الفلك في اطلاعهم الناس للعقل والجنان في رحاب هذا الفضاء ، وفي ما يجوبانه من الاكوان ، تارة للاحصاء والوزن والقياس ، وطوراً للوصف والتحليل . فكل من يتصفح كتاباً من كتب علماء الفلك الحديث ، يجد في صفحاته عد النجوم بملايين وملايين الملايين ، ووزنها بملايين وملايين الاطنان ، وقياسها وقياس ابعادها وسرعة حركاتها بالملايين وملايين الملايين من الاميال ، وغير ذلك مما لا يجده العقل ولا يكاد يدرك منهُ غير معان غامضة لالفاظ عامة . ان ابسط ما يقال عندهم وأقربهُ الى الادراك عبارات مثل هذه : ان الانسان وجد على الارض منذ ٥٠٠ر٠٠٠ سنة ، وان الاحياء من حيوان ونبات ، وجدت على الارض منذ ٣٠٠ مليون سنة ، وان الارض وجدت في الفضاء بعد انفصالها عن الشمس منذ ألفي مليون سنة . والدنيا كلها بالنسبة الى الكون أصغر من اصغر نقطة في اعظم دائرة ، ولا تحسب شيئاً بالنسبة الى كل خبة من ملايين النجوم الخفية التي لا تكاد العين تراها لبعدها في المجرة . ولو زالت الارض كلها من الوجود ، لم يشعر زوالها أحد الا سكان ثلاثة او اربعة من النجوم السيارة التي هي جارتها لو كان فيها سكان يشعرون

ان اقرب نجم الينا من هذه النجوم التي لا تزال نسبها ثوابت ، مع انها كلها أجرام

متحركة ، يبعد عنا ٢٢ مليون مليون ميل . فضوؤه لا يصل الينا إلاَّ بعد ٤٫٧ سنة ، اي أكثر من ٤ سنوات بقليل اشهر . والضوء يقطع ١٨٦ الف ميل في الثانية الواحدة ، وكذا امواج اللاسلكي ، فاذا فرضنا ان في هذا النجم سكاناً مثلنا ، وانهم يسمعون الاصوات التي تنقل باللاسلكي كما نسمعها ، وأرادت محطة الاذاعة ان تنقل اليهم أقوالي هذه وأنا أقولها ، فانهم لا يسمعونها إلا بعد ربع سنوات وثلاثة اشهر . ومن يدري أين أكون أنا في تلك اللحظة ؟ أأكون باقياً على هذه الارض او أبعد عنها من الشعرى اليمانية ، التي لا تكاد اصوات الراديو تصل اليها بعد خمس ٢٤ سنة ، وليس ٤ سنوات فقط ، مع انها معدودة أيضاً من أقرب النجوم الينا . فلهذا اخترت ان أختم محاضرتي هذه بايراد شرح النموذج للكون كله محفوظة فيه نسبة بعض مقاساته الى بعض ، على حسب تصميم وضعهُ الفلكي الانكليزي « جيمس جينز » ، ليقرب تصوّر الكون من الافهام . قال : إن الارض تدور في فلكها حول الشمس بسرعة تفوق سرعة قطار الاكسبريس ٦٠٠ مرة ، فتقطع ٦٠٠ مليون ميل حتى تتم دورتها في سنة كاملة . فتصورنا اننا صغرنا هذه الدائرة الهائلة الاتساع (اي ٦٠٠ مليون ميل) حتى جعلناها اضيق من سم الخياط اي أضيق من ثقب الابرة أو طابع دوس قطره $\frac{1}{16}$ من البوصة الواحدة ، ولنجعل هذه النقطة (او الدائرة الصغيرة) المقاس الذي نقيس عليه باقيها . وعلى صغر الشمس حتى تصير شبه ذرة صغيرة من ذرات الهباء المتطاير في الهواء ، أي حتى تصير كرة قطرها $\frac{1}{250}$ من البوصة وتصغر أرضنا ايضاً حتى تصير كلها أصغر من أن نراها ولو نظرنا اليها بأقوى المكبرات ، وبعبارة أخرى حتى تختفي وجودها من بالنا لصغرها . وعلى هذا القياس يكون مكان أقرب النجوم منا (وهو في صورة نطورس) على بعد ٢٢٥ برداً من ذرة الشمس . وعلى هذا القياس أيضاً يجب ان نأخذ دنيا حتى يصير طوله ميلاً وعرضهُ ميلاً وعلوه ميلاً ، لكي يسع ان ١٠٠ نجم التي هي اقرب نجومه الينا شيئاً . وهكذا نسير في الفضاء فنحسب النجوم كلها (بلا فرق ولا تمييز بينها) ذرات من الهباء في حجمها ، وضع بجوار ذرة الشمس ذرات أخرى غيرها بعد ربع ميل ، الواحدة عن الاخرى . ونضعها في أماكن أخرى على ابعاد أعظم من ذلك ، الواحدة من الاخرى على بعد ميل . بعدها الان النجوم الاخرى التي هي اقرب منها الى الشمس ، تمثل عنقوداً من النجوم ملفوفة ومزدحمة أكثر من سواها

وعلى هذا النحو نزيد في البعد مسافة ثلاث من الاميال في كل مرة ، حتى إذا وصلنا الى جهة بعيدة عن سطح المجرَّة ، نجعل محلات ذرَّات النجوم متفرقة وتجمعاتها رقيقة ، لاننا قاربنا هناك حدود النظام المعروف بالنظام المجري (أسوة بالنظام الشمسي) وفي سطح المجرَّة نفسها نبني مسافة ٧ آلاف ميل ، قبلما نصل الى أبعد عنقود كروي ، ومع ذلك نبقى داخل النظام

المجرّي — فلنتأمل ما تقدم قليلاً — صغرنا فلك الارض الذي يبلغ مداره ٦٠٠ مليون ميل، حتى صار كلهُ نقطة أضيق من سم الخياط ، وصغرنا الشمس حتى صار قطرها ١٠٠ من البوصة وصغرنا النظام المجري ، أي الكون الحاوي الشمس وفضاءها وكل النجوم التي تظهر في السماء في المجرّة وعلى جانبيها وما فيها من نجوم مزدوجة وثلاثية ومتعددة ، ونجوم متغيرة وقنوان كروية وغير كروية — هذه كلها صغرناها على نسبة تصغير فلك الارض . فكان النظام المجري مع ذلك نحو سبعة آلاف ميل ، وبعبارة أخرى ان سعة فلك الارض الى حجم النظام المجري ، كنقطة أضيق من سم الخياط الى قارة أميركا كلها

وبعد ما ننتهي من هذا البناء الهائل الذي يصل الى سبعة آلاف ميل ، للدلالة على النظام المجري او العالم الذي شملنا نجمة منهُ ، يجب أن نسير مسافة ٣٠ الف ميل حتى نصل الى حيث نبني الجزء الثاني من بنائنا . وهناك نضع طائفة ثانية من طوائف النجوم وما كانت اصغر من طائفة نجومنا المجرية ، ولكنها اكثر منها لزًّا وحشكاً وازدحاماً ، وتحكمها في عدد نجومها

وعلى هذا النسق ، نبني بناءنا ونضع فيه جزءاً جديداً على بعد ٣٠ الف ميل اخرى من الجزء الآخر ، لطائفة أخرى من النجوم تعد بألوف الملايين ، وهكذا حتى نبني كذلك اجزاء لملايين طائفة من هذه الطوائف ، ومتى انتهينا من ذلك يكون اتساع البناء الذي بنيناه نحو اربعة ملايين من الاميال ، في كل جهة طولاً وعرضاً وارتفاعاً . هذا البناء الهائل الذي بنيناه ، هو مع ذلك غاية في صغر المقاس ، يمثل لنا ما نراهُ في السماء بالنظار ، وبعد ذلك يبقى بناء لا نعلم كمه ولا كيفه ، وإنما نعلم أن ما بنيناه لا يمثل الا جزءاً من الكون كله

كل نظام مجرّي من الانظمة التي بنينا لها مكانها في انموذجنا ، وكل سديم خارج عن نظام المجرة ، يحوي ألوف الملايين من النجوم ، ومن المادة النارية التي منها تكوّنت ألوف الملايين من النجوم — ونحن قد توصلنا الى معرفة ملايين من هذه النظامات ، فعدد النجوم التي نراها الآن بالنظار انما هو الذي قدر مرآة الشيخ فيه ١٠٠ بوصة ، يبلغ ألوف الالوف من ملايين الملايين من النجوم ، هذا عدا ما لا نعلمهُ في جهات السماء التي لم يصل نظر اليها بعد . وعلى هذا القول ، لا نخشى أحداً اذا قلنا ان عدد العوالم في الكون أي النجوم في السماء ، كعدد ذرات الغبار في جو مدينة لندن — تصوّر أيها السامع أن الشمس على عظم حجمها لا تملأ حجم ذرة واحدة من الهباء المتطاير في هواء اوسع مدينة من المدن في العالم ، وان الارض كلها لا تساوي جزءاً من مليون جزء من ذرة غبار هذه المدينة . وحينئذٍ يقرب لك تصور نسبة العالم الذي نحن فيه ، الى الكون الذي يحوي سائر العوالم

وهناك صورة نموذج آخر يمثل لنا منظراً آخر من مناظر الفضاء الحاوي هذه العوالم . لنفرض

اننا اخذنا كل انبار الذي في هواء لندن ، وفرشناه بحيث تقع ذراته بعضها من بعض على نسبة الابعاد الواقعة بين بعض النجوم وبعضها في الفضاء . فهذا يقتضي أن ذرات الغبار تبعد بعداً صغيراً جداً احداها عن الاخرى حتى لا يزيد متوسط بعدها عن كسر صغير من البوصة . وعليه اذا اردنا ان نجعل بناءنا على مقياس مناسب لمقاس أبعاد الذرات بعضها عن بعض ، وجب أن نجعل البعد بين كل نجمين نحو ربع ميل بدلاً من (كسر البوصة) واذا فعلنا ذلك تبيّنا مقدار الفراغ في الفضاء ، لانهُ على هذا المقاس اذا فرضنا أننا فرغنا هواء محطة كبيرة كمحطة «واترلو» في لندن من كل الغبار ، ولم يبق فيه إلاَّ ست ذرات فقط ، تكون قد مثلنا بذلك مقدار الفراغ بين النجوم في جوانب الفضاء ، وليس في جوانب الفضاء كلها بل حيث تزدحم النجوم داخل النظام المجرّي . واما بقية جوانب الفضاء ففيها مساحات واسعة خالية من كل نجم ، بين انظم والنظام ، بحيث اذا أردنا ان نحافظ على النسبة في بنائنا ، وجب أن نجعل متوسط البعد بين كل ذرة واخرى من ذرات الغبار ٨٠ ميلاً . فالكون في واقع الامر ، غير مملوء نجوماً ، بل هو مساحات واسعة خالية من النجوم إلاَّ نادراً — فتصور هذا الاتساع

لنفرض اننا وقفنا في هذا الفضاء قرب الشمس ، وجعلنا نرقب حركات النجوم وهي تمر امامنا بسرعة ثمانين الف ضعف من سرعة قطار الاكسبريس في سيره . فلو كان الفضاء مزدحماً بالنجوم لكان مثلنا حينئذٍ كمثل من يقف وسط اكثر الشوارع ازدحاماً بالمارة من الناس والمركبات والدواب ونحوها ، وكنا في خطر من الموت سحقاً كل لحظة . ولكننا اذا حسبنا حساب حقيقة الواقع ، وجدنا انهُ لاخوف من أن يصدم نجم من النجوم نجمنا واقفون بجوار الشمس حتى يمر علينا مليون مليون مليون سنة ، وبعبارة اخرى ، انهُ يظهر بالحساب انهُ لا يصطدم نجم بنجم آخر حتى يمضي عليه مليون مليون مليون سنة في سيره ، بحيث يمكننا ان ننام نامعي البال ، ونقول لا خوف من اصطدام الكواكب على مرّ الاحقاب والاجيال

أيها السادة : هذه عظمة الكون — هذه سعة رحاب الفضاء هذا عدد الملايين من العوالم والاكوان وملايين الملايين من نجوم السماء — فما اعظم هذه العظمة ، وما أفخم هذا الجلال ، وما أوسع هذه الرحاب . ولكن أليس من العجيب الذي لا يقل عن ذلك عجباً وعظمة وجيراً وروعة ، ان يحل هذه الطلاسم والاسرار ، ويحيط إدراكه بها أحاطة السوار بالمعصم ، جوهر لا أعلم ماهيته ، ولا أدرك سره ، وانما أعلم أنهُ هيئة سنجابية المخ مركبة من الفسفور وعناصر اخرى قليلة في دماغ الانسان !

أتمنى أيها السادة لو اني ولدت بعد خمسمائة سنة ، لأعلم سرّ ما اشتري عليه هذه الهيئة السنجابية ، كما أعلم سرّ الغاية من هذه العوالم والاكوان ، كما كان يتمنى أستاذي « فون ديك » رحمهُ الله ، وأسكنهُ فسيح جناته

أحمد علي

الاسكندري

ومذهبهُ في اللغة

فقد جمع اللغة العربية المنكي في نيف وثلاثين علَماً من أعلامه الثابتين الذين قضوا العمر في التحصيل والدرس والاكباب على التمحيص والفحص عن دقائق اللغة . فنقد الشيخ حسين والي الحجة الثبت في صرف اللغة ونقد احمد علي الاسكندري الاديب اللغوي الكبير العارف بتاريخ العربية ، المُشَيَّع بما توالى عليها من تطور خلال العصور التي كان فيها للعدنية الاسلامية الاثر الاول في تحضير العالم الحالف بحوض البحر المتوسط والعالم المتصور في مجاهل أسيا من حدود فارس الى جوف الصين . ويكفي ان اقول هنا ان فقد عالمنا العظيمين كان كارثة على مصر اولاً ثم على عالم الضاد ثانياً . بل أقول ان فقدهما خسارة لا تُعوَّض

***

يقول الاستف « إنج » الانجليزي إن لكل انسان ان يعتقد أن الجاد في احتياج اليه ، ولكن ليس له ان يعتقد ان حاجة الحياة اليه حاجة ضرورية . وهذا القول صحيح من وجوه كثيرة . فان فقد مصر فدين العالمين سوف لا يفقد اللغة العربية صريحها ، وسوف لا ينسى الناس أدب العرب ، وسوف يقوم من المصريين من يعتنق مذهبها في اللغة والادب . وإنما الذي يشعرنا بان فقدها كارثة قلما تعوَّض ، فذلك المخزون الذي استخزنا من قواعدها وآدابها وذلك الاتجاه الذي اتجهنا في تنمية موارد اللغة الحديثة من رقيق الشعر الذي تحدث وصهرها التفكير والدرس حتى خلصت من تزوير الشك والرجاج الذين . حتى لا يبقى في النهاية صورة من العقيدة ما كان ليفكر في تضييعها من شرق فرنسا الا عليه بتضييع الدين هذا الاعتداء فيها ، وهذا ما نفتقده نلا نجده . فالصورة الكاملة المتحيزة المؤتلفة من مزايا الرجل العظيم ، صورة لن تكرر بذاتها مرة اخرى . اما العظمة ، ذلك المعنى الكلي ، فقد توزع على العظماء من أبناء آدم متقمصة صوراً شتى . ولكن صورة واحدة منها لن تكرر بذاتها اجزاءً وكُلاً ،

تفصيلاً واجمالاً . ولهذا أقول ، واقول بحق ، ان فقد والي والاسكندري خسارة لا تعوّض ، بل كارثة قلما تُرمى بمثلها دنيا الكوارث

انما نحن في فترة صراع . صراع بين قديم قائم على المأثورات والتقاليد ، وجديد يتطلع الى دنيا جديدة . ولكل من القديم والجديد حقيقة قائمة بذاتها وحياة فياضة بشتى الصور الخلابة المحبَّبة . قديم هو مجمل ما توارثناه عن القرون الاولى ، وجديد هو مباهجنا ومسرح أحلامنا ومبعث ميولنا وشهواتنا ومعقد آمالنا والبراح الذي سوف يمرح فيه أولادنا وأحفادنا . فأيهما يقوى القلب على تركه ، وأيهما يهون نبذه على النفس ؟

هذه خطرات تعتلج في نفوس نفر من شباب هذا العصر وقليل من كهوله ، أدركتهم هذه « الخضرمة » العصرية ، حتى لعز عليهم ان يهاجم مجدد قديماً ، أو ينابذ عصير من أعصار القديم تجديداً . والمعركة دائرة الرحى في جميع مرافق الحياة ، في البيت وفي الشارع وفي دور العلم وفي الملاهي وفي الجامعة وفي الازهر . أما الغرض الذي تدور من حوله المعركة فالغة العربية ، باعتبارها الاداة الاولى لحضارة شعب عربي الدم والميول والنزعات

***

أما فقيدنا الاستاذ احمد علي الاسكندري فكان لهُ مذهب في اللغة ما فرّط فيه يوماً ولا تسمَّح فترة في أن ينال منهُ أحد منالاً ولا فترت لهُ في الدفاع عنهُ همَّة . هذا المذهب لم يجعل لهذا الاستاذ العظيم من منزل يشغله في عالم « الخضرمين » العصريين ، أولئك الذين يحاولون الترفيق بين ماضي اللغة وحاجات هذا العصر الذي نعيش فيه

كان يعتقد ان اللغة جسم يمكن ان ينمو ويربو بوسائله الذاتية من غير لقاح أو غذاء خارجي. فتعلق بفكرة ان اللغة العربية لغة اشتقاق لا غير ، ثم قصر إجازة الاشتقاق على الصيغ القياسية. والمقصود بالصيغ القياسية تلك الصيغ التي ورد فيها كثير من الكلمات المصوغة على وزانها . أما الصيغ الاخرى وهي الاكثرية الكبرى ، فكان يقول ، على مذهب فقهاء اللغويين ، انها صيغ سماعية أي أنها سمع عن العرب فقط ولكن لا يقاس عليها . بذلك تحصر الدائرة وتضيق ويصبح وضع المصطلحات العلمية وأسماء الشؤون العامة مقتصراً على استخدام وسيلة واحدة هي الاشتقاق من الصيغ القياسية في اللغة . هذا الى جانب المجاز وهو ان يوضع لفظ استعمل لمعنى قديم ليؤدي معنى جديداً مجازاً ، لعلاقة بين المعنيين ، سواء أكانت العلاقة كبيرة او صغيرة

كان من مذهبه في اللغة ان الفصيح من كلام العرب وحده هو الذي يحق لهُ البقاء . أما ما دون

ذلك فدخيل لاحقٌ له في الحياة او البقاء . ومعنى الفصيح عنده ما نقل عن العرب الى نهاية القرن الثالث الهجري، قبل أن يولَّد المولدون في اللغة شيئاً وقبل ان تختلط اللغة الفصيحة بجملة العناصر البعيدة عن العربية السليمة . ولقد يُسلَّم بنا هذا القول الى ان اللغة العربية ملكٌ للعرب ، وليس للعرب عامة وإنما للعرب الذين عاشوا الى نهاية القرن الثالث الهجري . ذلك في حين ان الثابت ، على مقتضى حكمة النشوء والارتقاء ، إن اللغة ملك لمن يتكلَّمونها ويستعملونها ويتخذونها أداة للتفاهم تنمو بنمائهم وتتطور بتطورهم وتنصب في القوالب التي تدعوهم الحاجة اليها . والواقع ان لكل زمان حاجاته ، وان من التحكم ان نلزم تلك الاساليب التي انتحاها أسلافنا ، كأنا غير مخلوقين لزمان بعيد عن زمانهم عشرات القرون

***

هذا مجمل مذهب فقيدنا الكبير . وهو مذهب الى الضيق كما ترى . غير ان اللغة العربية ان أريد بها ان تكون لغة علم وان تؤدِّي جميع المعاني العلمية والفنية ، وجب ان ينظر فيها نظرة أخرى وان تمد بوسائل جديدة . ولقد شعر مجمع اللغة العربية الملكي بذلك فأجاز التعريب ، مقيِّداً بأن لا يلجأ اليه الاَّ عند الضرورة القصوى. والقيد حسن . لولا ان عبارة «الضرورة القصوى» قد جعلت القيد نافياً للإجازة تقريباً

على أن لدينا الى جانب الاشتقاق والتعريب وسيلتين أخريين ، ان تقرَّرتا اضحت أمامنا آفاق مترامية الجنبات واسعة الرحاب ، وكملت بها عدة اللغة لتكون أداة كاملة القوة على الوضع الجديد ، بل على خلق الالفاظ الجديدة لتأدية المعاني المختلفة

***

أما الوسيلة الاولى فهي النحت ، وهو ان ينحت من كلمتين كلمة واحدة كأن يقال مثلاً «كهرطيسي» للكهربية المغطيسية ، و«مخائية» للكربوهيدريت ، ويرمائية للحيوانات التي تعيش في البر والماء ، والاولى متحوتة من كهرب ومغطيس والثانية من فحم وماء والثالثة من برّ وماء . ولا نخترع في اللغة مطلقاً بل اتباع هذه السنة . والنحت من أوضاع العرب جروا عليه منذ جاهليتهم . غير أن ما وصل الينا منه قليل . ولكنه كافٍ لنعرف انه من الاصول التي جرى عليها أفصح العرب

هذا الى جانب النحت وسيلة اخرى توسع من آفاق اللغة ، وهي وسيلة سميتها «الاقتباس» وهي جديدة تكلمت فيها من عهد قريب ونالت استحسان جميع المشتغلين بوضع الالفاظ الجديدة من اللغويين والعلماء . فقد لحظت ان الاكثرية العظمى من اسماء الحيوان والنبات ، قد اشتقت

من اصول ثلاثية او رباعية موزونة على وزن لَذّ للعربي جرسهُ . بذلك يكون العربي قد جرى في وضع اسماء الحيوان والنبات على قاعدة اوحى اليه بها طبيعة الظرف الذي احاط به في مختلف البيئات التي عاش فيها وساعدتهُ سليقته على تطبيقها . فاذا تأملت في الامر الفيت ان العربي كان ينظر في الشيء حيواناً كان ام نباتاً ام جماداً ، فيلحظ فيهِ كثيراً من الصفات . فاذا غلبت في الشيء صفة ظاهرة صاغ له اسماً مستمدًّا من اللفظ الذي يدل على هذه الصفة في لغته . فقال العربي « الاسْليح » وزان إفعيل نبات يسلح الماشية ، وقال الشَّلت وزان فَعْل لنوع من الشعير يشلت في تشرته ويكون كالبُر سواء . وقال الشعارير وزان فعاليل وهي جمع فعلول لصغار القثاء لما يكون عليها من الزغب . وقال الخَزير وأصلها الخزِّير وزان فعّيل لصفة التخازر التي في عينه ، اذ يكسرها فتظهر كأن بها خزراً ... وهكذا

والسبيل للعقول لتطبيق قاعدة «الاقتياس» هو ان تكب على جمع اسماء الحيوان والنبات عند العرب . ثم نعرف من اية الصيغ وردت ، ونحصر هذه الصيغ حصراً كاملاً قدر الستطاع ، ثم نجاز قياسيتها والصوغ عليها في وضع اسماء الحيوان والنبات ، على ان نلحظ صفة في المسمى ظاهرة او خفية ، ونشتق من اللفظ الذي يؤديها في العربية اسماً علميًّا له . فاننا بذلك لا نخرج عن القاعدة التي جرى عليها العرب ما دمنا نلاحظ شرط لمح الصفة في المسمى على ما عمل أسلافنا ، واتباعاً لقاعدة قال بها الائمة وهي « ان ما قيس على كلام العرب ، فهو من كلام العرب »

***

اما السؤال الذي ينبغي لنا ان نسأل انفسنا فيه ازاء هذا فهو : هل يخضع العلم اللغة ، ام تخضع اللغة للعلم ؟ لاشك ان من الطبيعي ان تخضع اللغة للعلم . لان اللغة اداة تخدم العلم . وعكس هذا بعيد عن الحكمة

فيما اسلفت بيان عن مذهبين سائدين الآن . اما المذهب الاول فلن يؤدي باللغة الاَّ إلى الجمود . فلا هو يوسع من اقيسة اللغة ، ولا هو يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون . اما المذهب الثاني فهو بعيد ضروري ، على ان يقتصد فيه الاقتصاد الواجب حتى لا نمس سلامة اللغة عا يفسدها

وعلى الرغم من ذلك المذهب المحافظ الذي كان يعتنقهُ الاستاذ الفقيد ، فان المثل الذي خلفهُ لنا في الغيرة على اللغة والتفاني في خدمتها وعدم الضنّ عليها بجهد مهما يشق ، او ببحث مهما تتسع آفاقه وتتشعب مطالبه ، لمثل يحتذى ، وما أقل ما بين ظهرانينا من المثل ، وما اكثر حاجتنا اليها

***

نشوء علم الطبيعة

كتاب اينشتين وانفلد[1]

... يواجه الانسان عالم الطبيعة بعينين وأذنين وأنف ويدين ولسان وحلق ودماغ، وعليها يجب أن يعتمد في فهم ما يمكننا من الاشجار والحجارة والهواء والضوء والرجال والنساء والعوالم السابحة في رحاب الفضاء. ما هي وعلى هي ما تبدو لنا أو حقيقتها شيء آخر. والرد على هذه الاسئلة، وما كان من قبيلها، هو همّ علماء الطبيعة والكيمياء والفلك والاحياء وكذلك الفلاسفة

وقد تحوّل علم الطبيعة خلال العصور وفقاً للنتائج التي كان العقل يخلص اليها مما تشاهده او تبينه احصاءات الحس. فالاغريق كانوا يرون في الرياح انفاس الآلهة. وكان أرسطو وفلاسفة القرون التي تلته يعتقدون ان الارض مركز الكون. وكان هذا الرأي وذاك شيئاً معقولاً في نظرهم

ولكننا ننظر الى الكون الآن على أنه فقاعة آخذة في الانتفاخ، ومع ما في هذه الصورة من الغرابة، يرى كثيرون من المطلعين على الحقائق انها صورة معقولة. وقد تعودنا في هذا العصر والزمان لا ينفصل عن المكان. فواقع الاجسام المختلفة يجب ان تحدّد بوقتها وزمانها في آنٍ واحد. أما المادة فأصبحنا نتصورها دقائق كهربائية او مادية هي الى الكهربائية أقرب، لا تخضع في صميمها لاي قانون. وأما الضوء فبلانك واتباعه يقولون فيه انه مقادير من الطاقة لا يؤثر في سرعتها حركة مصدرها ولا شدّة حاوله

والواقع اننا لا نزال في نهضة للحقيقة النهائية بعيدين بعد الاقدمين عنها

كيف تحوّل علم الطبيعة من الصور التي قال بها الاقدمون الى الصور التي يقول بها المحدثون؟ ان كتاب الدكتور اينشتين وانفلد يبلغ على هذا السؤال. وهو خالٍ من المعادلات الرياضية، ولكنه ليس من النوع السهل الذي يقرأ في القيلولة للتسلية. فالعلم له ثمن، وثمن الفهم الصحيح الذي تخرج به من هذا الكتاب هو المطالعة بصبر وانعام نظر. وانه لمن حسن الحظ ان يعنى عالمان عالميان كاينشتين وانفلد في معالجة موضوع كموضوع «نشوء الطبيعة» في نحو ٣٠٠ صفحة وان كانا يتطلبان من المطالع جلداً ومثابرة

---

(١) The Evolution of Physics — By Einstein & Infeld, Cambridge University Press.

اما اينشتين فليس في حاجة الى التعريف . واما زميله الدكتور انفلد ، فعالم كبير الشأن وإن لم ينل من الشهرة العالمية ما نالهُ اينشتين . ولد في كراكو ببولندة قبل أربعين سنة ونال العلوم العالية في جامعتها القديمة ، ففي جامعة برلين ، ثم حاضر في « لوفر » ثم قضى سنوات في جامعة كمبردج بانكلترا حيث عاون العلامة مكس بورن في وضع نظرية حديثة تصل بين نظرية المقدار (الكوانتم) ومعادلات مكسويل الخاصة بالامواج الكهربطيسية . واخيراً انتظم في معهد الدراسات العالية بجامعة برنستون حيث يقيم العلامة اينشتين

ويؤخذ مما قرأناهُ عن هذا الكتاب ان انفلد هو الذي اقترح على اينشتين وضع مجلد من هذا القبيل فوقع الاقتراح عندهُ موقع القبول لطول عهده بتقليب هذه الفكرة وتفكير فيها وتحقيقها . فقبل في الحال . واشترك العالمان في وضع برنامج الكتاب وتقسيم فصوله ويؤخذ محتويات كل فصل ، ولكن كتابة الفصول نفسها قام بها انفلد وحده

تخرج من مطالعة هذا الكتاب بأن « غليليو غليلي » الايطالي كان حدًّا فاصلاً في نشوء الطبيعة الحديثة . به بدأت الصورة الميكانيكية للطبيعة ، والمعنى الى نبذ الروحية (animism) منها . ثم جاء نيوتن فأتمَّ الصورة ، ولا بلاس فتناهى فيها حتى لقد زعم ان الكون آلة تستطيع ان تعرف أوائلها وأواخرها من دراسة حاضرها وما يجري عليه

ولكن الصورة الميكانيكية قد تداعت . وعادت غير صالحة لتفسير الافعال الكونية صغيرة كانت او كبيرة . وغدا الكون في نظر علماء العصر مشكلة من مشكلات الهندسة العليا لا مجرد آلة . فالذرات ليست الاَّ مجموعات من الدقائق لا تستطيع ان تجري عليها الاَّ قواعد الاحتمال الرياضي . واذا كانت النظرة الميكانيكية قد شملت النجوم في الفضاء والذرات الدقيقة على الارض فالصورة الكونية الحديثة او علم الطبيعة الحديث علمان . علم للنجوم وعلم للذرات . وهذا يدل على ان فهمنا للعالم الخارجي ليس بالفهم الصحيح . هذه الشؤون وما كان من قبيلها ، تراها مبسوطة في كتاب اينشتين وانفلد ، بسطاً علميًّا لا تعوزه المعادلات الرياضية ، ولا تشوبهُ شائبة التفلسف . نعم ان الكتاب لا يرتفع الى مستوى كتابات جينز وادنغتن من حيث الاسلوب الادبي ، اذ يعوزهُ التشبيه المبتكر ، والاستعارة الشعرية . ونعدّ هذا من اخير ما نوجه من النقد التي أخذت على العالمين البريطانيين ادخالهما غير قليل من الشعر والتفلسف في كتابتهما العلمية

يروي محرّر النيويورك تيمس العلمي ، انهُ لما ذاعت انباء النظرية النسبية ، بعد تقديمها الى دوائر العلم بثلاث عشرة سنة ، كثرت الكتابات فيها وتعددت مساعي العلماء والكتاب العلميين في تبسيطها . ولكن مقالة اينشتين في التيمس كانت خير مقالة في هذا الموضوع . ولعلَّ كتابهُ هذا خير بسط لنظرياته — لان هذه النظريات هي على الغالب محور هذا الكتاب

المذاهب الاشتراكية

توطئة لبحث تأثير الماركسية في الادب

لحليم سرى

اذا اعتبرنا المساواة السياسية « مثلاً أعلى » للديموقراطية الحديثة فقد ظلّ عدم المساواة الاقتصادية مسألة المسائل في الحياة الاجتماعية بل في الشؤون السياسية مما لم يعرض له العقل الاجتماعي بحل تطبيقي حتى اليوم . ويعزى هذا الاضطراب في التوازن الى التقدم الصناعي في القرن التاسع عشر . ذلك التقدم الذي بدأ صفحة جديدة في حياة المجتمع الانساني بل قد أوجد طبقتين في ذلك المجتمع طبقة « الرأسماليين » الذين ينعمون بأرباح طائلة لا حدّ لها ويعيشون في رفاهية تامة وطبقة « العمال » الذين يتأثرون بحالة العرض والطلب أي حالة السوق التجارية وما قد يطرأ على الصناعة من تقدير معنوي . ولقد أصبح « العمال » منذ هذا التقسيم عرضة للأزمات الاقتصادية في كافة أنحاء العالم

ويرجع نشوء « الرأسمالية » الى سببين رئيسيين

أولاً — تأثير المبادىء التي أذاعها الاقتصاديون في القرن الثامن عشر والتي بدأ تطبيقها العملي في اوربا منذ النصف الاول للقرن التاسع عشر

ثانياً — التقدم الصناعي القائم على الاختراعات والاكتشافات العلمية في القرن التاسع عشر فالاقتصاديون قد دعوا الى حرية التجارة والصناعة والى الغاء النظام الخاص بالنقابات . في حين أن هذه الحرية أطلقت اصحاب الاعمال أي « الرأسماليين » دون غيرهم لان العامل البسيط كان عاجزاً عن ضمان مركزه الاجتماعي أو الدفاع عن مستقبله وحقوقه كفرد في الهيئة الاجتماعية . أما التقدم الصناعي فقد أفضى الى تجمع وسائل الانتاج في أيد قليلة من الممولين الذين يقيمون المعامل والآلات ويشترون الصناعات ويصدرون للشائعات التجارية . ونتيجة هذا ان انتهز هؤلاء الفرصة لارهاق العمال وتخفيض اجورهم مما كان يؤدي حتماً الى أن يعاني الفريق الاكبر من الشعب سوء العيش

وإذا كان أصحاب السلطة قد قضوا أبديهيس الشؤون الصناعية تبعاً لحالة السائد في ذلك العهد فقد نشأت المبادىء الاشتراكية التي عرضت على الناس في القرن الثامن عشر في الحرية ونسبت اليها أخطاء الانتاج وسوء التوزيع وفوضى الحياة الاقتصادية والاجتماعية ثم تطرقت الى نقد نظام « الرأسمالية » الذي يعطي الغنم كلهُ لطائفة قليلة من الناس ويترك الصناع وأصحاب الايدي العاملة في حالة شديدة من البؤس والفقر . ثم ظهر على مسرح الاجتماع طائفة من أصحاب الآراء الاشتراكية لم تكن لهم خطة معينة لقلب أوضاع تلك الحياة الاجتماعية ولم يرسموا صورة كاملة لما يجب ان يكون عليه النظام الجديد للاجتماع

***

« المذاهب الاشتراكية » الاساس في الاشتراكية ان يُضحي الفرد لمصلحة الجماعة ، والاشتراكية في هذا تضاد « الفردية » او الحرية الاقتصادية بمعناها الدقيق . وهذه الفردية تعني المحافظة على الانسان وشرفه وشخصيته وهي تقوم على الحرية التي تعتبر اساس النظام الاجتماعي وأساس المجهودات الفردية . وهي لا تطالب الحكومات بالسعي لاسعاد الافراد ولكنها تعمل لكي تحقق الحكومات تيسير السبل للافراد للقيام بمجهوداتهم في دائرة اعمالهم الحرة على احسن حال . وتشير « الفردية » الهيئة الاجتماعية قائمة على نجاح الافراد في جهادهم الحيوي . وان تلك الهيئة لا تساوي اكثر مما يساويه افرادها . فتقدمها نتيجة لتقدمهم وسقوطها نتيجة لسقوطهم

أما « الاشتراكية » او « الاجتماعية » كما كان ينبغي ان نسميها ، فهي لا تخضع لقوة او تحتمي بسلطان وانما تستمد قوتها وكيانها من سلطة التطور الاجتماعي والتطور الاجتماعي له عناصره الطبيعية والاقتصادية والنفسية وليس هنا مجال التعليق على هذه العناصر ومدى آثار كل عنصر منها . والمعروف ان الهيئات الاجتماعية تتطور وتتعدل وتختلف بمقياس هذا التطور باختلاف الجهاد العقلي وصلة هذا الجهاد بتقدم العلوم الاجتماعية وتطبيقاتها العملية . ويتوقف على هذا ان القوانين الوضعية والنظم المختلفة الخاصة بالمجتمع لا يلبث ان يعتريها التقادم وتتلاشى كلما دار الزمن دورته وبلغ العقل الاجتماعي شأواً بعيداً من التقدم . فلن يبقى من تلك القوانين وهاته النظم الا « الانسب » . ولما كان النظام الاقتصادي القائم في العالم يسخّر طائفة كبيرة من الناس لمصلحة طائفة قليلة من « الرأسماليين » فهو نظام فاسد لا يفيد الوضع الطبيعي للحياة ويتحتم تغييره لانهُ لا يقوم على الحق والمساواة

بدأت الاشتراكية منذ أقدم العصور « نظرية من نظريات التفكير السامي الذي يحرر

الثورة والحرية وهي لا تزال كذلك على الرغم من المحاولة الروسية الجريئة منذ عام ١٩١٧ لإقامة النظام الاشتراكي في الحكم . وهذه النظرية أعرق في القدم من نظرية الحرية الاقتصادية . اذ لم تتخذ هذه هيئة مذهب الا منذ القرن الثامن عشر . وطبيعي ان توالي العصور لم يضعف المذهب الاشتراكي بل أحياه وصبغهُ بصبغات اخرى سياسية وثقافية

***

تزعّم الاشتراكية في فاتحة القرن التاسع عشر «سنت سيمون» و«روبرت اوين» الانجليزي. فسيمون كان له اتباع من جماعة الاشتراكيين الخياليين الذين لا تقوم تعاليمهم على مبادىء عملية وانما تصطبغ بصبغة تصوفية فلسفية . وسيمون يذهب الى انه لكي يجب أن تسعد الانسانية ينبغي ان تستثمر الموارد الطبيعية ويكون توزيعها بطريقة عادلة وذلك بأن يشرف جماعة المفكرين والعلماء والعمال على الادارة الحكومية . اما « روبرت اوين » فقد اقترح الغاء النظام الرأسمالي ووضع نظام خاص للصناعة والزراعة والتجارة يسير على اسس التعاون . ولن نقسى ونحن في هذا الصدد أن نقرر ان بعض هذه الآراء كان آمالاً خيالية أكثر منهُ حقائق ثابتة لبعدها عن الآثار العملية المترتبة على التطور الاقتصادي لهذا الزمن . اما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فقد اتخذت الاشتراكية مجالاً أوسع منها قبلاً وذلك باقتشار آراء «كارل ماركس» العلمية مما سنتحدث عنهُ

أما مذاهب الاشتراكية فهي الشيوعية. والفوضوية. والجماعية. والماركسية. والماركسية الجديدة

فالشيوعية يمثلها في الفلسفة اليونانية القديمة «أفلاطون» الذي حاول في كتابه «الجمهورية» ان يكون شيوعيًا . وإنما حبذ وجود طبقة السيد لخدمة السادة. وللقيام بالأعمال الصناعية وكان يعتبر العامة طبقة من الناس بعيدة عن الاندماج في نظام جمهوريته الشيوعية لانحطاطها عن مستوى الطبقة الارستقراطية . وتلك الجمهورية كانت مؤسسة على المبادىء الفلسفية الخلقية اي على الفضائل وقد جعلها المحور الذي تدور عليه حياة الانسان وعلى العدل الذي هو أساس الملك الوطد ولكنهُ أنكر حرية الفرد ودعا الى شيوعية النساء. ولقد ظهر في القرن السادس والسابع عشر نزعة شيوعية سعوا الى تحقيقها اكثرهم شهرة توماس مور صاحب «جزيرة الاوهام» التي تخيل فيها طبقة من الناس يعيشون في جزيرة يقوم بالحكم فيها رجال القضاء بسلطتهم الادبية ولا يملك الفرد فيها حرية التصرف لانه في تصرفاته وأعماله يتبع الجماعة التي تقوم بالحكم. ويجب ان تقوم الشيوعية في الاصل على مبدأين

أولاً — ان يكون عدد سكان الجهة المرغوب نشر الشيوعية فيها قليلاً لا يتجاوز ٣٠٠٠ شخص لكل ما قل عدد السكان صار من السهل نشر الدعوة الشيوعية

ثانياً — أن تكون الهيئة الاجتماعية السائدة طبقاً للنظام الشيوعي فيها كفاية المحافظة على تقسيم الثروة بالزام كل فرد ألاّ يأخذ اكثر من نصيبه

أما الفوضوية فنوع متطرف من الشيوعية وهي تجمع بين الآراء الحرّة والافكار الاشتراكية. فالفوضويون يتسكون بحرية الفرد وشدة كرههم للحكومة وعدم قبول نظام الملكية الفردية وطرق استخدام العمال . ويعتبر برودون Proudhon أول مؤسس للفوضوية وهو الذي قال ان الملكية هي السرقة بعينها. والفوضوية التي نحن بصددها هنا هي الفوضوية السياسية الاجتماعية لا الفوضوية الفلسفية فهي التي تقوم في نفوس الافراد والجماعات ومنشؤها « الانانية » وحب النفس واول من دعا اليها M. Stirner وتنتهي رغبة اصحاب الفوضوية الفلسفية الى ان يتمتع الفرد بأقصى حرية فكرية ممكنة فهم يعتبرون الفرد قوة مستقلة ويفهمون انهُ طالما كان قوياً فالحصول على مطالبه شيء يسير. فهو مذهب « ويعدي الطوفان » وكل من يقف في وجه المصالح الفردية يجب محوه وإزالتهُ . وأما الفوضوية السياسية الاجتماعية فتدعو الى الحرية الفردية المطلقة لان كل طاعة يفهم منها التنازل عن حق من الحقوق الفردية ومذهبها الاعلى هو « يجب ألاّ تقيد الهيئة الاجتماعية الانسان بغير القيود التي أوجدتها الضمة » . ولقد تزعم الفوضوية بعد « برودون » « كروبتكين » ثم « باكونين »

واما الجماعية « Collectivisme » فترمي الى ان تكون وسائل الانتاج من أرض ومناجم ومعامل ومصارف مالية ومواد اولية وغيرها ملكاً للجماعة . أما ما يتعلق بأمور الاستهلاك فتكون حقاً لمن أنتجها بجده واجتهاده . ويجب ان نفهم ان الشيوعية لا تعترف بالملكية . أما الجماعية فلا تلغيها وانما تميز بين الانتاج ووسائله فيظل الانتاج ملكاً لمن أنتجهُ أما وسائل الانتاج فتكون ملكاً للجماعة وهذه الجماعة تحدد مسؤولية كل فرد من افرادها وهي تمده بكل ما يحتاجه لقيامه بعملية الانتاج . وانما لا يكون المنتج حرّاً في بيع نتاجه اذ يجب عليه ان يسلمهُ للجماعة لتعطيه نظيره ما يعادله من الثمن بحسب مجهوده وعمله . تلك هي الجماعية الصناعية اما الجماعية الزراعية فهي التي تشترط ان تكون الارض ملكاً للجميع

***

والآن نقول ان الرجل الذي استطاع ان يركز طائفة كبيرة من الآراء والافكار الاشتراكية في هيئة مذهب علمي اقتصادي هو « كارل ماركس » واضع « الاشتراكية العلمية » او « الماركسية » وهذه الاشتراكية العلمية تتميز عن الاشتراكية الخيالية التي قامت منذ فجر التاريخ والتي تحدث عنها الفلاسفة وكبار « الطوبيين » امثال افلاطون وتوماس مور وبلز وغيرهم

﴿ كارل ماركس ﴾ ولد كارل ماركس سنة ١٨١٨ في « تريفه » ببروسيا . وكان أبوه في الاصل يهوديًّا ثم ارتدَّ الى المسيحية وكان موظفاً « قضائيًّا » بحكومة بروسيا . ولقد درس كارل ماركس في جامعتي بون Bonn وبرلين . وكان قد اختصَّ في دراسة التاريخ والفلسفة والاقتصاد السياسي . وترك الحياة الجامعية عام ١٨٤٢ عندما بدأ يحرر جريدة راديكالية هي « نهر الرين » وكان لما احتوتهُ من جرأة فكرية وآراء حديثة ان اغلقتها السلطة البروسية ومن ثمَّ هاجر كارل ماركس الى باريس وهنالك نشأت صداقته الخالدة مع المفكر الاشتراكي الالماني « فريدريك إنجلز »

ثم طرد ماركس من باريس عام ١٨٤٥ بعد ان درس آراء الاشتراكيين الفرنسيين وذهب بعد ذلك الى « بروكسل » وتبعه اليها « فريدرك انجلز » فأصدرا في يناير عام ١٨٤٨ « البيان الشيوعي » الذي دعوا فيه العالم الى الاتحاد والانضمام للدولية العاملة وقالا فيه . « ايها العمال من كافة البلاد اتحدوا » وبهذا النداء انجبت الانظار الى المذهب الجديد عند ما نشر كارل ماركس مؤلفه « رأس المال » في عام ١٨٦٧

ولن يظفر الباحث بحلقة مفقودة بين الاشتراكية السابقة على ماركس واشتراكيته العلمية اذ يوجد في أصول الثانية كثير من أسس الاولى . فالماركسية مذهب اقتصادي علمي قام على دعاوة اشتراكية منظمة في وسط حركات ثورية ألبستهُ رداء جديداً . ولقد كانت نتيجة هذا نجاح الفكرة الاشتراكية بوجه عام وذيوعها في مختلف الاوساط . وطبيعي ان هذا النجاح لا يرجع الى المذهب الاشتراكي في ذاته فهذا قديم قدم الحياة الانسانية نفسها وانما مرجع هذا الى تطوُّر الفكر السياسي تبعاً لحق الانتخاب العام الذي جعل دعاة الاشتراكية يطمحون الى تولي السلطة بالوسائل المشروعة والتوجيه الاقتصادي الجديد للهيئة الاجتماعية . وتتلخص نظريات كارل ماركس في الآتي :

﴿ نظريته في الحركة لاجتماعية ﴾ تتلخص في ان العالم المادية هي التي تحرك الافراد ومن ثمَّ تؤثر في الاخلاق والنظم « فالمادية التاريخية » Historical Materialism هي عكس « الروحية التاريخية » التي من مقتضاها ان الافكار هي التي تقود الانسان .

وتثبت المادية التاريخية وجود نزاع مستمر بين الطبقات المختلفة للجماعة الواحدة وان الجماعة الحاضرة تسير نحو النظام الجمعي طبقاً لتطور الاجتماعي . وأما في القرون الوسطى مثلاً فقد كان الاشراف يستغلون الطبقة المتوسطة التي كانت النظام الاقطاعي وهذه لما فازت بحقوقها أصبحت عبارة عن طبقة « رأسماليين » يستغلون طبقة العمال ويستولون على جزء من العمل بدون مقابل لعدم اعطائهم الاجور المناسبة . ويحدد ماركس الاجر العادل على المجهود الذي يصرفهُ العامل في العمل

وأما الرأسمالي فيستخدم الجزء من العمل الذي يستولي عليه من العامل في زيادة الانتاج . واذن فهنالك جزء من الانتاج لا يستهلك وهذا ما يؤدي الى اضطراب في التوازن بين الانتاج والاستهلاك بل مما يؤدي حتماً الى أزمات قلة الاستهلاك لان العامل لا يستهلك أو لا يمكنه ان يستهلك ما يجب ان يستهلكه لقلة أجره

نرى من هذا ان الطبقة الغنية صاحبة الاموال تعيش على عاتق الطبقة الفقيرة التي هي طبقة العمال . ومن هنا نشأ كفاح الطبقات الفقيرة مع اصحاب الاموال اي « الرأسماليين » . وينحصر بحث ماركس في هذا على قاعدة « عدم المساواة في طرق التبادل » . واما بحث من تقدموه فينحصر في سوء نظام الملكية . وماركس يبحث الموضوع من الوجهة الاقتصادية البحتة . أما « سيسموندي » و « برودون » و « سيمون » فكانوا يبحثونهُ من الوجهة الخلقية الاجتماعية . ويقرر ماركس ان العمل ليس وحده اساساً للقيمة او سبباً لها بل هو جوهر القيمة او مادتها . وهو الذي يحدد قيمة الاشياء اي ان تلك القيمة تحدد بحسب ما احتاجت اليه من الوقت في صنعها . واذن فالنفعة لا تصلح ان تحدد قيمة الاشياء وهو لهذا يضع النظام الاجتماعي الاقتصادي كالآتي :

(١) ان تكون وسائل الانتاج تحت تصرف الجماعة وان تكون اموال الاستهلاك تحت النظام الفردي لان الاشتراكية الجمعية تخلق الشيوعية لا تلغي الملكية الفردية الا في وسائل الانتاج

(٢) تنظيم الانتاج وموازنته بالاستهلاك بواسطة الجماعة

(٣) احلال قيمة العمل مكان قيمة المبادلة المبنية على المنفعة وتكاليف الانتاج . ولنظريته في التركيز Concentration تتلخص في ان المشروعات الاقتصادية الفردية والملكية الفردية تندمج الصغيرة منها في الكبيرة الى ان تنحصر هذه الاملاك في أيدٍ معدودات وعندئذٍ يسهل على العمال عزل وُعاة الصناعات الكبيرة ليحلوا محلهم ولتكون الملكية كلها من صناعات وعقارات ملكاً للعمال ولا يتم هذا التركيز الا اذا كانت المنافسة حرة

ولقد كان ماركس يريد تحقيق نظرياته عن طريق التطور الاجتماعي الاقتصادي لتصبح وسائل الانتاج ملكاً للجماعة وحتى يصير ما ينتجهُ العمال ملكاً لهم وبهذا يزول الظلم عن الطبقة المغلوبة على امرها طبقة العمال المهضومة الحقوق

***

« نظريته في تفسير التاريخ » ويعتبر اكبر مفخر لحياة كارل ماركس الفكرية هو ابتداعه لنظرية « التفسير الاقتصادي للتاريخ » ورأيهُ فيها ان قوى الانتاج هي التي تأتي بالنظام الذي يلائم المجتمع ولا ينبغي ان نطلب اصلاح المجتمع بناء على النظريات « المثالية » التي يقول بها

أصحاب المُثُل العليا، وهذه النظرية تحدد الفوارق الاخلاقية والمادية للهيئات الزراعية والصناعية وان طريقة الانتاج والاستهلاك تحدد للامة توزيع الثروة وهي لذلك تقرر النظام الاقتصادي والسياسي والادبي وتأخذ هذه النظرية الحياة الاقتصادية للامة برهاناً على صحتها . تهو عند ما يوضحها يقول ان الامراء والاشراف كانوا يستولون على العقارات والارض لمصالحهم . فلما انتهى العهد الاقطاعي حلت الطبقة المتوسطة محلهم Bourgeois Capitalists وهذه هي طبقة الرأسماليين الذين يستغلون الآن الاموال والعمال في الارباح الهائلة التي يحصلون عليها ومصير هذه الطبقة ان تزول إذا استولى العمال على الارض والعقارات . فالثورة الزراعية أتاحت للامراء الاستيلاء على الارض ثم جاءت الآلات والصناعة فأتاحت للطبقة المتوسطة الاستيلاء على الاموال والاستبداد بالعمال وقد تأتي غداً الاشتراكية فتقرر في العالم سيادة العمال وهكذا يبيد من الوجود طبقة الرأسماليين

ولقد نستطيع أن نقرر ان الجماعة لم تتحول حتى الآن الى النظام الجمعي الذي فرضهُ ماركس على المجتمع فرضاً وكذلك لم تهزم طبقة العمال « الرأسماليين » وقد كان ان ظهر في عصره جماعة شنوا عليهِ غارة النقد فجذوا اعتبار المنفعة وقفة الانتاج أساساً للقيمة وبدأ الكثيرون ينقضُّون على مذهب ماركس الاقتصادي . فلقد أهمل « كوتسكي » Kautsky « كثيراً من نظريات ماركس ولم يتفق معهُ على ان المادة وحدها ذات تأثير عظيم في تطور الهيئة الاجتماعية « النظرية المادية التاريخية » بل يؤمن ان الاخلاق لها تأثير كبير في التطور الاجتماعي . ولقد خالفهُ ايضاً في ان طبقة العمال آخذة في التدهور والفقر بدعوة ازدياد عددها مع انتشار الصناعات اليدوية وانتشار الصناعات التي تقوم على الآلات بل طبقاً للاحصاءات المتباينة في مختلف الاقطار مما تدل على ان حالة العمال آخذة في التحسين . ولقد كان كوتسكي هذا من انصار السلم والاستقرار . ومن معارض ماركس ايضاً برنشتين Bernstein . وبخاصة في نظريته عن التوازن الاقتصادي القائم على الانتاج والاستهلاك . وقال بوجوب تحسين حالة العمال الخُلُقية وانهُ من الصعب أن يصل الباحث الى تطبيق نظرية التركيز الماركسية على الملكية وحصرها في يد واحدة أو في أيد معدودات

ويقول برنشتين ايضاً ان الاشتراكية حركة والحركة هي كل شيء في الحياة الاجتماعية واما الغاية فليست شيئاً يذكر

وعلى هذه المبادىء التي نالت من بعض نظريات ماركس الى درجة محدودة وفي ظروف خاصة قامت الماركسية الجديدة وهذه الماركسية الجديدة هي النقد الذي وجههُ الناقدون المتقدمون

من أنت ؟

جواب الروح الانسانية : لفيكتور هيجو

من ديوان « الله ونهاية الشيطان »
Dieu et la fin de Satan

أنت يا من تسامت عن عالم الاحداث
طائفاً هنا وهناك ، ولا يتجلى لك سوى منحى واحد من الكائنات
أن روحي المنبثة في تضاعيف الكائنات هي روح الإنسانية
التي ظهورها في كائن معناه ارتفاع مشعل الانسانية فيه
ان كياني الحية ، التي تتجاوب في حنايا النفوس
أشبه ما يكون بسريان طنين النحل في قفيره

اني ملتقى الكائنات على الدوام
ومدار عجلة الحياة
روحكم ، هو أنا ! الذي يقيد سكناتكم وحركاتكم
وانا الذي يطوف على نفوركم بالابتسام ويجري بالدمع في مآقيكم
ويلهمكم الايمان ويثير الشك والجحود فيكم
أنا ... أنا نفس الكل
أنا الذي أصبح في كل متحفز للعمل
حسبك ما قلت : أنا الذات المشتركة بين البشر

ان مقاليد الامور في يدي ، فأنا الذي أقود وأدبر وأحرك
وان كان هنالك شيء ترتعد له فرائصي فهو تجاوز حدّ الاعتدال
فهو ان بدا لي في شبح النقاء سني الخوف ، وفي نور الحكمة تولاني الرعب
اني أقبض على أعنة الغضب والشهوة
لكي لا ينحرفا عن طريق الخير
وليصحب الانسان اذن في قافلة الحياة أسد الغضب وكلب الشهوة ؟

[تعريب : الدكتور اسماعيل أحمد أدهم]

قاهر البحار

قصة مجلان : أول من دار حول الارض

تلخيص كتاب ستيفان زفيج اعتماداً على الملخص المنشور
في مجلة « ريدرز ديجست » الاميركية

نقله : محمد مسعد لوزي

قاهر البحار

قصة فرديناند ماجلان

أول من دار حول الارض

كانت الرغبة في الحصول على الاقاويه هي الدافع الاول لتلك الاعمال الباهرة . فقد كان طعام الاوربيين طوال العصور الوسطى تافهاً بسيطاً وكانت التوابل التي نراها الآن كثيرة ، غير معروفة في ذلك العهد . والليمون والبطاطس والشاي لم تكن توجد الا في قصور الامراء

الا ان هذه المواد كانت كثيرة في جزر الهند . كان الجميع يعرفون ذلك ولكن . . ما الفائدة ؟ فالطريق غير ميسور ، والقرصان أسياد البحار . وكانت الاقاويه والبهارات تباع في أسواق اوربا . ولكن بأي ثمن ! . . فالزنجبيل والقرفة كانا يباعان بميزان الصيادلة ، أما الفلفل الاحمر الصغير فقد كانت حبته تباع بوزنها ذهباً

ولقد كان الدافع الوحيد لتلك الرحلات البحرية التي لن ينساها التاريخ — رحلات كولومبوس ودياز وكابوت — هو البحث عن طريق قصير آمن للتجارة وتمهيداً للحصول على اقاويه الشرق التي كان الاوربي يتوق اليها ولا يكاد — لندرتها — يراها في نومه

وعندما نجح فاسكو دي جاما في الوصول الى الهند عن طريق شاطىء افريقية الغربي فحول رأسها الجنوبي سنة ١٤٩٨ بدأ عندئذ النزاع الطويل المستحر بين الدول الكبرى لاستكشاف طرق التجارة واستعمار الشرق . وفي سنة ١٥٠٥ أرسل البورتغاليون أسطولاً لتأسيس مراكز تجارية في جزر الهند وكان فيها فرديناند ماجلان وهو برتغالي شاب في الرابعة والعشرين من عمره . ورجعت سفن ذلك الاسطول بعد ان وصلت الى جزائر ملقا بالقرب من سنغافوره وعاد احداها الشاب ماجلان وقد أصيب بعرج في ساقه . وكان يصحبه عبد سماه « انريك » فكان له على ما سنرى شأن واي شأن في قصة صاحبنا

فتحت أمام بطلنا ماجلان آفاق واسعة . أراد أن يصل الى (جزائر الاقاويه) بالابحار عن طريق الغرب كما فكر قبله كولومبوس وفيسبوتشي وكورتيز وكابوت . ولكن الفرق بين ماجلان وبينهم أن هؤلاء كانوا يقولون « ربما نجد الطريق . . » وكان بطلنا يقول « أعرف الطريق . . » ونجح هو وأخفق الآخرون

تقدم البحار الشاب الى الملك مانويل ملك البرتغال وطلب منهُ في حماسة الشاب ورجاء الواثق بنفسه ان يمنحه اسطولاً ليحقق ما يجول برأسه فرفض . فتقدم ماجلان بالطلب نفسه الى اسبانيا غريمة البرتغال في الاستعمار فوافق ملكها شارلس لا عن عقيدة بنجاح الفكرة ولكن لان حماسة الشاب وسحر الفاظه وعميق ايمانه أخذت بلب الامبراطور فوافق على المغامرة الهائلة . ولكن الصعوبات لم تنته عندذلك ، فان ملك البرتغال تدخل بواسطة قنصله في اشبيلية ليحول دون إبحار ذلك الاسطول بيث الريب والروع في نفوس البحارة . وواجهت ماجلان صعوبات عظيمة بشأن جمع البحارة لتلك الرحلة — رحلة الى آفاق مجهولة قلما يعودون منها . وتمكن ماجلان أخيراً من التأثير في بعض البحارة فانضموا إليه . وكان بين البحارة شاب ايطالي اسمه بيجافيتا من اسرة كبيرة القدر الى ماجلان « ليرى روعة المحيط » كما زعم . ونحن مدينون لهذا الشاب كثيراً فقد كان يسجل حوادث الرحلة في مذكراته التعيسة يوماً فيوماً في اسلوب رصين ممتع . وفي صباح ٢٠ سبتمبر سنة ١٥١٩ وقفت في ميناء سان لوكار باسبانيا خمس سفن عليها ٢٦٥ بحاراً وعلى رأسهم الشاب الاعرج . وبعد ظهر اليوم نفسه نشرت السفن اشرعتها وضربت في عرض البحر باسم الله مجريها ومرساها

***

ولقد كانت أصعب مهمات ربان هذا الاسطول الغريب هو ان يوحّد بين هذه المراكب الخمس الهرمة المتفاوتة السرعة . فصدر امر ماجلان بأن تتجمع السفن عند غروب شمس كل يوم وتقترب من « سفينة العلم » ويحيي الربان بهذه الكلمات :

« ليحمك الله .. أيها السفير الجنرال الربان .. » ثم تفرق بعد تلقي التعليمات في نظام وهدوء . ولقد كان ربابنة السفن الاربع يقترحون ان يكون الهدف في نجاح الرحلة وذلك باطلاعهم على الخرائط واشراكهم في المناقشات .. لكن ماجلان رفض ذلك رفضاً قاطعاً . وكان عليهم ان يتبعوا سفينته طول النهار ثم يقتربوا منها عند غروب الشمس ويحيره التحية المعتادة في طاعة الجنود

ولقد كان الطريق المرسوم للرحلة هو جهة جنوب الغرب الى البرازيل ولكن ماجلان اتجه ناحية الجنوب على شاطىء امريكا الغربي . وكان من الطبيعي ان تقدم جوان كارتاجينا ربان السفينة « سان انطونيو » الى ماجلان سائلاً عن سبب تغيير طريق السير . وربما كان غرض ماجلان من ذلك ابتغاء الفرار من الغرب ان يجد ريحاً موافقة ثم يأمر طريق السير الى جنوب الغرب ولكن كان جوابه على اعتراض كارتاجينا « ليس لاحد ان يطلب مني الانصياع بشيء اليه ! »

ولقد كان من شأن ذلك الرد الحاسم ان غضب كارتاجينا لكرامته ولم يدن من السفينة الاولى عند الغروب لتحية القائد . وكان معنى ذلك عند بقية الربابنة انهُ قد لا يعترف بسلطة

الشاب البرتغالي الاعرج المطلقة . ولكن ماجلان لم يهتم بذلك . وفي اليوم التالي استدعى ربابنة السفن لاجتماع هام يعقد على سفينته وكان بينهم كارتاجينا الذي صمم على الاشتراك والمساهمة في نجاح الرحلة او خيبتها . وكان عزّ على ماجلان ان يخضع لمرؤوسٍ فردٌ عليه ردّاً جافّاً فما كان من هذا الاّ ان أعلن العصيان فبادر ماجلان وأصدر أمره الى مساعده بالقبض على الربان الثائر فلم يسعهُ الاّ تنفيذ الامر . ولقد كانت لسرعة التي اتبعها ماجلان في حسم تلك المسألة وتصميمه على رأيه تأثيرها الكبير في بقية الربابنة فلم يبس أحدهم بكلمة اعتراض . وعند ما وضعت القيود في يدكارتاجينا تقدّم أحدهم بخضوع وطلب من ماجلان الامتناع عن إهانة السجين لانهُ اسباني نبيل . ولم يرَ ماجلان من الحكمة ان يمضي في التسف الى نهايته فرضي بالافراج عنهُ بشرط ان يتعهد لويس دي مندوزا — الذي عهد اليه بمراقبة الاسير — ان يجعل كارتاجينا رهن طلبه . وعين ماجلان ابن عمه سكيتا مكان كارتاجينا

واستمرّ الاسطول الصغير يضرب في عرض البحر أياماً وأسابيع بدون أي حدث مهم حتى وصل الى خليج ريو دي جانيرو بعد احد عشر أسبوعاً . ولا بدّ ان ذلك الخليج وتلك الارض كانا عند البحارة منهوكي القوى بمنزلة جنات النعيم . فقد خرج الاهالي من أكواخهم وأخذوا يحيون الاغراب تعلو وجوههم الدهشة ولا يثير منظرهم الريب . وقد أشار بجافيتا الى ذلك في مذكراته الى وخص الاشياء التي ابتاعوها او قايضوا عليها ووصف كثرة الخضروات والفواكه قال :

« وكان الاهالي البسطاء يعطوننا لقاء كل جرس معدني صغير سلة كبيرة مملوءة بالبطاطس ». وأكثر من ذلك رخصاً كانت النساء في جمالهنّ الطبيعي الخلاّب أو كما كتب بجافيتا في براعة « النساء اللائي كان كل ما يعطي أجسادهنّ السمر الجميلة شعور طوال سود كالليل البهيم . . »

قضى ماجلان في تلك الجنان ثلاثة عشر يوماً ثم استأنف السير جنوباً على ساحل البرازيل وفي العاشر من يناير وصلت السفن الى رأس سانتا ماريا فشاهدوا وراءهُ سهلاً وفيه تلٌّ عالٍ سماهُ ماجلان مونتفيدي وكان الخليج الذي نزلوه مصب نهر الربو ده لابلاتا . ولكن ماجلان لم يكن يعلم ذلك فقضى أسبوعين مستقصياً علّهُ يكون منفذاً ينفذ منهُ الى بحار الشرق فخاب ظنهُ عندما تبين لهُ انهُ مصب نهر

اختفت أرض البرازيل المحبوبة واختفت معها أشجار النخيل الهائلة وفواكهها الريّانة . . ونساؤها الجميلات السمراوات . اختفى كل ذلك ولم يعد الرفاق يرون غير الماء الازرق الصافي والسماء الزرقاء المنبسطة والأفق اللانهائي — عادوا لا يرون إلاّ منظراً واحداً لا يتبدل ولا يتغير حتى تملكهم اليأس العميق . . الاّ الشاب الأعرج الذي كان يحدوه الامل ثم يخفت ثم يعاوده ثم يخفت وهكذا دواليك

ومضى الاسطول يضرب في عرض البحر ناحية الجنوب . وفي كل ساعة يزيد شقاء البحارة ونزعهم . فقد صارت الايام قصاراً والليالي طوالاً وتراكم الثلج على أشرعة المراكب وتجمد على حبالها وهبت الاعاصير فتحطمت ساريات ثلاث سفن ... ها قد مرَّ نصف عام على ابتداء الرحلة المشؤومة وليس هناك أمل في الوصول الى الهدف المطلوب

ابتدأ الحمى يدور بين البحارة . لقد أمضوا عقودهم لغرض الوصول الى جزائر الافاويه حيث التوابل والذهب . ولكن اي مصير يخبؤه لهم ذلك الاعرج الصامت المشؤوم ؟

وما زال أسطول الرعب يضرب في عرض البحر ، تتركه زوبعة فيناله أعصار ، تائهاً حائراً لا يدري اي طريق يسلك ، محارباً الامواج والزوابع والثلوج . . محارباً الفشل . . متحدياً الطبيعة . . لاجل الحياة الجزيرة التالية

وفي ٣١ مارس سنة ١٥٢٠ رأى ماجلان أرضاً ولكنها لم تكن الاَّ جزيرة مقفرة قاحلة . ولم يكن في استطاعة البحارة ان يسيّروا السفن فرسخاً آخر لشدة ما قاسوا وما نالهم من مشقة وتعب . فرأى ماجلان أن يمضي فصل الشتاء فيها . وحبب ذلك الى البحارة ما رأوه في مياه الجزيرة الساحلية من اسماك وفيرة . وسميت تلك الجزيرة سان جوليان

***

ان صبر الانسان له حد معلوم ولا بد ان يمل يوماً فتنفجر العواصف المكبوتة في صدور عمياء جاهلة مدمرة لا تعرف لها حداً من نظام او قانون او عرف . ولم يكن كل بحار (ماجلان) ولم يكن اسمهم شجاعة ماجلان وشبابه ومقدرته وشخصيته وعزمه . ولذلك ما لبث التذمر ان أعلن بعد أن كان يرى على قسمات الوجوه . وكان اكثر المتذمرين ربابنة السفن الاربع فأعلنوا تمردهم وكان كارتاجينا (الربان الذي عينهُ ماجلان) من استمالة ربابنة آخرين وثلاثين رجلاً مسلحين وهاجموا السفينة سان انطونيو واظلام يلفهم بردائه والرعد يخنق صوت نادتهم فقتلوا ضابطاً وعشرة من عنفه على ساريه التركب وسجنوا سكيتا ابن عم ماجلان معلنين حرب الحياة والموت

وأنظر الآن الى ما جرى به الشاب الاعرج

وصل خبر تمرد المخلصين برئاسة رأسهم الضابط الشجاع إسبينوزا الى السفينة المتمردة ومعهُ خطاب الى لويس مندوزا الذي عينهُ الثوار رئيساً عليهم

وتحاول أن تتصور موقف اولئك الابطال الستة وهم يقتربون بقاربهم الصغير من السفينة المسلحة في ايدي المتمردين . واذا كان اليأس يسلب الانسان عقله ويتركه وحشاً ضارياً في ثوب إنسان ، فان هؤلاء الذين كانوا على ظهر تلك السفينة كانوا في اشد حالات اليأس والتوحش فقد صارت حياتهم جحيماً لا يطاق

هو ذا القارب الصغير يقترب رويداً رويداً من مركب الرعب حتى وصل اليه والمتمردون ينظرون اليهم من ظهره دهشين ان لم يدر في خلدهم ان ستة رجال في قارب يجرؤون على مهاجمة سفينة كبيرة عليها ستون رجلاً. ولكن رجال ماجلان الشجعان لم يبدوا خوفاً ولا اضطراباً بل صعدوا الى ظهر السفينة يتقدمهم إسينوزا وتقدم من الربان الثائر مندوزا وسلمه خطاب ماجلان بأمره فيه بالحضور الى سفينته

كان الفخ بسيطاً ظاهراً — ذلك ما قاله الربان الثائر وما لبث فمه ان انفتح على نهفة مجلجلة حتى تقلص وانقلبت النهفة الى بحة وعواء فقد طعنه اسينوزا في رئتيه طعنة نجلاء لم يلبث بعدها ان سقط يتلوى في دمائه الثائرة

وكما أن ليس في الارض أشجع من الانسان ، فليس فيها أجبن منه ، فهاهم ستة رجال عزل يرمون بأنفسهم بين براثن ستين ثائراً . وها هم أولاء يرون رئيسهم جثة هامدة والدم يتدفق من حلقه والزبد يسيل من بين شدقيه . . فلم يبدوا حراكاً ولم يظهروا أية مقاومة . وانقلب القهد المتوحش الى هر أليف فرموا بسلاحهم أمام الابطال الستة . ووقف الربانان الثائران كارتاجينا وجاسبار كيسادا أمام الشاب الاعزل المرعب ليدفعوا ثمن ما قدمت أيديهم

ولم يرض ماجلان ان يعاقب جميع البحارة المتمردين فقد كانوا يبلغون خمس مجموع رجاله. وكان جاسبار كيسادا هو الذي قتل الضابط وعلقه على سارية المركب فحسم ماجلان ان يجعله عبرة لغيره وعقدت المحكمة لمحاكمة كيسادا وأتي بالشهود وترافع عنه محاميان من البحارة وسجل الكتبة ما دار في الجلسة وجلس ماجلان في كرسي القاضي واصدر حكمه الرهيب باعدام القاتل

وعرض أمر تنفيذ الحكم على خادم كيسادا وكانت له يد كبرى في الثورة ومني بالعفو عنه فقبل وبشر [illegible] طاح برأس رئيسه المتمرد

وفي اليوم التالي [illegible] ماجلان حكمه الرهيب الثاني على الثائر الآخر وزميل له . وكان الحكم القاضي بقضي بتركهما وحيدين في الجزيرة القاحلة مع تزويدهما بقليل من الطعام . وليترك تنفيذ الحكم الى ارادة الاله القوي القادر

وما يستحق الذكر من نص الحكم صدر ثانية في النهفة نفسها بعد خمس وسبعين عاماً عند ما ثار أحد الضباط من الرحالة المستكشف الانجليزي فرانسيس دريك فغير هذا الضابط بين الانتحار كجندي شجاع على ظهر السفينة وبين أن يقاسي ما قاساه الثائران من قبل . واختار الضابط الشجاع ان يزهق روحه بيده على ارض الجزيرة . وهكذا تخضبت تلك الارض البكر بدماء ثلاثة رجال من قبل [illegible] وغضب ماجلان عندذلك . وخيل اليه ان حادثة سان جوليان ليست الا مؤامرة ومكيدة . ولم يخب ظنه ، فعندما انتهى القضاء بزوابعه وأعاصيره أرسل ماجلان

السفينة سانتياجو أحسن السفن وأعزها لديه للاستكشاف في عرض البحر وكان ذلك آخر عهده بها . وتمكن بحارتها من الوصول سالمين الى ارض الجزيرة ورووا لرئيسهم قصة غرقها . ولم يتمالك ماجلان نفسه وتتثنى تذرفت عيناه الدموع

وفي ٢٤ اغسطس سنة ١٥٢٠ اصدر أمره بالاقلاع من سان جوليان المشؤومة . ولم يئس رغم ذلك ان يرسل نظرة حائرة الى من حكم عليهم أفظع حكم نطقه به قاض

تكون بذلك قد رويا للقارىء تاريخ اثني عشر شهراً من أعظم اعمال الانسان بطولة وشجاعة . سنة كاملة مرت منذ أن اقلعت السفن الخمس من سان لوكار وعليها رجال يحلمون بالثروة والغنى والوصول الى (جزائر الاقاويه) وعلى رأسهم شاب أعرج شجاع . سنة كاملة مرت على بطلنا ماجلان .. لم يكتشف شيئاً ولم يربح شيئاً .. بل خسر وخسر .. يحارب الطبيعة القاسية .. يحارب اليأس يحارب شيطان الضعف في نفسه . قالى متى ينتهي هذا الصراع البشري ..؟

ولو علم ماجلان وقتئذ انه اصبح قاب قوسين او أدنى من النهاية لقضي عليه من الفرح . فقد توالت عليه المحن متوالية متتابعة في غير رحمة او هوادة حتى كاد ييأس من الوصول الى نهاية الرحلة . ولكنه كان شاباً ذا أمل

وتشاء الاقدار أن تصيبه بضربة اخرى أشد قوة وقسوة . ففي يوم ٢١ اكتوبر رأى جزيرة اخرى قاحلة وارتأى أن يستريح بسفنه جوارها بضعة أيام . وأرسل السفينتين سان انطونيو وكونسبسيون لاستكشاف شاطىء الجزيرة على طوله . وهبت اعصار في المساء حتى كادت ان تحطم سفينة ماجلان نفسها بين الصخور . وكان نفس القضاء لابد حالاً بالسفينتين الاخريين . وبقي ماجلان ومن معه من البحارة على شاطىء الجزيرة منتظرين مترقبين بقلوب هالعة جازعة . وخيل اليه ان الاقدار تضحك منه وانها حكمت عليه نفس الحكم الذي اصدره على البحارين المتمردين . وبعد اربعة ايام من الانتظار الرهيب ظهرت السفينتان في عرض البحر تختالان فوق الماء تيهاً وزهواً . لم يصدق ماجلان عينيه ولكن الدوافع التي كانت تطلقها السفينتان باستمرار لم تترك لذلك سبيلاً الى قلبه . ولكن — تساءل ماجلان — لم تطلق السفينتان البارود الثمين هكذا بدون توقف ؟

كانت السفينتان العزيزتان تحملان أخباراً سارة لبطلنا اليائس . فقد هبت العاصفة المروعة عليهما وقطع كل أمل . فالريح العاصفة تدوي من الخلف وتدفعهما ناحية الصخور الهائلة أمامهما . وعلى حين فجأة ، وكأنما ذلك عمل ساحر ، رأى ربان سان انطونيو ممراً صغيراً بين الصخور فاحتمى فيه ولحقت السفينة الاخرى . وكان في ذلك النجاة . ومع انهما لم يجدا المخرج الغربي لهذا الممر الا ان البحار كانوا على ثقة بأنه ضيق

وتقدمت السفن الاربع وعلى ظهر الاولى ماجلان باضطراب ورهبة من الممر السحري الذي كان على أكبر جانب من الخطورة فان أقل خطإ كان يودي بالسفن ويحطمها على الصخور ولم يمس بطنا أن يطلق على ذلك المرا اسماً فسماه «تودوس لوس سانتوس» وهو يعرف الآن بمضيق ماجلان . وظلت السفن تتقدم ببطء في ذلك الطريق الضيق ولم يعلم أحد الى أين يفضي بهم وبعد شهر من الزمان من التعب والمشقة والحذر في اجتياز مضيق يعد اجتيازه من معجزات الملاحة على من عرفهُ فكتب بك على مكتشفه، خرجت السفن سليمة من طرفه الآخر الى عرض المحيط الواسع فبكى الشاب الاعرج وتساقطت دموع الفرح والتأثر غزيرة على ثغر ذقنه الطويل الكث

لم يكن فرح ماجلان لانهُ وصل الى غرضه بل لانهُ عرف الطريق الذي يسلكه بعد ذلك. وقد كان طريق الرجوع الى الوطن من ناحية المحيط سهلاً ميسوراً . هنا وقف ماجلان يتنازعهُ عاملان ، هل يترك المهمة الكبيرة ويرجع الى الوطن المحبوب ، او يمضي في رحلته الى النهاية ؟

استدعى ماجلان ربابنة السفن الاخرى لاستطلاع رأيهم في ما لديهم من الطعام المخزون . ثم بسط لهم حقيقة الامر في أسلوبهِ الساحر وحماسته المتوقدة . لقد حقق الجانب الاول من عهدهم فهل يمضون الى النهاية ؟ ولكن التخيل شيء والحقيقة شيء آخر . ولم يكن من المعقول ان يتوقع ماجلان من زملائهِ موافقته على المضي في تلك الرحلة المرعبة . وفعلاً عارض أحد الربابنة رئيسهم وكان أكثرهم تشبثاً برأيهِ استانو جوميز ربان السفينة سان انطونيو الجديد . وكانت هناك حقيقة مرَّة يعلمها ماجلان وهي نقص المؤن نقصاً ينذر بالخطر

وكان رأي جوميز انهُ اذا أتتهم الاقدار فانهم سيموتون جوعاً ولا ريب . وهو رأي تؤيدهُ الوقائع . الاَّ ان ماجلان كان أكثر اهتماماً بعمل عظيم خالد منهُ بحياته الفانية ولذلك عزم على المسير وأصدر الامر الى ربابنة السفن بان يخفوا عن البحارة قلة المؤن

وأرسلت سفينة بقيادة جوميز بعد ذلك لاستكشاف فرع من فروع المضيق ومضى الوقت المعيَّن لذهابها وايابها ولكنها لم تعد ، فقضى ماجلان أياماً في البحث عنها على غير جدوى واخيراً استنتج انها رجعت الى أسبانيا تاركة المنجم أثوالا مرهبين من التقدم والكرس فقال ماجلان ان السفينة عادت الى أسبانيا

هنا واجه ماجلان موقفاً حرجاً وتعين عليهِ ان يصدر قراراً خطيراً ذلك انهُ كان يعلم ان السفينة الناكصة ، كانت تحتوي على معظم مواد الغذاء ، فالسير في الرحلة كان بمنزلة الانتحار . ولكن . . . .

وفي ٢٨ نوفمبر سنة ١٥٢٠ رفعت الثلاث سفن الباقية أشرعتها ضاربة في عرض المحيط المجهول ناحية الغرب

« . . وهناك في مكان بعيد وراء الأفق لا بد ان تقع جزائر الاقاويه . . جزائر الذهب والثروة . . » كذلك قال ماجلان في نفسه . « ولا بد أن أجد بعدها بلاد التوابل الخصبة ثم هندوستان . . وبعدئذ . . وبعدئذ . . هناك في أقصى الأفق لا بد أن أصل ثانية الى أسبانيا العزيزة . . . . »

واختلج بدن بطلنا الكبير من التأثر وسقطت دمعة كبيرة على وجهه الاسمر الطويل الشاحب وأطلقت السفن الثلاث مدافعها تحية للمحيط الذي أخذت تخترق عبابه وهي لا تعلم مصيرها فيه

***

ويعتبر أول اجتياز لهذا المحيط المجهول من أبهر أعمال الملاحة التي سجلها التاريخ للانسان ولقد قيل عن رحلة كولومبوس أنها عمل فذ من أعمال البطولة مع ان سفنه كانت جديدة متينة ولم تزد الرحلة ذهاباً على ٣٣ يوماً . وكانت سفنه وافية الزاد في وسعه الرجوع الى الوطن اذا ثبت عجزه عن الوصول الى غايته

وها هو ذا الشاب الاعرج وها هي ذي رحلته الحمقاء . ها هو ذا ماجلان يتجه باختياره الى فضاء لا يسلم له آخر مع بحارة يائسين هالكين يحرمهم الحرمان ويهددهم الجوع الذي لا يرحم . ها هو ذا ماجلان يرمي بنفسه في يد القدر وسط المحيط الهائل في ثلاث سفن هرمة هالكة تكسرت اشرعتها ووهنت حبالها تلك هي رحلة ماجلان . ولما استكملت بعد . . .

وسارت السفن تضرب في عرض المحيط الهائل اللانهائي . ومرت اربعون يوماً ثم خمسون ثم ستون ثم مائة . . ولا أرض ولا أمل في بلوغ أرض . ولم يكن ماجلان قد قطع أكثر من ثلث ذلك المحيط الهائل الذي سماه « الباسيفيكي » أي الهادىء لانه كان هادئاً حقاً

وكان المحيط حقيقة هادئاً ولكنه كان مرعباً . فالماء الازرق لا يتغير في لونه وانقضاء الشمس لانهاية له . والسماء الصافية لا تتسحب بالغيوم في وسطها ترسل شعاعها من نار . وتحلت وجوه الرفاق وغارت عيونهم في محاجرها جوعاً وتيبست شفاههم واصبحت السفن الثلاث تحمل فوق ظهورها أشباحاً متحركة وأصبح كل شيء منها مثلاً حياً للبؤس والفزع والجوع

والطعام . . كان لا يزال موجوداً ولكن . . في نظام ! . . فقد نضب الماء العذب ولم يبق منه الا قليل آسن أشبه بماء المستنقعات وانتن . والخبز تعفن وتحلل وصارت ترعى فيه الديدان والسوس . . الفئران اصبحت من الندرة بحيث اختفت وغابت تطارد في كل الجوانب . وأكل الرجال نشارة الخشب وجلود احذيتهم بعد ان سكنوا صرخات الجوع القاسية في معدهم . ومات من البحارة الباقين مع ماجلان عشرة وأشفق الرب أخيراً على ابنائه وشملهم برحمته ففي السادس من مارس سنة ١٥٢١ رأى ماجلان جزائر اللصوص فرسا واقترب منها في حذر وأحاطت به قوارب

الاهلين ملوحين بسعف النخيل ولكن الاسبانيين الهالكين لم يفهموا تلك التحية بل كان الطعام كل همهم . فنزل اربعون منهم مسلحين وحرقوا أكواخ الاهلين الآمنين وسرقوا ونهبوا كل ما صادفهم في طريقهم . واستراح البحارة ثلاثة أيام أكلوا فيها فواكه وأسماكاً وشربوا ماء عذباً. وفي صباح اليوم الرابع نشرت السفن أشرعتها وعاودت الرحلة اللانهائية

وصادفت السفن في طريقها عدة جزر أخرى متقاربة سماها ماجلان جزر الفيلبين وهي الجزائر التي دخلت ضمن أملاك الامبراطور شارلس وقد بقيت في حوزة أسبانيا مدة أطول من جميع البقاع التي كشفها باسم اسبانيا كل من كولومبوس وكورتيز وبيزارو

وفي ٢٨ مارس وصل ماجلان الى جزيرة مازافا حيث رحب به ملكها كالامبو واستضافه عدة أيام وزوده بمؤن كثيرة وأخبره ان أقرب الجزر اليه هي جزيرة زيبو فأبحرت السفن متجهة اليها

هنا دهش ماجلان عند ما رأى عبد « انريك » يفهم معظم ما يقال له سكان مازافا فعلم انه انتهى من تطويق الارض ، وان انريك أصبح في منطقة كان ماجلان قد بلغها اولاً في رحلته الاولى شرقاً . وبعد مسيرة نصف يوم وصل ماجلان الى جزيرة زيبو . وكان أول ما فعله ان أطلق جميع مدافع المراكب دفعة واحدة فأرعب الاهالي وأظهر ملكهم الذي دعاه ورجاله الى وليمة كبيرة فيها استعداده لتبادل المتاجر معه . ولقد توطدت الصداقة بين ماجلان والراجا حتى ان الاخير أعرب عن رغبته في اعتناق الدين المسيحي . وفي حفل كبير وطئ الجمع الراجا ورؤساء القبائل وقدموا الطاعة الى ماجلان باسم أسبانيا ودخلوا والاهلون في دين الله أفواجاً

وخيل الى ماجلان ان النجوم قد انحازت الى صفه وان السعد أصبح رفيقه وان النجاح اصبح اليه قاب قوسين او أدنى

وكانت بالقرب من زيبو جزيرة أخرى اسمها ماكاتان كان يذهب اليها البحارة في قوارب ويطاردون النساء الوطنيات ويحرقون أكواخهم أثناء الصدام . ورأى ماجلان ضرورة اظهار بطشه لاهالي تلك الجزيرة فصمم على ان يلقنهم درساً قاسياً . ولقد أظهر ملك زيبو استعداده لارسال الف محارب مع ماجلان ولكن هذا رفض وأخذ معه ستين بحاراً مزودين بالبنادق

كان موقع جزيرة ماكاتان محصناً بالصخور من حواليها ولذلك كان اقتراب القوارب منها لا يخلو من خطر . وركب ماجلان الزوارق مع رجاله وأخذ يقترب من الجزيرة واستعد الاهلون للقتال . وعلى رأسهم ملكهم مزودين بالسهام المسمومة والنبال . ولندع بيجافيتا يقد كان من ضمن المحاربين يصف لنا المعركة :

« عندما رأى الاهالي المتوحشون ان بحران البنادق في الزوارق طالت لا تحمينا هجموا علينا هجمة رجل واحد بقسيهم ونبالهم حتى ساد الاضطراب بين صفوفنا وانقلب هجومنا الى دفاع . ثم

أصيب القبطان بقبل مسموم في ساقه افقدته عن الحركة وهرب بقية البحارة شذر مذر ولم يبق بجانبه الا خمسة رجال . ولقد ازداد توحش المحاربين عندما رأوا القبطان طريح الارض تحولوا بجموعهم ناحيته قصد التنكيل به وتحقق ماجلان من الخطر المحدق به فتناسى آلامه وجروحه وقام يعدو صوب الشاطىء والدم يزف من ساقه والسهام تتساقط حواليه حتى وصل الى الشاطىء سالماً . ولكن لم تلبث نبلة ان اخترقت فخذه فوقع في الماء في وجهه وهجم عليه عشرات منهم بحرابهم وسهامهم وظلوا يطعنونه حتى تبلهل جسمه وزهقت روحه . . »

وهكذا مات البطل العظيم افظع ميتة . مات ولم يحقق امله الذي وقد وعاش وتعرب وقاسى لأجله . مات قبل ان يصل الى نهاية الرحلة وقد صار منها على قاب قوسين . مات ولم يرجع ثانية الى بلاده المحبوبة ولم ير الفخار والعزة التي كانت في انتظاره . . بل ان رجاله عجزوا عن استرداد جثة رائدهم وزعيمهم ! . .

***

لم يبق من البحارة وقتئذ الا ١١٥ بعد ان كانوا في بدء الرحلة ٢٦٥ فاضطروا ان يشعلوا النار في أحد المراكب ويغرقوه لقلة عددهم . واخذ سباستيان دل كانو مكان ماجلان ولكن هيهات ان يملأه . وسارت السفينتان الباقيتان ترينيداد وفكتوريا جنباً الى جنب تأهبين وسط المحيط الهادىء مدة ستة اشهر . وما زال القدر الغاشم يعبث بهما فما لبثت ان قامت عاصفة هوجاء ففرقت ترينيداد وعليها ٥١ رجلاً

واخيراً وصلت السفينة الباقية فكتوريا الى جزائر ملقة ، جزائر الافاويه والبرونة بعد اسبوعين حيث اكرمهم الاهلون كثيراً ولبثوا فيها بضعة اسابيع وهم لا يكادون يصدقون ان تلك الرحلة الرهيبة قد انتهى نصفها . وحملوا السفينة كل ما تستطيع حمله من توابل وبهارات وابتدأ الشق الثاني من الرحلة — شق الطريق الى الوطن

***

ولقد كانت رحلة السفينة فكتوريا حول النصف الجنوبي من الكرة الارضية — بعد أن اتمت الرحلة حول نصفها الشمالي في ثلاثين شهراً — من اعظم اعمال الملاحة البحرية التي قام بها الانسان في كل العصور

وأخذت السفينة فكتوريا تمضي بحملها الثمين فوق مياه المحيط في طريقها الى الوطن الغالي وأعيدت المأساة مرة اخرى . فقد فسدت المؤن وتلفت لشدة الحر ووقع البحارة مرة اخرى فريسة الجوع القاتل . ولم يكن في وسعهم ان يأكلوا الفلفل الاحمر بدل الطعام او جوز الطيب بدل الخبز . واخذت حيتان البحر تتبع السفينة متلقفة ما يرمى من الجثث في البحر

وفي ٩ يوليو سنة ١٥٢٢ وصلت السفينة الثالثة الى سنتياجو في جزائر الرأس الاخضر (كاب فرد) التي كانت تابعة للبورتغال . وكان ذلك بغتة جديداً لهم فأخذوا كفايتهم من المؤن وواصلوا الرحلة

ولم يكن قد بقي من السجين رجلاً الذين اشتروا من جزائر الفلبين الا ثمر يعد على اصابع اليدين فكان عليهم ان يبذلوا جهود الجبابرة لتسيير المركب بحملها الهائل

وفي ٤ سبتمبر سنة ١٥٢٢ وصلت السفينة الى رأس سان فنسنت في أقصى الغرب من البرتغال وبعد يومين وصلوا الى سان لوكار حيث بدأوا الرحلة قبل ثلاث سنوات وخلت ورما الرجال بأنفسهم على الشاطئ، يقبلون أديم الارض ويغفرون بتراب الوطن وجوههم

وفي صباح اليوم التالي أبحرت السفينة فكتوريا نقطة سيدة متجهة الى أشبيلية . وعند وصولهم اليها صاح الربان ان « أطلقوا المدافع جميعاً ! »

وكما أطلقوها مودعين الوطن قبل ثلاث سنوات ، وكما اطلقوها متدثر ماجلان محيين المحيط الهادي ،وكما أطلقوها مرة ثالثة ورابعة محيين جزائر الفلبين ، أطلقوها مرة أخيرة محيين الوطن العزيز.ولم يكن لصوت البارود في آخر مرة شبيه في المرات السابقة ولم يكن يعادله صوت الموسيقى الشجية والرقاق يخفون بين دويها :

« لقد عدنا . . لقد عملنا ما لم يعمله احدٌ من قبل . . لقد دورنا حول العالم »

واجتمعت ألوف من الناس ليشاهدوا الاعجوبة وليروا السفينة المباركة وشعثها الهائل وبحارتها الذين صيرتهم أهوال الثلاث السنوات شيوخاً هرمين

وكان اول ما عمل اولئك الابطال عند مانزلوا أرض الوطن في أشبيليه ان ساروا معًا واحداً في خرقهم البالية الى بيت الله حيث ركعوا خاشعين شاكرين مترحمين على رئيسهم البطل ورفاقهم الشجعان

وبلغت اخبار تلك الرحلة جميع انحاء اوربا ولم يدهش العالم (المعروف وقتئذ) اربعجب بحدث بعد رحلة اكثر من دهشته لتلك الرحلة . اعجابه بأبطالها . . . - اميا الاكتشاف الحق انه في ذلك الوقت وصدق الجميع ان الارض كروية

***

ولن ينسى التاريخ ماجلان اول بحار اخترق ممر ماجلان . لن ينسى التاريخ ذلك الشاب الاعرج الذي برهن للعالم الى اي مدى يصل بالانسان عزمه . ماجلان الذي اصبح المثل الاعلى للشجاعة الخارقة والعزم الراسخ. ماجلان الذي مات قبل ان يرى ثمار عمله . ويرى رأسه مكللة بأكاليل الغار

حديقة المقتطف

مختارات

من الشعر الرائع

الشاعر الفرنسي بودلير Baudelaire

[نقلها : خليل هنداوي]

بطرس وما صنع

الشاعر الفرنسي : جان ايكار

[نقلها : احمد أبو الخير مشي]

الى الابتسام الهاجر

نموذج من الشعر الهندي

[السيد بير الدين أحمد الحسيني الهندي]

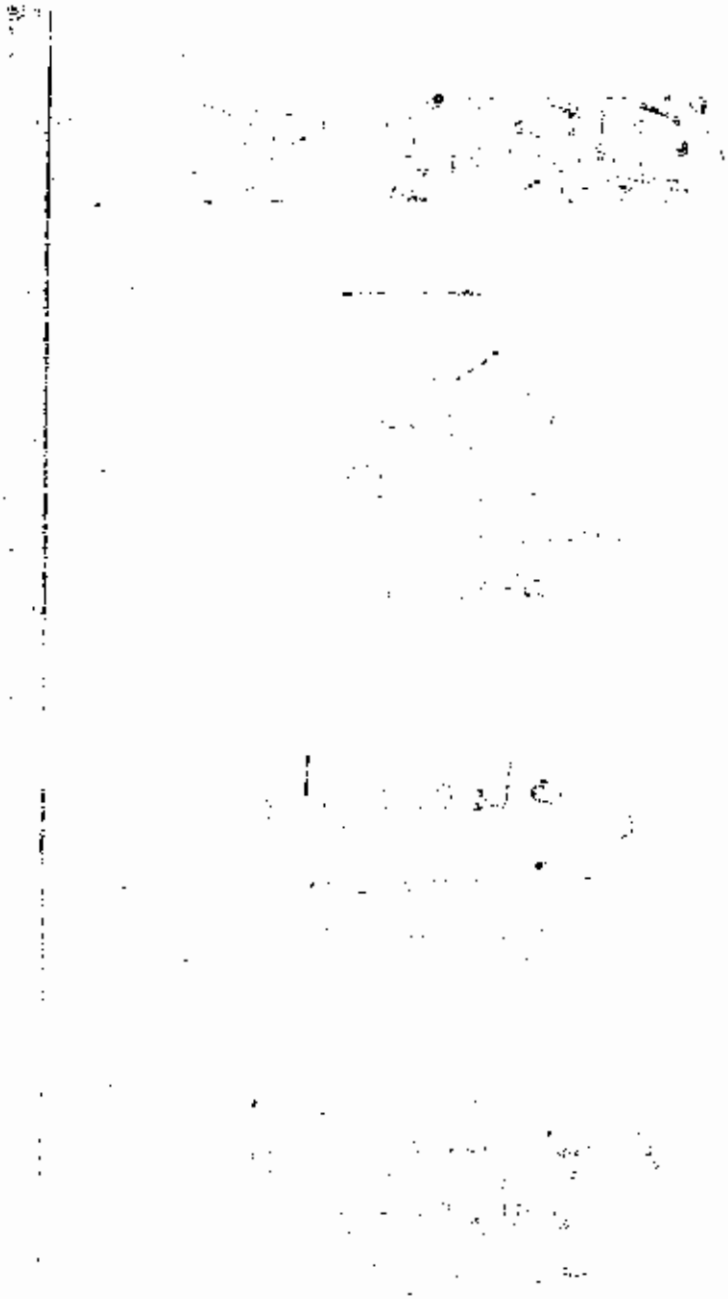

مختارات

من الشعر الرائع

للشاعر الفرنسي بودلير Baudelaire

١ — الجمال

أنا جميلة أيها البائدون كأنني حلمٌ حجري .
وصدري ، حيث ينثني كل واحد منهُ خائباً ،
أعاصر ليلهم الشعراء ،
حبًّا أزليًّا صامتاً صمت المادة الابدية !

اني أسمو في السماء كتمثال مبهم ، لا يُفهم .
أجمع قلباً بارداً الى حلة الطيور البيض .
أكره الحركة التي تغير الملامح وتبدل الخطوط[1]
ولن أبكي ولن أضحك أبداً .

والشعراء — ازاء اوضاعي السامية —
التي كأني اقتبستها من أكثر التماثيل زهواً وكبراً ،
هؤلاء الشعراء سيتفقون ايامهم في دروس صارمة [2]

لان لديَّ — كي يجتذب هوس هؤلاء العشاق الودعاء —
لدي مرايا صافية ، تجعل كل شيء ينعكس فيها وهو أنقى جمالاً .
هذه مرايا عينيَّ ...
عينيَّ الواسعتين للسمات الازلية .

---

(١) رمز لعدم الاحساس في القلب البارد ، والصفاء في لون الطيور . وهو يطلب ازاحة كل ما يتعلق بالحياة ، لأن الجمال — عنده — أسمى فوق الحياة
(٢) لان عشاق الجمال الحقيقيين لا يستطيعون انفصالا عن دروس اعماقه

٢ — الشرارة للجمال

هل انت تهوي من السماء العميقة او تخرج من الهاوية ؟
ايها الجمال !
ان نظرتك الجحيمية والالهية تنشر — بلا نظام — الجريمة والاحسان .
انك لتشبه الخمر فيها اثم كثير ومنافع للناس .

أتخرج انت من الهوّة السوداء او تهبط من بين النجوم ؟
والقدر المفتون يتبع هُدّابك ثابتاً.
وأنت تفرس — غرساً أعمى — الافراح والنكبات .
تسيطر على كل شيء ، ولا تسأل عن شيء .

وتمشي — ايها الجمال — على اموات تسخر منهم .
وليس الهول بأقل فتنة وحسناً من حليك وزخرفك والقتل — بين نحفك القيمة —
يرقص بهوىً على صدرك المتكبر !

ما همي — اذا كنت منبلاً من السماء او الجحيم ! —
أيها الجمال ، أيها المسخ العملاق الباعث على الهول ، السليم القلب
ما همي اذا كانت عينك وابتسامتك وقدمك تفتح لي باباً من — لانهاية —
وحبها وما عرفتها ابداً

ما همي — ان كنت رسول شيطان او الله ؟ املاكاً ام ساحرة !
ما همي — اذا كنت يا ذا العينين الخمليتين ،
أيها الايقاع ، أيها البرق المنثور ، أيها الشعاع المسحور .
يا سلطاني الوحيد

ما همي ما دمت تجعل في ناظري هذا الوجود أقل قبحاً ،
وهذه اللحظات اقل ثقلاً على نفسي

٣ — سمو

فوق القدران والوديان والجبال
والغابات والغيوم والبحار . . .
وأقصى من الشمس ، وأقصى من الاثير .
وأبعد من تخوم العوالم المكوكبة . . . .

تحركين يا روحي برشاقة
وتغذين — بنشوة — الى الفضاء العميق ، ولذة هادئة نشيطة كسباح ماهر يتغنى في الماء

ألا ارتقي بعيداً عن هذه الاجواء الموبوءة
وتطهري في الجو الاسمى .
واوغلي — كشراب صافي السعي —
النار اللامعة الصافية ، التي تملأ الآفاق الساطعة .

وراء العجز والهموم الكثيفة
التي تثقل المادة البخارية بأثقالها .
سعيد ذلك الذي يقدر — بجناح قوي —
أن يغتدي الى المروج الزاهية النقية .

ذلك الذي تحلق أفكاره كالقبرات
يصعدن بحرية في الفجر نحو السماوات .
ذلك الذي يشرف على الحياة ،
ويدرك — دون جهد — لغة الازهار والاشياء الخرساء .

* * *

٤ — رسالات

الضيعة سعيد يضم دفاتر حياة
يخرج منها في بعض الاحيان كلمات مبهمة .
هنا بر الانسان بغايات من الرموز التي تنظر اليه نظرات أنيسة .

الطيوب والالوان والالحان ٥
تتجاوب كالاصداء الطوية التي تمازج بيداً
في وحدة عميقة مظلمة واسعة كالليل وكالضياء .

هنالك طيوب ندية كابدان الاطفال الغضة .
عذبة كالمزامير ، خضراء كالمروج .
وطيوب فاسدة غنية قوية !

تبيح اسرار الاشياء اللانهائية .
كالند والمسك والبخور واللبان ،
التي تغني باهاجة الروح والحواس .

* * *

٥ — الغريب

— لمن حبك الاكبر ايها الرجل البهم ؟
ألأبيك ام أمك ، ألأختك ام أخيك ؟
— لا أب لي ولا أم ولا أخ ولا أخت !
ألأصدقائك ؟
انك تلهج بكلمة لا يزال معناها عندي مجهولاً حتى الآن .
ألوطنك ؟
اني اجهل على أية قة يقوم هذا الوطن ؟
— ألجمال ؟
— سأحبهُ بارادتي كالاهة خالدة !
— ألذهب ؟
— أبغضهُ كما تبغض الاله .
— ما ذا تحب اذاً أيها الغريب ؟
— أحب الغيوم . . . الغيوم التي تسمى ! . . . هنالك . . .
هنالك . . . الغيوم المذهلة .

[نقلها : خليل هنداوي]

بطرس وما صنع

التربية والثقافة في بلاد هؤلاء الفرنسيين الذين ناطحوا السحاب علماً وحضارة أنما تبدأ مع الرضاعة ، ويتكفل بها كل من أعدته وظيفته لذلك من اب وأم ومعلمين وكتّاب ، كأن بينهم على ذلك عهداً وإلاّ ، ليس أحد منهم ينفل عن إداء حصته الواجبة ، وقسطه المنوط بذلك . ولتجدنّ الناشيء يحاط بهذه التربية وهذه الثقافة، طفلاً ويافعاً من كل جانب ، وفي كل موضع وجهت فيه وجهت . فهي في البيت ، وهي في المدرسة ، وهي في الحياة العامة ، وهي في الكتب والمجلات والصحف

أما الصحف والمجلات فقد أخرجت لهم صحف ومجلات خاصة بهم موقوفة عليهم ، تمقفهم بالحكاية والقصة والنادرة ، وتفكههم بألوان من النقش والتصاوير ، حتى أن بعض الصحف الكبيرة مثل « الماتان » في فرنسا تفرد جانباً من صفحاتها أياماً من الاسبوع، تتحفهم بالفكاهات ممثلة بتصاوير مضحكة على أشكال الحيوان والطير

أما الكتب ، فجميع كتب التعليم والدراسة قد استفصت ذلك بشكل عجيب ، وأتت منهُ بكل فن غريب . وتجد الشعراء ينظمون مقطوعاتهم وقصائدهم في كثير من مناحي التهذيب والتقويم مما ينفث في نفوس النشء . وأعضاء الاسرة كل معاني القوة وغُرَّ الاخلاق، بل ان منهم من عُرف بضرب من الشعر والادب هو شعر وأدب الطفولة ، من ذلك الشاعر المشهور جان إيكار (Jean Aicard) ، فقد خصّ جانباً من أدبه البارع الفائق ، بالاطفال . وبجانب ما كتب وألف ، دبج للاطفال ما دبج ؛ ومثله فرنسوا فابيه (François Fabié) وأوجين مانويل Eugène Manuel وأشهرهم في ذلك جان ايكار فله كتاب الاولاد (Le livre des petits) وأغنية الطفل (La chanson de l'enfant) . كل أولئك جمع منثورهم ومنظومهم فأوعى ، من كل ما يثقف ويهذّب ويطبع نفوس الاحداث على الهمة والاقدام والتضحية ومحبة الوالدين والوطن ، والتولع بالدرس والعلم ، وما الى ذلك من سائر أخلاق الرجولة التي بها نجاح الفرد في الأمة ، والامة في سائر من قطر ربك من خلقه

ومجلة المقتطف الغراء وهي أم مجلات الشرق أجمع ، ومكانها ما تعلم من نشر العرفان والآداب وضروب الثقافة ، ومحاسن الاعراق ، كما تراها تحفل بنشر كل ما ينهض بالامة من ناحية تقويم الاسرة ، وتهذيب الطفولة وتثقيفها ، جديرة بأن

تمنح لنا شيئاً من [illegible] نظمه [illegible] من نظم الشاعر
جان ايكار، فنها [illegible] ومن جهة أخرى
قطعة من الخلق الكريم الذي نحب، ونحب بجلة المقتطف الزهراء، ان يتحلى
به أبناؤنا وفلذات أكبادنا رجال المستقبل لهذا الوطن العزيز الكريم

والى قراء المقتطف الناطقين بالضاد هذه القصيدة البديعة

— بطرس وما صنع —

هذا ما صنع بطرس اذ كان حتى الظهر [illegible]

قال لي، كان ابي [illegible]

[illegible] عنا مراراً [illegible]

(انما اكرر عليك ... قال لي بطرس)

.....رأيت امي في ليالي الشتاء غالباً

تبكي، مطبقة الجفنين، تمست الربح بأذن مرهفة

— فقلت لها: « [illegible] يا أماه قد اسبلت عينك ؟

— فقالت: « أواه! يؤلمني، الله يحفظكما ويرعاكما !

ذلك لاكون احس نظراً في باطني. قال: وما ترين في باطنك ؟

— قالت: سفينة ماثلة تتقاذفها امواج صاخبة؛

تحمل اباك في وجه ريح عاصفة،

حينئذٍ أدنت مني رأسه الثقيل

اما انا فقلت لها في اذنها هامساً:

« اريد ان اراه مثلك، ولن تجديني باكياً

* * *

وعاد إبي، وانرحنا رواحنا !

نسيت الدار ما كانت من الأمر البسيط

ولكني كنت لا أفتأ أتمثل ليالي الشتاء،

اذ الريح تذكرني بالسفن يتخطفها البحار

وكان أبي اذا هم بالخروج ولو ساعة،

يقول أسيفاً: « ما إن بنرحوم يبكي ! »

حينئذٍ كانت أمي بين ذراعيها تضمني :
وأبي أحياناً من تأثر لا يخرج .

* * *

فذات ليلة وكنت أبدو في إغفاءة الكرى
كانت أمي وأبي ، بعد العشاء خلا الحديث لها
فقال ابي : « غداً السفينة تقلع ،
« بعيدٌ بعيد ولكنها في بعض الثغور تنزل ،
« وهناك اكتب اليك فاهدإي بالاً وترقبي .
« اما بطرسُ فطيب ، ولكنهُ شديد العنف وقتهُ بالغه ،
اني لا احب هذي الدموع ، وذا العويل ، وذا الحزن الشديد .
ان اولادنا الا حين لا بد تكون نفوسهم أشد صلابة من الحديد !
يشق عليَّ ان أغادر غلاماً في سنه
دون ان أقسّيه ، لئلا تخذلهُ شجاعتهُ
اني أريد أراهُ رجلاً لدى عودتي !
لو يعلم اني الغداة وجه النهار أسافر ،
لشد ما يحزن ! أروم الشخوص وهو في رقاده غارق . »

* * *

بمثل ذلك تكلم أبي ، وكنت أرهف مسمعي .
لا أنكر انهُ ذميم مني تسمّعي ،
ولكن ما تعذلهُ من ذا بعض السفر يكسبني
ذلك إني قلت لنفسي : « كم ذا نفسي قوية يا بطرس ! »
وفي الغداة حين فتح الباب أبي ،
مدلف على اطراف قدميه الهوينى ، الهوينى ،
ألفاني لدى عرض الباب راقداً مستلقياً ،
فوق طنفسة السكب ، كلانا جنباً الى جنب ،
فأفقت ، وأفقت أمي ، وأنا أنفض عني النوم متأخراً ،
هاءنذا لا أبكي ! أني رجل ، فانظر يا أبي ! . . . »
فكان هو أبي ، هذه المرة ايضاً باكياً .

(تتبع) احمد أبو الخير سنبي

من الشعر الهندي

الى الابتسام الهاجر

[نموذج من الشعر الهندي]

ان عالم الحب عالم مستقل ذو عرف واصطلاح ورموز خاصة لا يعرفها الا من تأتى الحب من صميمه . فالتكرار في عبرات الحب أو ما يرمز اليه اكثر لذة واستحسانا فيه من الجدة والطرافة في غيره

بالعربي !

طاطأ قلبي رأسه[1] العزيز لسلطان جمالك
وخاض مخاطراً لجج أشعتك اللامعة
فولد به في عالم لم يك يعرفهُ
وتقمص به حياة لم يدرك شؤونها
فكنفته كنف الطير فرخه
واسبغت عليه حنانك اسباغ الأم حنانها على الطفل
فكنت تغذين شعوره الحديث بتلألؤ جمالك حيناً
وتداعبينهُ وتسليتهُ في كآبة انفراده بالتصويت والتصفير طوراً
فكان يتلألى عليك ويتفتح
ويجد في عطفك برداً وسلاماً من مفاجأة الهوى المضرمة
وفي حنانك بهجة الحياة والسعادة
فكنت كالمغناطيس المصوَّب اليه
ينجذب وينسحب اليك من حيثما حلَّ وأينما رحل
نعم ! من حيثما حلَّ وأينما رحل !

---

(١) طأطأ رأسه لفلان اي خضع له

فان الحب قد يعود بنُجح محبوبه أو لا يعود
ولكن سهم المحبوب متى ابتغى الحبَّ لا يخطىء

***

طأطأ عطفك بِنان[1] قلبي
ليُحضر في مرج نورك الزاهي
وليلتم في حديقة جمالك الباهر
فغداً يرتع به منطلقاً في جنةٍ دانية
يشع فيها ضوؤك تطوفاً دانية
لا ترى فيها شمس ولا زمهرير
تسقى فيها كؤوس روائك السلسبيل
فأي نعيم أعظم من الذي أتى على غير انتظار
ما دامت الدرَّة اليتيمة لا تبحث بل تُبحث
وأي سعادة أكبر للقلب من هاته السعادة
ما دمتِ مسعفة عليه ما يتمناه
فان أسعد الحياة للسمك ليس الاَّ في الماء
وأطرب الانغام لديه وأعذبها ان هي الاَّ طيطبة الامواج او خرير المياه

***

طأطأتِ ستر القرابة[2] لقلبي عن وجهك الصبيح
ورنوتِ اليه بعينيك النجلاوين الساحرتين
فأتلك به من أسر العقل
والطلق من كَبل التفكير
يخوض غمار الشعور طليقاً
ويجوب آفاق السحر حرًّا
يتنعم بحرية لم تخطر بباله
لا في أسر العقل ولا في كَبل التفكير

(١) طأطأ يده بالبنان اي ارسلها به للاخضر (٢) طأطأت المرأة سترها اي حطته

نعم ! « بحرية » ولدها الحب ورباها الجمال
فهي منبعة الدرك للعقل ووعرة المتسلق للفكر
هي مزيج حلاوة الجمال ومرارة الحب
ورحيق الضدين المجتمعين المرتقبين
ليت أهل الحكمة والمنطق كانوا عشاقاً وشعراء !
ليتهم جابوا فلوات الجمال ، وخاضوا بحار الشعور ، وتسوَّروا شرفات الحب
فعرفوا تفاهة قوانينهم العقلية وخسة مبادئهم المنطقية
ان في الحب يتحد الضدان ويندمج المتباينان
إنهُ واحد واثنان في آن واحد
إن في قطبيه يجتمع الفناء والبقاء
ففي أحد طرفيه تميز شخصيتكَ فتقول : « ها أنا ذا »
وفي آخرها تعدم شخصيتُكَ فتقول : « لا أنا إلاَّ انتِ »
إن الحب ملتقى الحضارة والمدنية
فالحب يسلم نفسهُ كأبي الزند [1] للحب
ليتسلما واري الزند [2] في الحب
نعم ! الحب عالم ، سعب الارتياد للعقل وأبيُّ القياد للفكر
لان مدى العقل معرفة الصفات
وأما مدى الحب فالاتصاف بالذات

***

طأطأتِ الركض في نزاه جمالك [3] لي
فجستِ به في القلب الأبي
وحررتِ العواطف من أسر الرقود
وخلقتِ للحياة قيماً جديدة لم تجس في الضمير
فعلمتُ عالم أعلم وشعرتُ بما أشعر

(١) أي خاسراً (٢) اي ناجحاً رابحاً (٣) طأطأ الركض في نزاه اي أسرع اتقاده وبالغ فيه

إن مصدر الحب بين القرينين الصلة والدم
ومنبع الحب بين الجنسين العاطفة والشعور
يستظل الاول بالماضي
ويورّف الثانيَ الحال
هو كالنار في الزند
إذا قدحت أحرقت ما حولها من التالد والطارف

كنتُ بالأمس قاعَ القلب لغيرك
واليوم أنا موصد القلب لغيرك
وبالامس كنت بريئاً منك لهم
واليوم أنا بريء منهم لك
بالامس رتعت في براءة الصغر
واليوم أسرح في براءة الحب

***

طأطأتُ نضرتُك في بذور الحبّ [1] في قلبي
وسقاه رواءك وغذّاه نور عينيك الساحرتين
فأصبح كجنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين
رباه ! ما هذا الوجود ؟
فانه منذ حل القلب لم يعد الكون يزن به شيئاً
كلما طلع طالعَ الشمس من برجها على أفق قلبي المظلم
طرب القلب على اوتار أشعتها
طربَ المعذب لنفحة الحب الصادقة
وقدرَ حركة الطرب فيه ونشاطها
حل الدينَ من سحره سُكرُ الحيرة سكوتها

(١) طأطأ في الامر : اي اشتد وبالغ فيه

حقًّا وصفهُ عياد جنج في اسطورة [1]

انه خلاصة الكون

ولباب الجمال فيه

كم شيء خاض الشعور قمرّه

وعزّ الحياة قرارتها

فالشعر الاسطورة او ارتدى القصة

انما دليلا الادراك الى الحقيقة المحجوبة

واحسرتاه! قلبي يحترق شوقاً اليك

والسُّرف يحول دون الوصول اليك

كم قلوب داسية قدست قرباناً لإلاهة التقليد!

كم أكباد رطبة أعدمت تقديساً للعرف!

ان كل كاس شربتها من رواتك على متن الاثير

أضرمت شوقي وزادت غلتي

ان نور الشمس يرد نظري كليلاً وخاسئاً

ولكن نور محياك يزيد بصري حياةً وشوقاً

نظرة الى الشمس تعميني عن الثانية

ولمظرات اليك لا تبرد لوعتي بل تزيدها

انما جلال وانت جمال

ان الجلال رمز العدل والنظام في الكون

والجمال باعث الحياة والنشاط في الروح

[السيد ابو النصر أحمد الحسيني الفتني]

(١) جنج اسم هندي كتب في الهند بقلمه اتباع الدين البرهمي. وخلاصة الاسطورة عندهم في ان الاله (توشتري) حين اراد خلق المرأة بعد ان اتم مادة الخلق في تكوين العالم وصياغة الرجل بذل جهده في التماس الحيلة الى ذلك حتى اهتدى الى ان يجمعها شيئاً من كل شيء فصاغها من استدارة البدر، وجمال هالاي، ونعومة جنج، وبشاشة الزهرة، ولطافة النسيم، ورشاقة الغصن ودموع الغمام، وهديل الحمام، وحظات الشادن، وقسوة الاسد، وبهجة الطاؤس، والتواء الافعى، ثم قدمها الى الرجل فكانت سحراً لناظره، وفتنة لخاطره، وحيرة لنفسه

سِيَرُ الزَّمَانِ

البعث الالماني

وبقية الاشياء في تسوية الحرب الكبرى

١ — ليوفندا ورسوسيا

٢ — النمسا وايطاليا

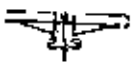

البعث الالماني

وبدء الانهيار في تسوية الحرب الكبرى

[عالجنا في هذا الباب طائفة كبيرة من كبار المشكلات السياسية العالمية ونحن نقف اليوم هنيهة لكي نلخص لقرائنا تيار الحوادث الاوربية في السنوات الخمس الاخيرة لتكون بمثابة هيكل يضمون فيه كل مقال من مقالات هذا الباب في عليا . واعتمادنا في هذا التلخيص على كتاب لاستاذ السياسة الدولية في جامعة ويلز عنوانه : « العلاقات الدولية بعد معاهدات الصلح »]

في اليوم السابق لليوم الاخير من شهر يناير سنة ١٩٣٣ تقلّد الهر أدولف هتلر رآسة وزارة المانية، ثلاثة من أعضائها نازيون وثمانية وطنيون . وحلّ الريخستاج لاجراء انتخابات جديدة

كان الحزب النازي قد أحرز ٢٣٠ مقعداً في الانتخابات السابقة التي تمت في شهر يوليو سنة ١٩٣٢ فغدا بها أكبر حزب في المجلس ولكنهُ لم يكن حزب أكثرية . ولذلك عقد أمله على احراز الاكثرية في الانتخابات التالية . ولكن حدث في يوم ٢٧ فبراير — وكانت الانتخابات قد أصبحت وشيكة — ان شبّت النار في دار الريخستاج في أحوال يحيط بها الخفاء والريب . فاتخذ هذا الحادث وسيلة لمطاردة الشيوعيين ومن قيل انهم شيوعيون او يعطفون على الشيوعية ، وقد تمّ بعض هذه المطاردة على أيدي البوليس ومعظمها على أيدي قوات غير نظامية مرتدية رداء النازي البنّي . وأسفرت الانتخابات عن زيادة أعضاء النازي في الريخستاج الى ٣٢٢ . ومن ثمّ اشتدّ اضطهاد اليهود والديمقراطيين الاشتراكيين والشيوعيين وأخذت طوائف كبيرة منهم من دورهم الى معتقلات خاصة حيث قست السلطات في معاملتهم . واغتيل كثير منهم ولم يبذل سعيٌ لمحاكمة مغتاليهم . ولقيت الاحزاب الاخرى التي وجه أعضاؤها نقداً الى الدكتاتورية الجديدة ما لقيهُ غيرها . فما انتصفت سنة ١٩٣٣ حتى كانت جميع الاحزاب غير النازية قد حلّت وغدت وظيفة الريخستاج ان يلتئم حيناً بعد حين للموافقة على أعمال الزعيم

وخطته . فلما توفي الرئيس هندنبرج في شهر أغسطس من سنة ١٩٣٤ جمع الهر هتلر بين رآسة الدولة ورآسة الحكومة ووافقت البلاد على ذلك في استفتاء عام بأكثرية كبيرة

***

هذا في تطور الحالة الداخلية في المانيا ، اما في حلبة السياسة الخارجية فقد كانت تصريحات الحكومة الجديدة مما يبعث على الطمأنينة . فقد أعلن الهرهتلر انهُ لا ينوي تنقيح تسوية الحرب العالمية بالقوة ولكن الذين اطمأنوا الى هذه التصريحات نسوا انهُ ندَّد تنديداً شديداً — في كتابه «كفاحي» الذي انتهُ سنة ١٩٢٤ وغدت نسخهُ المتداولة تعدُّ بالوف الالوف في المانيا — بفرنسا. فقال انها عدوَّة المانيا التي يجب سحقها ، وطالب بضم جميع الاقليات الالمانية المتفرقة وراء حدود المانيا الى الرايخ الثالث وادماجها فيه ، ونظر الى شرق اوربا على انها مجال واسع للاستعمار الالماني . يضاف الى ذلك ان تسلُّح المانيا الذي كان سريًّا حتى ذلك العهد ، زاد سرعةً ونشاطاً وغدا يتمُّ جهاراً ، وشرعت المانيا في انشاء سلاح جوّي ، كان في انشائهِ كل حتى التحدّي للمواد العسكرية في معاهدة فرساي . الاَّ ان الهر هتلر ابدى في ناحية التسلُّح البحري كثيراً من ضبط النفس لاعتقادهِ ان الخطأ الاكبر الذي ارتكبتهُ السياسة الالمانية قبل الحرب الكبرى انما كان تنفير بريطانيا العظمى وتحويلها الى ناحية العدوّ

ووقع الانقلاب النازي موقعاً عظيماً في نفوس الشعوب المختلفة ، فتبرم فريق من الناس مما كان يروى عن اعمال الاضطهاد والقسوة الجارية في المانيا . وشعر فريق آخر بقلق عظيم مما لحقهُ في بعض الاحيان والاتجاهات من نتائج التسوية التي عقدت في سنة ١٩١٩

وكان الشعور الاول غالباً على بريطانيا واميركا ، فتلوَّن فيهما شعور الغضب مما يتمُّ على شعور الخوف مما يتوقَّع . فلم تتغيَّر خطتهما نحو المانيا تغيراً يذكر . اما في روسيا وايطاليا ، حيث انشىء النظام الذي تتمتع بهِ بالاساليب لا تختلف كثيراً عن اساليب الدكتاتورية الالمانية ، فلم يكن ثمة مكان للغضب والتبرم بهذه الاساليب ، وانما غلب عليهما شعور الخوف من عواقب ذلك ، فسعت كلٌّ منهما الى [illegible] في سياستها الخارجية

وسنرى في ما يلي من الصفحات تأثير الانقلاب النازي في تغيير الاتجاهات السياسية في طائفة من دول اوربا

* * *

بولندة وسوريا

وقد كان التغيير الاول اتجاهاً الى التفاهم . فرجال الصحافة والسياسة يعلمون ان « الحبَّ المفقود » بين بعض الدول كان على اشدّهِ بين المانيا وبولندة . فالجناز البولندي الذي كان سبيل

بولندة الى بحر البلطيق ، فصل المانيا عن روسيا الشرقية فكأنهُ فصل عضواً حيويًّا عن جسم حيٍّ فآلمهُ ، ومكَّن للالمان الاعتراض والشكوى مرّ الشكوى من معاهدة فرساي . وكان في بولندة — ولا يزال — اقلية المانية فلم يكن هناك اقلية في اوربا اعظم منها شكوى واكثر شكاية الى عصبة الامم ولم يعرف في العقد الاول من حياة العصبة ان مسألة عرضت على المجلس اكثر من مسألة مدينة دانتزيج حيث توارث اسباب النزاع بين هذه المدينة الالمانية التي جعلت « مدينة حرّة » وحكومة بولندة التي منحت بعض حقوق في عملها بها . وما كاد الانقلاب النازي يتم في المانيا حتى حدث نزاع خطير إذ أزالت بولندة نحو مائتي أسرة بولندية في مكان من مرفإ دانتزيج بغير تصريح من حكومة المدينة

ومع ذلك لم تكد تمضي بضعة اشهر على قلّب الهر هتلر لازمة الحكم ، حتى تمّ التقارب بين بولندة والمانيا وفي يناير سنة ١٩٣٤ وقبل الاحتفال بعيد هتلر الاول وهو في دست الحكم عقد ميثاق المانو بولندي ، كان من أثره تحويل الاتجاه في سياسة بولندة الخارجية تحويراً تامًّا وتعديل التشكيل السياسي الدولي في شرق أوربا . ولا يخفى ان ذلك الميثاق كان ينطوي على عهد بعدم الاعتداء مداه عشر سنوات . وكان من النتائج التي أسفر عنها ذلك الميثاق ، توقف الصحف الالمانية والبولندية عن التراشق بالكلام النابي — بعد ان دام ذلك خمس عشرة سنة — وزالت المشكلات الخاصة بالاقلية الالمانية في بولندة ومدينة دانتزيج من برنامج عصبة الامم

فكيف تمّ هذا الانقلاب ، وما الباعث عليه ؟

***

كان الهر هتلر قد أحدث هزّة عنيفة في العالم الغربي ، فكيف يتلافى ذلك ويصحّح الميزان؟ أيجدّد خطة وايلو القائمة على التفاوض مع روسيا؟ وكيف يكون ذلك في وسعه أزاء سخطه في سحق الشيوعيين في المانيا ؟ إلاّ أن الخوف من الانزلاق في حلبة السياسة الدولية خوف كبير ويضاف الى ذلك انهُ كان قد قرّر في نفسه — ولعلّ أصلهُ الغموض كان ذا أثر في اتخاذ هذا القرار — بان التوسع الالماني الاول يجب ان يتمّ في ناحية النمسا . واذن فالعوامل السياسية جميعها تدل على وجوب عقد معاهدة مع جارته الشرقية فابتاع معاهدة بولندة بتعهده ان يمتنع عن اي عمل ضدّها مدى عشر سنوات

وكانت البواعث التي حملت بولندة على التقرب من المانيا هتلر كذلك . ذلك بأنه كان قد انقضى عليها خمس عشرة سنة وهي قائمة كأنها على قتاد بين دولتين كبيرتين متنافستين . وكانت حليفتها الوحيدة — فرنسا — بعيدة عنها . بل ان فرنسا نفسها كانت قد بدت بعقدها معاهدة لوكارنو (١٩٢٥) ميلها الى تغليب شؤون سلامتها على مصالحها البولندية . ثم كانت قد جرحت

بولندة في عزّها عند ما وافقت على عهدة الدول الاربع التي اقترحها موسوليني سنة ١٩٣٣ على اساس اشتراك الدول الاوربية الكبرى فيها وهي انكلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا . ومع ان المعهدة لم تصب نجاحاً ما الاّ انه كان من عواقبها بذر بذور الشقاق بين فرنسا وبين حليفاتها التي رأت في قبول فرنسا لها تضحية بكرامتها في مذبح الرضى الايطالي . يضاف الى هذا ان بروز المانيا ثانية في الميدان ، دولة قوية عزيزة الجانب ، جعل قائدة العون الفرنسي للدولة البولندية في الوقت الموافق امراً صعباً ان لم يكن متعذراً . وكذلك رأت حكومة بولندة ان مصلحتها تقضي بأن لا تقف موقفاً يثير عداء جارتيها ، فعليها ان تختار صداقة احداهما فاختارت الدولة التي حسبتها اقوى من الاخرى ، وأجدر بالاعتماد عليها — يعني المانيا . نعم ان الميثاق البولندي الالماني كان موقوتاً بعشر سنوات ، ولكن من طبيعة هذه الاتفاقات ان تستمر اذا استطاعت الدول التي تعقدها ان تحترمها وتنفذها تنفيذاً صادقاً مدى عشر سنوات

***

أما في روسيا السوفيتية فلا يسعنا وصف تأثير الحالة الجديدة فيها الاّ بالرجوع قليلاً الى ما قبل ذلك العهد . ففي سنة ١٩٢٧ كانت الحكومة الروسية قد أنشأت صلات رسمية مع جميع الدول الكبيرة ما خلا الولايات المتحدة الاميركية . وفي تلك السنة ظهر مندوبو روسيا في جنيف وعلى الرغم من صب جام نقمتهم ونقدهم على العصبة ، اقتفوا آثار الحكومة الاميركية في التعاون مع العصبة في الاعمال الاقتصادية والانسانية والخاصة بنزع السلاح . فحضروا في تلك السنة مؤتمراً اقتصادياً في جنيف واللجنة التحضيرية لمؤتمر نزع السلاح . وفي تلك السنة ظهرت خطة ستالين القائمة على تحقيق « الاشتراكية في دولة واحدة » على خطة الثورة العالمية . ووضع مشروع السنوات الخمس الاول . وشرع في تنفيذه في اول اكتوبر من سنة ١٩٢٨ فكان معنى هذا ادخال عنصر من « رأسمالية الدولة » على النظام السوفيتي وهذا يعني تغليب مصالح الدولة العملية على المبادىء النظرية للثورة الشيوعية . فلما أنشئت العلاقات الرسمية بين روسيا وانكلترا في عهد وزارة مكدونالد الثانية سنة ١٩٢٩ رسا مستقبل الحالة الدولية انه لم يبق امام روسيا الاّ التفاهم مع الولايات المتحدة الاميركية والانتظام في عصبة الامم حتى تصبح عودتها الى مجامع الدول كاملة بعد ان ظلّت مقصيّة عنها منذ ثورتها في سنة ١٩١٧

وانقضت ثلاث سنوات لم تقدم فيها روسيا الى تحقيق احد هذين الغرضين تقدماً يذكر . ولكن عقدت حكومة موسكو في صيف سنة ١٩٣٢ مواثيق عدم اعتداء مع ايطاليا وفرنسا . ثم حدث في الربع الاول من سنة ١٩٣٣ ان تقلد الهر هتلر ازمة الحكم في المانيا ، وخرجت اليابان من

العصبة فكان لهذين الحدثين الخطيرين اثرهما في توجيه سياسة روسيا الخارجية . فشهد العالم في صيف سنة ١٩٣٣ تقرباً سريعاً بين روسيا وفرنسا اساسه الخوف المشترك من المانيا . وتلا ذلك ظهور مقالات متعددة في الصحف الروسية ، تنطوي على معنى المقاومة والتنديد بتنقيح المعاهدات القائمة . وفي الوقت نفسه حدث التقرب بين روسيا والولايات المتحدة الاميركية وأساسه خوفهما المشترك من اليابان . فذهب الرفيق ليتفينوف في شهر نوفمبر من سنة ١٩٣٣ الى وشنطن العاصمة وقطع نيابة عن حكومته العهود الوافية بالامتناع عن بث الدعاية الشيوعية في اميركا ومنح الاميركيين المقيمين في روسيا حرية الشعائر الدينية . وعندئذ اعترفت الحكومة الاميركية رسمياً بحكومة السوفيت . وكذلك تمكنت السياسة الروسية كسب صداقة دولتين ، قد تكونان ذات فائدة في علاقتها بألمانيا من ناحية واليابان من ناحية اخرى

ولكن فرنسا اصرت على وجوب تقدم روسيا للانضمام الى عصبة الامم . فعقد ميثاق روسي فرنسي ، يكون ولا ريب منسجماً بسمة المحالفات السياسية السابقة للحرب الكبرى اذا ظلت روسيا غير عضو في جامعة جنيف . وقد يثير مقاومة بريطانيا له . فالمصلحة المشتركة في الدفاع المشترك ضد اي اعتداء المانى ، يجب ان يفرغ في قالب الانتظام في عصبة الامم . وفي شهر يوليو من سنة ١٩٣٤ اقنعت فرنسا كلاً من انكلترا وايطاليا بوجوب السعي لاقناع اعضاء العصبة بتأييد انتظام الاتحاد السوفيتي فيها . وفي اجتماع الجمعية العمومية الذي عقد في شهر سبتمبر من تلك السنة ، قبلت روسيا عضواً في العصبة ولم يقترع ضد انتظامها فيها الا سويسرا وهولندة والبورتغال

في هذه الحالة احتاطت بولندة لنفسها ضد روسيا باتفاقها سراً على امتناع موسكو عن تأييد أي عمل تقوم به الاقليات الروسية في بولندة كتقديم العرائض الى مجلس العصبة لتنظر في أمرها . وأعلنت في الوقت نفسه انها عادت لا تعترف بحق العصبة ان تعنى بمسألة الاقليات المختلفة في بولندة . وهذا نقض فعلي لمعاهدات الاقليات التي وضعت بعد الحرب وكانت بولندة من الدول التي قبلتها

إلا أن ضمان السلامة الذي أصابته روسيا من انتظامها عضواً في عصبة الامم ، لم يكن كافياً لطمأنتها من ناحية المانيا . وكذلك مضت حكومتها في سعيها الى عقد اتفاق مباشر مع فرنسا . وكانت فرنسا حينئذ غير راغبة في رد هذا السعي رداً باتاً . فأكدت لروسيا ان انكلترا لا تعترض عقد ميثاق لضمان السلامة بين فرنسا وروسيا على شرط أن تدعى المانيا للاشتراك فيه ، على أن يكون هذا الميثاق من قبيل مساعدة لوكارنو ، أي مما يمكن تطبيقه على المعتدي سواء أروسيا كانت المعتدية أم المانيا . وكذلك أعدت الحكومتان الروسية والفرنسية مشروعاً يعرف باسم « الميثاق

الشرقي » أو « لوكارنو الشرقية » وأهم ما ينطوي عليه التعاون المتبادل بين روسيا وفرنسا ضدّ اعتداء المانيا من جهة والتعاون المتبادل مع المانيا ضدّ المعتدي منهما عليها من جهة ثانية . وبدا للمطلعين على قواعدهم أن فيه ما ليس طبيعيًّا . اذ كان يصعب على الذهن ان يتصوّر احوالاً تفوز فيها المانيا بمعونة فرنسا ضدّ روسيا او بمعونة روسيا ضدّ فرنسا . ومع ذلك فقد وافقت الحكومة البريطانية عليه في فبراير سنة ١٩٣٥ وعرض هو ومقترحات اخرى على الحكومة الالمانية . فاعترضت المانيا عليه اعتراضاً كان بمنزلة الرفض . وقد كان موقف المانيا هذا هو الموقف المتوقع منها في موسكو وباريس . فاغتنمتا هذه الفرصة ووقعتا ميثاق التعاون المتبادل المشهور باسم الميثاق الفرنسي السوفيتي . وقاعدته التعاون المتبادل بينهما اذا هاجمت احداهما دولة اوربية ثالثة . وكذلك نرى أن من نتائج الانقلاب النازي في المانيا احياء الخالفة الفرنسية الروسية التي كانت قائمة قبل الحرب الكبرى

***

النمسا وايطاليا

كان قرار الهر هتلر ان يجعل النمسا الهدف الاول من اهداف سياسته الخارجية غير موفّق من نواحٍ مختلفة . ذلك ان احداً لم يشكّ بين سنتي ١٩١٩ و١٩٣٣ في ان كثرة الشعب النمسوي كانت راغبة في الاتحاد بالمانيا . ولم يكن في معاهدات الصلح مادة اكثر تعرضاً للنقد من المادة القاضية بمنع هذا الاتحاد . الاّ ان الانقلاب النازي كان قد احدث نفوراً في نواحٍ من الرأي العام النمسوي . فالاشتراكيون المستقلون — وكانوا اكبر حزب في البرلمان النمسوي — واليهود وهم ذوو مقام رفيع في تجارة لم يكونوا راغبين في ان يكون مصيرهم مصير اخوانهم في المانيا . ثم ان الكنيسة الكاثوليكية وكانت ذات مكانة في النفوس النمسوية تخشى ما لقيته في المانيا من شدّة . ويضاف الى هذا دلالة ان الطبع النمسوي الرضيّ لا يتوافق وصفات الخلق الالماني [illegible] حرٌّ في النمسا في السنة التي تلت قيام الهر هتلر لكانت الاكثرية في جانب الانضمام الى المانيا . ولو لم تكن اكثرية ساحقة

وكان الاثر الاول في النمسا للانقلاب الالماني الرغبة في تقليده . فوقف دولفوس في شهر مارس من سنة ١٩٣٣ الدستور النمسوي على الرغم من معارضة الاشتراكيين الديمقراطيين . وغدت الحكومة النمسوية منذ ذلك التاريخ تعتمد على تأييد هيئة عسكرية خاصة تدعى الهيمفير للقاومة

قوة الاشتراكيين الدمقراطيين المسلحة . هنا دخلت الحكومة الالمانية الميدان . فشرعت تذيع من محطاتها في جنوب المانيا اذاعات تنطوي على حملة على الحكومة النمسوية . وجعلت الطيارات الالمانية تلقي على مناطق مختلفة من النمسا نشرات تحتوي على الدعاية النازية . وحزّبت الاسلحة والنقود الى جماعة النازي النمسوي . ورفع رسم التأشير على جوازات الالمان القاصدين الى النمسا رفعاً كاد يكون منعاً باتّاً . فردّت الحكومة النمسوية على ذلك بحل الحزب النازي النمسوي في شهر يونيو من سنة ١٩٣٣

وعلى الرغم من مقاومة الهيمفهر ظلّ الرأي الغالب ان النمسا تنو للضغط الالماني ، لولا تدخل الدول الكبيرة . فقد كان شعور التسخط على أعمال الارهاب النازية على أشده في هذه الدول ، فجاءت الحملة على النمسا مؤيدة لهُ . ولم يختلف الرأي العام الانكليزي عن الرأي العام الفرنسي في وجوب الاحتفاظ باستقلال النمسا . فبذلك صرّح دبلوماسية في برلين ولكنها لم تسفر عن نتيجة . وفي شهر اغسطس من تلك السنة عقد للنمسا قرض دولي اشتركت فيه انكلترا وفرنسا وايطاليا ودول أخرى

عند هذا الحدّ بدت ايطاليا في مظهر المدافع الاول عن استقلال النمسا . لعلم ان ايطاليا كانت من دعاة تقبيح المعاهدات . وفي العهد السابق لقيام الحرب هتلر كانت قد تقرّبت من المانيا فجرتا على خطة مشتركة في بعض المسائل . ولكن رجع الانقلاب النازي في ايطاليا ، كان باعثاً على توجيه سياستها الخارجية توجيهاً جديداً على نحو ما تمّ في روسيا

فايطاليا ترغب في تقبيح المعاهدات . ولكن اذا سمح لالمانيا بضمّ النمسا فقد تعدو المانيا جارة خطرة على دولة سبق لها في معاهدات الصلح ان ضمّت اليها جانباً من ولاية التيرول الجنوبي وفيها أقلية المانية لا بأس بها . ولذلك شرعت حكومة ايطاليا في مستهل سنة ١٩٣٣ ، تؤيد الهيمفهر تأييداً خفيّاً ، لأنها كانت تعتقد انهُ السور الذي يصون استقلال النمسا . الآن السنيور موسوليني طلب ثمن هذه المعونة والثمن الذي طلبهُ نزع ما للاشتراكيين الدمقراطيين من السلطة في النمسا ولا سيما في بلدية فينّا حيث كان زمام الامر في أيديهم ، والشاه نظام من الحكم في النمسا على قواعد النظام الفاشستي . فلبّى هذا الطلب في فبراير من سنة ١٩٣٤ بغير مقاومة تذكر . فسجن مئات من أقطاب الاشتراكيين الدمقراطيين . والغيت المعاهد الاشتراكية . واصبحت سياسة النمسا خارجية وداخلية رهن اشارة من إيطاليا

وكانت عاقبة هذه الاعمال ان فقدت النمسا كثيراً من العطف الذي كانت تتمتع بهِ في انكلترا مع ان الحكومة البريطانية مضت في اعلان خطتها الرسمية القائمة على صون استقلال النمسا . أما النازي فجدّدوا نشاطهم وضاعفوا مساعيهم في النمسا وفي يوم ٢٥ يوليز من سنة ١٩٣٤ احتل فريق

من النازي النمسوي مقرٌ رآسة الحكومة النمسوية الاتحادية بفينا وأصيب الحر دولفوس بجرح مميت وهو يحاول الفرار . ولكن التدبير خاب ، لان الجيش لم ينقلب الى مساعدتهم ولم تغب شمس ذلك النهار حتى كان في فينا حكومة خلفت دولفوس وفي يدها زمام الامر

وكان الرأي ان تدبير هذه الفتنة لم يكن مستطاعاً لولا تأييد الحزب النازي الالماني وذهب بعضهم الى ان الحر هتلر يتحمل التبعة الادبية في مصرع دولفوس . وحشد السنيور موسوليني جانباً من جيشه على حدود النمسا الجنوبية . ولا يعلم هل كان ينوي فعلاً الزحف على النمسا لو نجحت الفتنة

الاّ ان هذه الحوادث كانت نقطة تحول كبير في شؤون النمسا . ذلك بأن الحر هتلر رأى ان خيبة الفتنة بيّنت موطن الضعف في سياسته النمسوية ، او لعلّه خشي حينئذٍ أن يفضي سعيه فيها الى الاصطدام بايطاليا . فغير خطته . وغدا النازي النمسوي لا يلقى تشجيعاً على القيام بأعمال العنف . ووقفت الحملة على الحكومة النمسوية . وأكد الحر هتلر غير مرة انه ليس في نيته تهديد استقلال النمسا او التدخل في شؤونها الداخلية . وظل ساثراً على هذه الخطة مدة سنتين . فلما خاضت ايطاليا معترك النزاع الحبشي وضعفت سيطرتها على اوربا المتوسطة ، عقدت النمسا اتفاقاً مع المانيا في ١١ يوليو من سنة ١٩٣٦ اساسهُ التعاون بينهما ، وقاعدته ان تتصرف حكومة النمسا بوصف كونها حكومة دولة جرمانية مستقلة . فلما انقطعت الاعانة الايطالية عن الهيمفر حُلّ . وكان من أثر ذلك أن اتفقت المانيا وايطاليا على ضرب من الاشراف الثاني على شؤون النمسا

وصحب هذه التطورات تحسن العلاقات بين ايطاليا والمانيا ، نتيجة لموقف عصبة الامم من ايطاليا في النزاع الحبشي ، وفرض العقوبات عليها ، فانثنى محرر برلين وما وزار السنيور موسوليني المانيا في اكتوبر من سنة ١٩٣٧ . وفي بدء هذه السنة — فبراير ١٩٣٨ — دعي الدكتور شوشنج المستشار النمسوي الى مقابلة الحر هتلر في برختسجادن حيث سارت عليه شروط اضطر الى قبولها منها تعيين احد اقطاب النازي النمسوي وزيراً للداخلية . وما انقضى شهر على ذلك حتى كانت الحوادث قد تطوّرت في النمسا تطوراً سريعاً افضى الى استقالة شوشنج وميكلاس رئيس الدولة ، وضم النمسا الى المانيا وكان ذلك في ١١ مارس من سنة ١٩٣٨

اما عاقبة ذلك وتأثيره في موقف ايطاليا من المانيا — وقد اصبحت هذه جارتها عن مضيق برنر — فلا يعلم بعد ، وان كان الحاكمان بامرهما قد اعلنا معاً ، عند زيارة الحر هتلر لايطاليا في اوائل مايو ، متانة المحور بين العاصمتين وقوة العوامل التي تربط بينهما

«وفي مقتطف يوليو القادم يعالج : الاتفاق الصغير : الاتفاق البلقاني : عقد معاهدات الصلح»

باب المراسلة والمناظرة

الشحم وضروبه

[للاب انستاس ماري الكرملي]

تلكأت كثيراً في وضع هذه المقالة ، لاسباب ، منها : إن بعض الادباء كتب إليّ يقول لي ، بعد انتشار جزء يناير من المقتطف من هذه السنة (١٩٣٨) : إن فصولك في (الدهن وأنواعه) مفيدة ، لكنها ناقصة في بعض مناحيها . وأنهى آخر انها مبتورة الموضوع ، لأني لم أذكر ضروب الشحم ، بعد ان وفيت بحث الدهن حقهُ ، وألحّ عليّ آخر بأن أعني في الموضوع قُدُماً ، وأعرض أنواع الشحم ، مع تحليل ضروبها الفيزيائي ، وزارني خمسة اصدقاء في أوقات متفاوتة ، يلتمسون مني ان أبين منزلة المقالة المرسومة بـ (الدهن والشحم وفصل الفصل فيهما) ، الواردة في المقتطف (٩٢ : ٢٣٨) . — فاضطررت لاشتغالي بما هو أهم من هذا الموضوع . وفي هذا الاسبوع ، هجم عليّ فريق من الحين ، وما غادروني إلاّ من بعد ان استوثقوا مني بأن ألبّي طلبهم ، بعد خروجهم من عندي ، فاضطررت الى ان أوفّق هذه السطور ، وفاءً بالوعد ، وقياماً بالواجب ، لا حبًّا للرد ، وقد سئمتهُ كل السأم

١ — الدهن

وأول كل شيء يتحتم عليّ تحقيقهُ ، معنى الدهن . فلقد أوضحنا سابقاً أن من معانيه : الزيت . لكنا قلنا ان الكلمة العربية تنظر الى اليونانية Dêmos . ونزيد الآن على ما تقدم : أن أول معاني هذه الكلمة هو : « دهن الحيوان والانسان » ويقابلهُ في اللاتينية Omentum او بعبارة ثانية تطيب بعضهم : شحم الانسان والحيوان . وهذا المعنى سبق بمعناهُ الآخر القريب أي الزيت بمعنى ما يستخرج من النبتة ، إذ ورد بالمعنى الاول في الالياذة في ٢٢ : ١٥ — و٢٣ : ٧٥٠ الى غيرهما من المواطن . والعدد الاول يشير الى رقم القصيدة بموجب ترتيبها والرقم الثاني الى رقم البيت بحسب ترتيبه . وجاء أيضاً في الاوذسة في ١٤ : ٤٢٨ الى مواطن عدة أخر . وكذلك في حيوديس الاسكريّ المترشّي بين سنة ٩٠٠ و ٨٠٠ ق.م ، في قصيدته المرسومة بثوغونية في البيت ٨٣٨ ، الى غير هؤلاء الشعراء والكتبة والمؤرخين اليونانيين ، بما يضيق المقام عن إيراد شواهدهم وذلك قبل الميلاد . وأما الدهن بمعنى الزيت ، فكان في أوائل النصرانية وقبل الاسلام . فحصر العرب معنى الدهن بما ماع من الشحم ، أو بما يستخرج عصراً من بعض الانبتة الدهنية او الدسمة وعليه : كان العود الى الدهن بمعنى الشحم ، أحد وهو الوجه الاوجه والأشبه والاصل أحق ان يتبع لانهُ إذا جاز لنا أن نتخذ الفرع حجة لنا ، فحجة أولى بحسن

بنا ان نتبع الاصل ، ونزيدنا إثباتاً لذلك وأخذاً به ، استعمال جميع الناطقين بالضاد في الربوع العربية اللسان ، بلا شاذٍّ ومن أقدم العهد . ولا يهمنا انكار المكابرين لهذا الشرع والتعبير

والعراقيون يستعملون (الشحم) بمعنى (السَّخْف) أي هذه المادة البيضاء التي ترى في المجتَّرات وتتخذ الفقراء منها الشموع الى يومنا هذا وتسمى بالانكليزية Tallow وبالفرنسية Suif ، وهي تلك المادة التي سمَّاها ابن برّي ومن شايعهُ (الودك) كما سيتضح لك ذلك فيما يأتيك من الكلام . وهذا هو معنى (الشحم) في الكتب الدينية وهو الذي يعتمد عليه أهل البادية وبعض القبائل في طعامهم من مطبوخ وغير مطبوخ . ويرى موفوراً في سنام البعير

واليوم يقول العراقيون : شمعة شحم ، او شمعة من شحم ، ولا يقولون من دهن ، لانا قلنا ان الدهن خاص بما يذوب من الشحم ، وإن كان المعنى الاصليّ هو الشحم الجامد . ولهذا تسمعهم يسألون صاحب المحجنات او القطائر : هل في جُرْكك[1] دُهنٌ حرّ أم دُهنٌ ليّة ؟

فيُجيب عن سؤالهم ذاكراً المادة التي اتخذها في عجن الميرتّ وهو اسم الجرك عند فصحاء العرب (راجع التاج مادة : (ر ث ث) فالدُّهن عندهم السمن وإهالة الالية . فاذا أرادوا التحقيق قالوا في الاول : « الدهن الحرّ » وفي الثاني : « دهن الية » أي الالية . ولهم كلام آخر وهو (اللحم الدهين) كما ذكرنا ذلك سابقاً ، ويراد بذلك : اللحم الكثير الدهن اي الشحم الذائب ومن ينكر ذلك يظهر انهُ غريب عن العراقيين ولا يفهم لغتهم ، ولهذا قلت سابقاً : (٩٢ : ٦٢) : (اذ في الالية دهن وشحم ، وفي الانسان دهن وشحم ، وفي الاسماء دهن وشحم » اي أنّ في كل هذه الحاويات دهناً (يذوب عند الحاجة اليه) وشحماً (اي جامداً او دهناً جامداً)

٢ — أصل كلمة الدهن ومعناها الاول

قد قلنا سابقاً ان العربية تنظر الى اليونانية (المقتطف ٩٢ : ٦٤) ومعنى ذلك انها تتبرأ ، وليس معناهُ ان اليونانية هي من العربية ولا أن العربية هي من اليونانية ، كما يتوهمهُ بعضهم . ولما لم يكن عندنا كلام مدون يرتقي عهده الى ما قبل الميلاد ، بخلاف ما عند الاغريق ، نضطر الى النظر في هذه اللغة ، في الالفاظ المشابهة لالفاظنا ، فيما ورد في مدوناتهم لمعرفة قدمها عندنا وعند استشارة كتبهم ، وجدنا ان أول معنى الدهن الشحم الجامد

وهكذا كان في لغتنا ، ولو كان عندنا من المدوَّنات القديمة كما نرى منها عند اليونان لوجدنا أول معنى كان للدهن : الشحم الجامد ، ثم انتقلوا الى المعنى الثاني اي الى الدهن السائل والاهالة ، او بالحالة التي يكون عليها وهو في الجسم . وقد ذكرنا في صدر هذا المقال ، ما ورد من كلام اليونان ، وفيه ذكر الدهن بمعنى الشحم ، بقي علينا ان ننظر من أين جاءتهم هذه اللفظة ؟

(١) ضرب من الخبز ، هش جداً يعجن بالسمن (الذي نقول ان العراقيين انهم يسمونه الدهن الحر ، وهو كلام فصيح) او دهن الالية ، اي ما يذاب منها وهو اهالة الية . والمطلوب هنا توجيه نظر القارئ الى استعمال الدهن للشحم الالية اذا أُميع او أُذيب . والجرك كلة تركية وتكتب جورك أيضاً

أجمع فقهاء لغتهم على ان المادة مأخوذة من (دا) بمعنى جرى وسال . راجع المعجم اليوناني الفرنسي لبوازاق ص ١٨٢ وقد ذكرنا هذا المعجم في مقالتنا السابقة . — وأنت تعلم ان العرب لا تنطق بفعل مركب من حرفين ، بل إما ان تضعف آخره ، مثل عدّ وسرّ ، فانهم يقولون فيهما عدَّ وسرَّ ، واما ان تزيد في أوله واواً او ياء ، كقولهم وعَدَ ويَسَرَ . وأصلهما من المدّ والسرور ، لان الواعد يمدّ عدد الايام التي يتم فيها كلامهُ في وعده ، ولان اليُسر يدخل السرور على النفس . فالاصل (دا) Da يقابلهُ في لغتنا (وَدَى) بواو في الاول اي جرى وسال ، كما في معاجم اللغة . قالوا : ومنهُ اسم (الوادي) للموطن الذي يخدّهُ الماء ليجري فيه

قلنا اذن ثلاثة أدلة متبعة القوى ، تؤيد ان الدهن ، هو هذا الجوهر الدسم ، الجامد في حالته والسائل في أصله ومصيره . وهو كذلك في اللغات السامية واليافثية . وهذه الادلة الثلاثة هي : ١ — أصل الكلمة في وضعها الاول او في وضع نشوءها — ٢ استعمالها بهذا المعنى في جميع الديار العربية اللسان ، منذ أقدم العهد الى يومنا هذا . أما سبب عدم استعمال القرآن لها فهو لان الآيات لا تتصدى لجمع ألفاظ الضاد ولا لجميع معاني الالفاظ المستعملة . وهذا واضح كالشمس في رائعة النهار . — ٣ اجماع أهل اللغات الباثية على هذا الاصل . وهم لا يتهمون بتحزب ، ولا بغرض ، ولا بمكابرة . ولهذا لا يهمنا بعد هذا زعم من يجري في صراط غير مستقيم

اذن : الشحم كالدهن والدهن كالشحم بلا فرق ، اللهم الاّ ان يقال ان الدهن يراد به اليوم « خاصة » المائع من الشحم ، فهذا عرض لا يؤبه لهُ ، ثم اذا كان خاصًّا بالسائل منهُ في البلد الواحد فهو ليس كذلك في جميع البلاد العربية اللسان . واما ان احدهم ينكر ذلك فيقول : ان في الالية شحم [كذا بحرفه والصواب شحماً] وفي الالسان شحم [كذا] ، وفي الامعاء شحم [كذا] ولا يجوز أن يقال : ان في الالية شحماً ودهناً وكذلك في اللسان والامعاء فلكونه لم ينتبه الى قولنا ان الدهن المائع من الشحم . فانك اذا أذبت بعض الالية ، وأبقيت البعض الآخر منها فقد اجتمع عندك دهن وشحم . فهل بعد هذا التصريح تصريح أوضح وأبين وهو لا يخفى على أيّ كان ؟ ولكون الدهن ورد بمعنى الذائب من الشحم او السائل منهُ جاز مجيئهُ بمعنى الزيت . ولهذا ورد هذا المعنى في اليونانية والعربية بعد ان عُرف مؤداهُ الاول كل المعرفة . ومثل هذا وقع (للدُّسَم) فان كتب اللغة لا تذكر لهُ إلاّ معنى الوَدَك والوضر والدنس ، لكن كبار علمائهم ذكروا لنا انهُ قد يأتي بمعنى الزيت الذي يكون في بعض الانبتة . فقد قال صاحب اللسان في مادة (زعام) : « الدسم [شحم] اذا أنبتت الارض كالسمسم وغيره » اه وهذا يبيّن ، كيف ان العرب تتوسع في معاني مفرداتها ، وتنتقل بها من معنى الى معنى ، بجامع معنى الودك ، غير ناظرة الى ان هذا الوَدَك جامد ، ام مائع ؟

٣ من مترادفات الشحم او الدهن : الزهم او الزهمة

للشحم او للدهن الجامد . (وقد كان الشحم سائلاً في البدن قبل ان يجمد) عدة مترادفات، لا يُرى مثل عددها في سائر اللغات ، من شرقية وغربية ، من سامية وحامية وبائنة ، ونحن لا نتمكن من اثبات جميعها هنا ، اذ تتبع اسماؤها مع شروحها ، وذكر اصولها في نحو جزء من اجزاء هذه المجلة ، لكننا نجتزيء بذكر بعض منها، من باب التمثيل ليس إلاّ . من ذلك الزُهم

قال ابن مكرم في ديوانه في مادة (ز ه م) ما هذا نقله « الزهمة ، بالضمّ : الشحم . قال ابو النجم يصف كلباً :

يذكر زُهم الكفل المشروحا

قال ابن بري : اي يتذكر شحم الكفل عند تشريحه . قال : ولم يصف كلباً ، كما ذكر الجوهري ، وانما وصف صائداً من بني تميم لقي وحشاً . وقبله :

لاقت تميماً ماعماً لوحا صاحب اقناص بها مشبوحا

ومن هذا يقال للسمين : « زهم » . وخص بعضهم به شحم السنام، والجمل . والزُهم والزَهَم: شحم الوحش، من غير ان يكون فيه زهومة ، ولكنهُ اسم لهُ خاص . وقيل : « الزهم » لما لا يجترّ من الوحش ، و« الودك » لما اجترّ ، و« الدسم » لما انبتت الارض كالسمسم وغيره . اه كلام ابن منظور . فانت ترى من هذا ان ابن بريّ قسم « الشحم » ثلاثة اقسام شحم المجترات وسماه «الودك» وشحم غير المجترات من الحيوان وسماه «الزهم» ، وشحم النبات وسماه « الدسم»

فهل لاحظت انهُ اطلق على هذه الموادّ الثلاث اسماء الشحوم . ثم خص كل ضرب منها باسم يختلف عن اسم اخيه . وهل لاحظت ايضاً انهُ سمّى دهن الالية أوزيتها «شحماً» لا زيتاً ولا دهناً ، وقد ذكر ابن مكرم نفسهُ في مادة شحم ان « العرب تسمّي سنام البعير شحماً » وباض البطن شحماً » ولم يذكر للنبات شحماً لكنهُ توسع في تلك المادة فقال : (شحمة الاذن ، وشحمة العين ، وشحمة الارض ، وشحمة النقا ، وشحمة النخلة ، وشحمة الرمانة ، وشحمة الحنظل ، كل ذلك من باب المشابهة والتوسع في الوضع ، فهم لا يقيدون انفسهم بقيد بخلاف ما يتصور بعضهم ممن لا وقوف لهم على اسرار اللغة العدنانية وخصائصها ومزاياها ، ولا يجوز لاحد ان يضرب عليهم نطاقاً من حديد . او يبني على حدودها سداً من سدّ يأجوج ومأجوج ويقول لها : (قفي في هذا الحد ولا تتجاوزيه)

فقد رأيت (الشحم) في النبات كما رأيتهُ في الحيوان . وكذلك يقال عن الدهن والدسم الى غيرها مما نقل عنهم وعن لغويهم الاثبات . فلغة العرب واسعة سعة رمال جزيرتها

٤ الشحم دهن ويعكس

قال في محيط المحيط « اللحم واللحم من جسم الحيوان : خلاف العظم . او هو من الضئين

والبقر ونحوها : المادة الحمراء الرخوة التي تؤكل ، فلا يتناول المادة البيضاء من الشحم و«الدهن» ج لِحام ولُحُوم ولِحْمان ولَحْمان وأَلْحُم » . فهذا نص صريح على ان الدهن غير الزيت الذي يخرج من الشجر او الحجر بل هو شيء يكون في البقر والبشر

على اني — والحق يقال — لا اعتمد هذا المعجم . وقد صرحت بذلك مراراً لا تحصى . وانما ذكرته لمن يجعل صاحبهُ وكل من نقل عنهُ في مناط البوق . واما انا فلا اثق به لكثرة سقطه واقتباسه من فريتغ . وهذا رجل المالي قليل الاطلاع على صحيح كلام العرب رصيعه . فكيف جاز للبستاني ان يأخذ صلب كلام سيبويه منهُ ؟ — فاذا كان فريتغ كثير الغلط والسقط فالحرا ان يكون ذلك ايضاً على هذا الطراز وكذلك يقال على اقرب الموارد والبستان والمنجد وافرائد الدرية

اما ان هذه المعاجم جمة الاغلاط فنحن لا نتعرض لها هُنا ، اذ قد وضعنا لها سفراً ضخماً للاشارة اليها . التصريح بكثير منها ، واننا نتعرض هنا لما ورد في هذه العبارة التي ذكرناها قُبَيْل هذا . فان المؤلف سرد في جمع اللحم : اللِحْمان بالكسر وهذا الجمع لم يذكره احد سوى فريتغ . اما الذي ذكروه فاللُحمان بالضم ، لكن البستاني لا يهه هذا الامر ولا يتحرى صحة ما ينقلهُ عن فريتغ ، فلكون هذا الرجل ذكر الكسر في معجمه ، كان الكسر هو الصحيح وما عداهُ هو القبيح او يكاد . ألا تراه قدم اللحمان بالكسر على اللحمان بالضم ؟ — فهذا شأنهُ في كل ما اقتبسهُ عن الاستاذ فريتغ[1] . على اننا نعتمد البستاني في كل ما اتفق فيه والفيومي . وهو في قوله الدهن من الشحم ينضم الى المعنى الشائع الذائع بين متكلمي العربية وبين اللغويين . وقد بينا صدق استعمال الائمة للدهن بالمعنى المعروف في الفقرة الثالثة من هذه الكلمة والآن نؤيدهُ بنصٍّ واضح يكون به فصل الخطاب

قال في اللسان في (ودك) : «وفي حديث الاضاحي : ويحملون منها الودك » هو دسم اللحم «ودهنهُ » الذي يستخرج منهُ [لاحظ حسنا وانعم النظر والتكرر في كلمة : « ودهنهُ » اي دهن اللحم لا دهن الزيتون] . وودَكتهُ أَدِكهُ وَدْكاً . وذلك اذا جعلتهُ في شيء هو والشحم أو حيلاتهُ السن . وشيء وديك ووَدِك . والذكة : اسم من الودك . . . ودجاجة وديكة أي سمينة . وديكٌ وديك ، ودجاجة وديك وودوك : ذات ودك . ورجل واديك : سمين ذو ودك . والوديكة : دقيق يُساط بشحم شبه الخزيرة » اه . الى آخر ما هناك من الكلام الدال على ان الشحم والودك والسمن والدهن ألفاظ مختلفة لحالات من الشحم . ومن ينكرها ، عليه ان ينكر الشمس في رائعة النهار ، فذاك الامر أهون . والسلام على من اتبع الهدى

(١) المقتطف — وقد ساق الاب انستاس في حاشية طويلة نحو ٢٠ سطراً من صفحة ٤٠٠ ما يراه دليلا على ان «البستاني كان مشغوفاً بفريتغ في اول تأليفه لمعجمه محيط المحيط ولما أودك ان يمحو التمام من تأليفه تبين له كثرة ما يورد فيه من الخطإ فقدم على عمله هذا . . .» فانصرفنا عن الاشارة الى ذلك.

باب الأخبار العلمية

البسلة الصينية ومنافعها المتعددة

وهي فول الصوي او الصويا

Soy, Soya, Soja Bean or Pea

شاهدت نوعاً من الصويا (وهو بذور نبات ينمو في اليابان والصين والهند ويعمل من دقيقه خبز خال من النشاء للمصابين بالبول السكري) معروضاً في قسم البساتين بالمعرض الزراعي الصناعي الحديث في الجزيرة فاسترعى نظري وهمتي ولاسيما حين رأيت اكياس الدقيق والخبز المصنوعة من الصويا لغذاء المرضى، وقيل لي ان الصويا زرعت في مصر حديثاً، فسألت المعهود اليه في رقابة ذلك القسم بالمعرض، عن اسعار هاتيك المعروضات فإذا بها زهيدة جداً عند مقابلتها بمثيلها من الزراعات الذين يفترن زراعتها في اطيانهم، والمرضى الذين يحتاجون الى التغذي بالخبز المصنوع من دقيقها لمكافحة داء البول السكري. فحداني ذلك على دراسة موضوع الصويا، فقرأت فيه ابحاثاً مستفيضة في مصادر حديثة مختلفة لكثيرين من علماء الزراعة والطب وغيرهم فآثرت ان اقتطف منها ما يلي:

قال الدكتور هنري ج نيت رئيس مكتب الكيمياء والتربة في وزارة الزراعة الاميركية بواشنطون ما يأتي: —

زرع الصينيون منذ آلاف من السنين، وما زالوا يزرعون فول الصويا ويقدرونه حق قدره كواحد من الحمسة الحبوب المقدسة التي تعد عندهم من ضروريات حضارة الصين.

وقد تنبه العالم الغربي في التاريخ الحديث الى الفول الصيني وعرف جلية مزاته، فجعل يغبط اهل الصين في وسائل الانتفاع به.

ولذلك انشأت حديثاً حكومة الولايات المتحدة الاميركية في جامعة إيلينوي، معملاً للاختبارات الكيميائية خاصاً به، لما بعض على وجوده غير حول واحد وبعض الحول الثاني، ومع ذلك فقد أخذ يظفر بنتائج باهرة من ابحاثه فأعلن منذ اكثر من شهر، أول مكتشفاته الخطيرة في هذا الصدد، ونقصد به صمغال (ورنيش) الصويا لوقاية سطوح الخشب. وهو صمغال يقاوم التأثيرات الجوية كل المقاومة، فلا يزول من بريقه الا شيء طفيف جداً ولا يتشقق على الاطلاق ولا يتقشر ولا يسود، على حين ان النوع الجيد من «ورنيش سبار» Spar varnish الذي يؤخذ

من المعادن المتبلورة اللامعة قد استعمل في تلك التجربة عينها مدى سبعة أشهر، معرضاً للجو في الخلاء. فحال لونهُ كلية بعد مضي خمسة أشهر فقط. فأسفرت التجربة عن كون زيت الصويا الذي عولج علاجاً سديداً، حل محل الزيوت الاخرى جميعاً المستعملة الآن في تحضير الورنيش وذلك بنسبة مائة في المائة

وفول الصويا ذو أنواع شتى وقد أحضر احد المكتشفين التابعين في وزارة الزراعة الاميركية الوفاً من نماذج الصويا التي تُزرع في الشرق الاقصى. وجربت زراعتها في الولايات المتحدة وتبين ان بعض تلك الانواع ينجح في مناطق معينة من الارض أو في تربات خاصة. وظهر من تجارب أخرى ان بعضها صالح جداً لعلف المواشي. وبعضها صالح لغذاء البشر وبعضها نافع للصناعة لاحتوائه على مقادير جزيلة من الزيت. ولذلك شرع مربو النباتات في الولايات المتحدة الاميركية في استنبات أصناف جديدة من الصويا وتهجين أصناف أخرى منها لكي تصلح للاحوال الجوية والتربة التي تُزرع فيها وتلائم غيرها من لوازم الزراعة الاميركية

وكان بدء زراعة الصويا في الولايات الاميركية سنة ١٨٠٤ وكان نباتهُ اذ ذاك يشبر بمنزلة نبات نافع من نباتات الشرق، ثم انقضى القرن التاسع عشر كلهُ دون ان يهتم بها أحد الاهتمام الواجب. وحينئذٍ أعلن بعض من كان مقيماً في الشرق الاقصى، منافع الصويا الخطيرة هنالك فقال ان الشرقيين يصنعون منها حليباً رائباً او مجبَّناً يستغنون به عن اللحم. ويطحنونهُ دقيقاً لعمل الاقراص (كيك) والحلوى بل يستخرجون منهُ نوعاً من اللبن ويشربونه. والوجه ان الصويا كاللحم واللبن والفاكهة او الحلوى التي تؤخذ عقب الطعام لدى ملايين من أهل الصين ومنشوريا واليابان بيد ان الاميركيين قد نظروا الى حبوب الصويا اول وهلة، نظرة الانكليزي للذرة، واعتبروها علفاً صالحاً للبقر، لا غذاء للبشر

وحينما استعرت نيران الحرب العالمية، كانت زراعة الصويا في أميركا محصورة في حقل صغير، وكانت حينئذٍ تُزرع في ولاية كارولينا الشمالية حيث كان الزراع يعلفون بها الخنازير

وخلاصة القول ان الصويا اصبحت أسرع المحصولات الاميركية انتشاراً ولا سيما في مناطق الذرة. وتقدر المساحة التي زُرع هناك الآن بالصويا، بأكثر من ستة ملايين فدان وقد أُربي محصولها في السنة الماضية على ٤١ مليون بوشل. ومع ذلك ما زالت منشوريا أولى البلاد التي تنتج الصويا وصارت الولايات المتحدة ثانية لها

وتصنع فئة من المصانع الاميركية منتجات صناعية من الصويا. وتلك المصنوعات على نوعين. فالنوع الاول منها يحضر من زيت الصويا الذي يعصر من بذورها. ويحضر الآخر من الطحين الذي يبقى بعد استخراج زيتها. ويدخل زيت الصويا في منع بعض أنواع الصابون وهو صالح جداً لصنع الصابون

الذي يذوب في المياه العسرة hard . ويستعمل زيت الصويا أيضاً في الادهان — البويات ، والورنيش وشمع الارض وحبر الطبع وفي المفرقعات . ويمكن أن تصنع منهُ مادة تحل محل الصمغ المرن (الكاوتشوك)

وتركب منها صلصة تؤكل مع السلطة وما اليها . أما طحين الصويا او الكسب فيكبس أقراصاً ويستعمل علفاً للمواشي . واذا طحن دقيقاً ، استعمل لصنع « المكرونة » وصنع منهُ الخبز وغيره من الاغذية التي تستعمل في الفطور . وتدخل الصويا في تغذية الاطفال وفي اضاف الدقيق المخصوصة وغيرها

أما المواد الجبنية التي تصنع من الصويا فشبيهة بالجبائن التي تصنع من حليب اللبن ، وقد استطاع أحد صناع السيارات في أميركا صنع عجلات إدارة وأزرار لأبواق السيارات من هذه الجبنة وغير ذلك من اجزاء الادوات الصلبة التي تفرغ في القوالب وهي ليّنة حتى تتجمد

ولتحويل الصويا الى مادة جبنية يضاف الماء الى طحين الصويا ويمزج بالمواد الكيميائية والمواد الملونة ثم يضاف اليها الدقيق الخشن ليسهل تحويلها من السائل الى الصلابة اذ تسلط عليها الحرارة وتصفط تحت ضغط قوة والصلابة المطلوبتين فتصبح صالحة للمضغ أو الأكل

وتكاد الصويا تحتوي على جميع العناصر الغذائية وزنها بروتيناً . ويستعمل البروتين[1] في تلك المواد الجبنية . وفي ايطاليا يضاف دقيق الصويا الى غذاء الجنود . وذلك بأن يخلط ثلاثة اجزاء من الخطة الابيض الذي يصنع منهُ الخبز بجزء واحد من دقيق الصويا يتراوح بين ١٠ و ٢٠ في المائة . وقد أيد هذا الرأي الدكتور دوجلاس جراي الانكليزي وهو من انصار الانتفاع بدقيق الصويا كما يمكن فقال —

متى خلط دقيق الخطة الابيض بعشرين في المائة من دقيق الصويا اصبح الخليط غنياً بالمواد الازيرلوحية التي يحويها القشر الاسمر غير المنخول ، وصار الخبز الذي يصنع منهُ أشد تغذية مما يصنع من ذلك وكان ألذ طعماً وأطيب مذاقاً وذلك من فرط ما يحويه دقيق الصويا من البروتين ، وهو بروتين كامل يحتوي أحامض الاميتو[2] كافة وهي ضرورية لتكوين البروتينات في البنية البشرية . وباضافة ذلك المقدار من دقيق الصويا الى دقيق الخطة الابيض يزيد البروتين في الخبز العادي ٦٠ ٪

وتحوي حبوب الصويا مقداراً كبيراً من الدهن يستطيع الجسم الحيواني ادخاره بسهولة في مستودعاته الخاصة . وفي حبوب الصويا فضلة على بقايا الحبوب الخضراء . وتحتوي في الأقل على المواد الفسفور والكلسيوم والحديد . وتعتبر قوة دقيق الصويا يصلح لمعاونة الكسب الذي ينشأ عن الأرياف المتعبة . ومن أكثر أسباب سوء التغذية في الاشغال اليومية على غيرها من الاجناس

(١) البروتين — عنصر من عناصر مواد الطعام وهو العنصر الاولي للزلال والجبنين والفبرين والجلوتين

(٢) قد ثبت ان البروتين مؤلف من مجموعات تعرف بأملاح الاميتو

ومنافع الرطل من البروتين تعادل اكثر من رطلين من شرائح لحم البقر (البفتيك) ويساوي اربعة اضعاف وزنه من البيض والحنطة والحبوب ، وضعفي مثله من الزبدة والفول واثني عشر ضعفاً من اللبن

ولذلك اخذت المجلات الانكليزية والاميركية الصحية تحث قراءها على ادماج دقيق الصويا في أغذيتهم اليومية بأية وسيلة من الوسائل ، وتؤكد لهم أنهم متى جربوه انتشر استعماله تدريجياً انتشاراً كبيراً بدلاً من الدقيق الابيض أو مضافاً اليه ، واستغنوا به عن دقيق الحنطة الابيض باعتباره مصدراً غذائياً عظيماً

القاهرة عوض جندي

* * *

الجهاز الرحوي والنشاط الاشعاعي الصناعي

وعلاج السرطان في الغدة الدرقية

يعلم قراءه المقتطف عن طالع مقالاً في « تهشيم الذرة » (مقتطف دسمبر ١٩٣٧ ص٥٢٣) والجانب الاخير من محاضرتاه في الاشعاع قديماً وحديثاً » ان في وسع العلماء ان يحولوا بعض العناصر غير المشعة مشعة بجهاز يعرف باسم الجهاز الرحوي Cyclotron وقد صنعوا به صوديوماً مشعاً وراديوم E من عنصر غير مشع . ومما يمتاز به الصوديوم الذي حوّل عنصراً مشعاً بهذه الطريقة انه لا يطلق الا أشعة عما حالة ان الراديوم يطلق عندا هذه الاشعة دقائق ألفا ودقائق بيتا . ولذلك ذهب العلماء من البدء الى ان استعمال الصوديوم المشع في الطب لا بد أن يكون أسهل من استعمال الراديوم

وقد اطلعنا في الصحف العلمية الاخيرة على ان طبيبين طليين من أساتذة مدرسة الطب بجامعة هارفرد قد أخذا يستفيدان من مبضع الجراح في علاج النواحي السرطانية في الغدة الدرقية بالمواد المشعة اشعاعاً صناعياً

ذلك ان من المشكلات التي يتعرض لها الاطباء عند المعالجة بالراديوم او أشعة اكس اختصاص النسج المريضة بتأثير هذا العلاج دون النسج السليمة . وقد استنبطوا وسائل متنوعة لحل هذه المشكلة ولكنها لم تحقق الغرض المقصود تحقيقاً تاماً

الا ان الطبيبين سول هرتز وآرثر روبرتس عرفا ان اليود من العناصر التي يمكن تحويلها مشعة بالجهاز الرحوي . فاذا حقن اليود في الدم سار بطبيعته الى الغدة الدرقية . وقد اكتشفا هذه الحقيقة بحقن اليود المشع في شرايين الارانب ، والرأي ان ما يصح على الارانب يطب ان يصح على الناس

فاذا بلغ اليود المشع الغدة الدرقية ، من طريق الدم ، جعل يطلق اشعاعه فيها فيفعل فيها فعل ابر مغروزة فيها ومحتوية على الراديوم . الا ان اليود المشع لم يستعمل حتى الآن في علاج المصابين بسرطان الغدة الدرقية لقلته

ازالة جزء من الدماغ
لا يؤثر في الذكاء

من غريب ما روي للجمعية البيكولوجية الاميركية في اجتماعها الاخير، ان الدكتور «هب» Hebb احد اقطاب المعهد النوروالوجي بمنتريال كندا وجامعة ماكجل الكندية، استطاع في اربع عمليات جراحية ان يزيل جانباً من الدماغ في اربع حالات مختلفة من غير ان يؤثر عملهُ هذا في ذكاء اصحابها

في احدى هذه الحالات أزيل الفص الجبهي الايسر للدماغ بعملية جراحية ثم بعد الشفاء امتحن الرجل امتحاناً سيكولوجيًّا لمعرفة درجة ذكائه فاذا النتيجة التي أسفرعنها هذا الامتحان انهُ في طبقة « الموهوبين » . وقد كان هذا الرجل أيمن ، ولذلك فالجانب الايسر من دماغه كان الجانب المتغلِّب . وكان رأي فريق كبير من الاطباء ان إزالة جانب من الجانب المتغلِّب من الدماغ في هذه المنطقة تفضي الى ضعف في قوى التفكير . فلم تؤيد الحالة السابقة هذا الرأي

وفي حادثة أخرى أُزيل من المخ (ولم تشر المجلة التي نقلنا عنها الى المنطقة الخاصة من المخ) من ٤½ في المائة الى ٧ في المائة من وزنه فظل ذكاء الرجل كما كان متوسطاً . وفي حالة ثالثة أُزيل الفص الجبهي الايسر للدماغ فبدا لاقربائه أذكى بعد إزالتها منهُ قبلها ، وانما خسر جانباً من مقدرته على الاقدام في المعاملات التجارية

وقال الدكتور هب انهُ لم يتبين في المصابين الاربعة الذين عالجهم اي أثر من البلادة والجمود والهبوط والخبل بعد العمليات التي تقدّم ذكرها. وأشاد بذكر ثلاثة من الاطباء كندا في معهد مونتريال النوروالوجي ومعهد الصحة العقلية لمعاونتهم في هذا البحث الطبي النفسي الطريف

* * *

أشعة لقتل البكريات

استنبط الدكتور هارفي رنتشلر Rentschler احد العلماء الباحثين في قسم المصابيح بشركة وستنهوس الكهربائية الاميركية ، مصابيح دعاها «استريلامب Sterilamp اي «مصابيح التعقيم» في قدرتها ان تطلق شعاعة من الاشعة فوق البنفسجية طول موجاتها ٢٥٣٧ المستروم فتقتل البكريات ولا تضر الانسان

وقد استعملت هذه المصابيح اولاً في مستشفى جامعة ديوك فلما ثبتت فائدتها عمدت المستشفيات الكبيرة في الولايات المتحدة الاميركية الى استعمالها في حجر العمليات الجراحية وفي مقدمتها عيادة مايو وغيرها

ولا يخفى ان الالتهاب قد يعقب العمليات الجراحية على الرغم من ادق وسائل التعقيم

وذلك لانهُ من المتعذر الاحتفاظ بجوّ الحجرة التي تجري فيها العملية خالياً من الميكروبات . فاستعمال هذه المصابيح يفنك بها جميعاً ، وقد اسفرت تجربتها عن امتناع حدوث الالتهابات التي تعقب العمليات امتناعاً تامًّا

وقد تفرع هذا البحث من بحث آخر كان مداره السعي الى استنباط طريقة لتعقيم انواع الاطعمة بغية حفظها . ولا يخفى ان الطعي وسيلة من وسائل التعقيم وكذلك استعمال بعض المواد الكيماوية او التبريد . ولكن بعض هذه الوسائل لا تجدي في اعداد الاطعمة الغضة للحفظ كالثمار . واللحم كثيراً ما يتعفن عند ما يحفظ في المبردات . أما الآن فني وسع الجزار ان يضع في مبرّدته او في واجهته مصابيح التعقيم فتطلق شعاعها فتميت جميع الميكروبات فيحفظ اللحم نقيًّا من الميكروبات التي تفسده فيتن

ثم هناك استعمال آخر . وهو ان المطاعم الكبيرة في حاجة الى وسيلة تمكنها من تعقيم الاطباق والاكواب التي يستعملها الناس وفيهم المريض والسليم . والغسل وحده لا يكفي فاذا عرضت في مكان خاص لاشعة هذه المصابيح عقمت وغدا استعمالها سليماً من الناحية الصحية

* * *

أصل الاشعة الكونية

ألقى العلاّمة الاميركي الدكتور مليكن Millikan خطبة في أكاديمية العلوم الاميركية عرض فيها أدلة جديدة على ان الاشعة الكونية تتولد من تلاشي العناصر المنتشرة في رحاب الفضاء انتشاراً لطيفاً . ويؤخذ من مباحث الدكتور مليكن هذه ان تأثير الشمس المغنطيسي يمتد في الفضاء ويشمل المجموعة الشمسية كلها . وعنده ان العناصر التي تتلاشى في الفضاء فيفضي تلاشيها الى تولّد الاشعة الكونية هي الكربون والنزوجين والاكسجين على الاكثر تليها عناصر الصوديوم والسيكون والالومنيوم . وهذه العناصر أكثر العناصر في الكون المادي وأوزانها الذرية تتفاوت من ٦ الى ٢٨

ثم ان الايدروجين والهليوم من العناصر الكثيرة في الكون ، ولكن الاشعة الكونية الواصلة الى الارض اوالى البلونات العلمية المحلقة في الجوّ ليس بينها ما يدل على ان طاقتهُ تقابل طاقة تلاشي الايدروجين او الهليوم . وهذا حمل الدكتور مليكن على الذهاب الى ان امتداد فعل الشمس المغنطيسي ابعد مما كان يظن . لان هذا الفعل يؤثر في الاشعة التي قد تتولد من تلاشي الايدروجين والهليوم فتحرفها فتمنعها من الوصول الى جوّ الارض

* * *

— قدر أحد الباحثين ان هنود بيرو كانوا قد استخرجوا من مناجم الذهب فيها ما قيمتهُ نحو ٢٣ مليوناً من الجنيهات حتى تاريخ الفتح الاسباني

مدام كوري

سيرتها بقلم صغرى ابنتيها ايف كوري
Mme Curie by Eve Curie

في السابع من نوفمبر من سنة ١٨٦٧ وضعت زوجة فلادسيلاف سكلودوفسكي أستاذ العلمية في مدرسة البنين العالية بوارسو ببولندة الروسية فتاة دعيت ماريا فلما ترعرعت هذه الفتاة في ٤ يوليو سنة ١٩٣٤ حزن العالم قاطبة على فقدها لانهُ فقد فيها مدام كوري احد مكتشفي الراديوم

نشأت في بولندة في الثلث الاخير من القرن الماضي وفي نفسها عبقرية كامنة ، عبقرية ذهنية أساسها عبقرية خلقية واعان وطني . وتعلمت منذ نشأتها الاولى ان الحياة للعمل دائم وان ما يميز العالم عن سليله انما هو ما يكون في ذهنه وخلقه . فلما اقترنت الزوجة الصالحة بالعبقرية الموروثة نشأت شخصية فذة ليس في صفحة من صفحات حياتها سطر عادي

لذلك كان الكتاب الذي وضعتهُ صغرى ابنتي مدام كوري في ترجمة والدتها العظيمة سيرة نادرة في بساطتها وجمالها وشدتها وقعها في النفس . هو ذا مادة تصلح ان توحي الى موسيقي عظيم الآن او في المستقبل سمفونيات خالدة . وانك ترى وانت تطالع هذا الكتاب صورة ماريا من شبابها الى شيخوختها . فاذا وقفت عند الصورة الاخيرة وقد ذهبت مسحة النضارة من ذلك الوجه وعلتهُ التجون تبينت ان ذهاب الجمال لم يذهب بروعته لان نوعاً من الالق الروحي حلَّ فيهِ وأطلَّ من قسماته

كانت حياة مدام كوري منذ حداثتها حافلة بمعاني المأساة . المأساة الشخصية والمأساة الوطنية . فقد ماتت والدتها وهي دون الثالثة عشرة وكانت تتعلم في مدرسة فكان لا بد لها ان تتعلم لغة غريبة وأدبهم خاصة من الامين لئلا ينزل بها من الروس اعظم العقاب

[illegible] في الثامنة عشرة من العمر وقد تضعت عبقريتها [illegible] مطلة في دار جماعة من الصناعيين البولنديين لكي تعين بجانب من اجرها الضئيل شقيقة لها تتعلم الطب في باريس . ولما احبَّت بكر تلك الاسرة واحبها حالت الحوائل الاجتماعية دون الزواج من « مطلة » كانت هي في قرارة نفسها تعلم انها تفوقهم ذكاء وعلماً ونبلاً فجرحت نفسها ولكنها اطمأنت على الخروج وقد كتبت في خلال تلك الايام رسائل تنضح عبقرية وحكماً وحكمة — وهي في التاسعة عشرة او العشرين

واخيراً أتيح لها السفر الى باريس لتلقي العلم في السوربون في كلية العلوم فكان عليها ان تعدل كل « روبل » في حوزتها وان تسافر في مركبات البضاعة من وارسو الى باريس وان تعيش في باريس عيشة عوز وفاقة معرضة للجوع والبرد وكثيراً ما أغمي عليها لقلة ما كانت تتغذى به. ولكن عقل الفتاة الشغوف بالعلم كان الهادي لها في خضم الحياة

وأخيراً التقت بالاستاذ بيير كوري وكان من علماء الطبيعة الناشئين ولهما في ميدانها مكتشفات ومخترعات فتحابا منذ النظرة الاولى ولكن ماري ظلت تمانع في قبول الزواج على ما فيه من تحقيق لمطامعها العلمية واستقرار لمعيشتها البائسة وذلك لانها كانت ترى في قرارة نفسها ان الواجب القومي يقضي عليها بأن تعود الى وطنها لتسدي اليه ما تستطيع من خدمة. فلما رأت منه استعداداً للعودة معها الى بولندة أدركت ان ليس من حقها ان تسلب عالماً فذاً مستقبله العظيم فتزوجا وهنا بدأت تلك الشركة العلمية العظيمة التي استهلت مرحلتها الاولى باكتشاف البولونيوم والراديوم في أحوال كأنها من بنات الخيال ثم انتهت الى مأساة موت الاستاذ كوري وهو خارج من كلية العلوم يوقوعه تحت عجلات مركبة من مركبات النقل

كاد الجزع ان يقضي عليها ولكنها ما لبثت ان أدركت ان العمل العظيم الذي بدأته وإياه يقتضي منها الصبر والشجاعة فمضت فيه الى النهاية لا يستوقفها الطمع بالثروة ولا تشويها الالقاب ولا يحيد بها عن طريقها المرسوم — طريق البحث العلمي — صغيرة ما من صغائر الدنيا

انتخبت استاذاً في السوربون محل زوجها فلما ألقت محاضرتها الاولى حضرها الملوك والامراء والعلماء فاستأنقت المحاضرة في الموضوع حيث وقف به زوجها قبل مصرعه. لم تشر ادنى اشارة الى هول خطبها وفداحة خسارتها لانها كانت قد وهبت نفسها للعلم. اما حزنها فلها وحدها تنطوي عليه في ساعات وحدتها الاليمة

واذا كانت مدام كوري قد احرزت جائزة نوبل مرتين مرة مع زوجها والاستاذ بكريل ومرة وحدها فليس ذلك من المصادفات بل هو نتيجة العبقرية والجهد. وليست تريثها لابنتها ايرين — التي نالت جائزة نوبل كذلك مع زوجها الاستاذ جوليو — بأقل مقاماً في تاريخ العلم الحديث من بحوثها العلمية المبتكرة

ومن اشعة النور التي ادخلت البهجة على حياة هذه المرأة الفذة ان اتيح لها ان ترى بلادها — بولندة — وقد تحررت من قيود الغاصبين وان أتيح لها ان تسدي اليها خدمة اذ وهبتها مقداراً من الراديوم كان قد اهدي اليها جزاء لها على ما صنعت

ان كاتب هذه السطور لم يقرأ في السنوات الاخيرة كتاباً أرضى نفسه وعقله كسيرة « مدام كوري » وما ذلك الا لان العظمة العقلية العلمية في هذه السيدة حاذت عظمتها الخلقية واتسقت معها

على هامش السياسة

بعض مسائلنا القومية — تأليف الدكتور حافظ عفيفي باشا

« الصحة العامة في مصر . التعليم . مسائلنا المالية . مسائلنا الاقتصادية » موضوعات عالجها صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا في كتاب أصدره أخيراً بالعنوانين الموضوعين في رأس هذا المقال . وهي من أمهات الشؤون الداخلية التي تحتل المقام الاول في خطب العرش وتحاول الوزارات التي تعاقب في الحكم والاحزاب التي تنتمي هذه الاحزاب اليها ان تجد لها حلولاً . فاذا جاء وزير سابق وسياسي معروف بصدق وطنيته وعظيم خبرته وسعة علمه وساهم بنصيب من البحث في هذه الموضوعات الهامة فان عمله يقابل بالتقدير وما يعرب عنهُ من آراء يصادف ما هو جدير بهِ من عناية واهتمام

وقد مهد الوزير الكاتب لبحثهِ بمقدمة بسط فيها غرضه فنوَّه بأن الاستقلال السياسي الذي نالتهُ البلاد ان هو الاَّ وسيلة للاصلاح الداخلي . وقال ان مصر تملك كل وسائل الاصلاح وأسبابه غير ان بلاداً كثيرة سبقتها في ميادينهِ وهي دائبة الجري أمامنا بخطىً أسرع من خطانا والمستقبل للامم السابقة في ميدان القوة والعلم والمال . ثم قال : انهُ حاول ان يشرح في هذا الكتاب باختصار طائفة من مسائلنا لم تحل بعد وانهُ حاول ان يصف ما اعتقده حلاً معقولاً لها وهو لا يدَّعي الكمال فيما عرض من حلول فقد يصل غيره الى ما هو أحسن منها وأفضل ولكنهُ يدَّعي انهُ فكَّر طويلاً فيها كتب واستشار كثيراً من العارفين فيها اقترح ودرس المسائل التي تعرَّض لها دراسة مستفيضة »

وأجل من ذلك قوله : « لم أقصد بما كتبت مصلحة سياسية شخصية فلست من المشتغلين الآن بالسياسة الحزبية ولا أنوي الاشتغال بها وهذا ايضاً لم أقصد دعوة الناس سياسية معينة او انتقاداً لجماعة بالذات . بل أزيد على ذلك اني اقتنع بان طبيعة المسائل التي تعرضت لها هي من نوع المسائل العامة ذات الصبغة الاهلية التي يجب الاَّ تختلف فيها أسمى الجماعات السياسية لانها لا تصلح بطبيعتها لتكون ميداناً للمنافسة الحزبية ويجب ان تتعاون الجميع على ابعادها عن هذا الميدان واعتبارها مسائل قومية لا تحل الاَّ بسياسة قومية يرضاها الجميع ويؤيدها الجميع . فان جميع الحلول الممكنة والمعقولة تحتاج في تنفيذها الى زمن طويل وسياسة مستمرة وسيتداول الحكم في هذا الزمن وزارات مختلفة ولا تزال هذه المسائل في دور التنفيذ فاذا لم يتفق ساستهُ عليها هدمت كل وزارة ما بنت غيرها الخ »

وأشار الوزير بعد ذلك الى نظام الحكم الدستوري وحاجتهِ الى الاحزاب المنظمة ذات البرامج المفصلة وكيف ان احزابنا شغلت بالمسائل السياسية الكبرى وقد سوِّيت هذه المسائل فلم

يبقَ لها عذر في التأخر عن وضع البرامج المشار اليها . وانتقل الى نقد مظهر من مظاهر الحكم الدستوري فقال :

« ويجب ان يفهم انصار الحكم الدستوري في هذه البلاد ان هذا الحكم بما يقرر للجميع من حرية تامة في ابداء الرأي وبما يستند اليه من حق الجميع في الانتقاد داخل المجالس وخارجها وبما يفرضهُ على الوزراء من ضرورة الحضور الى المجالس والاشتراك في مناقشاتها والرد على ما يوجه اليهم فيها من أسئلة وتقديم ما يطلب منهم من بيانات . يقلل كثيراً من الوقت الذي يستطيع الوزراء صرفه في عمل وزاراتهم وهو العمل الاساسي الذي جاءت الوزارة للاضطلاع به . . . . ويتنظر الجميع ان تقوم بتنفيذه فوراً . . . ويعتبر تنفيذه الثمرة الوحيدة التي تجنيها الامة في النهاية من الاستقلال السياسي ومن الحكم النيابي »

قال : « والا اذا صرف الوزراء صاحبهم في مقابلات الزائرين والشاكين والمحتجين وللتسين من النواب والشيوخ والاصدقاء والناخبين ، وما بعد ظهرهم داخل المجالس النيابية للاشتراك في مداولاتها ومناقشاتها ، وليلهم في حضور الولائم وتحضير الخطب والردود على الاسئلة والاستجوابات البرلمانية فمتى يا ترى يتفرغون للعمل الاساسي الذي جاءت الوزارة للقيام به . . . . . اني ادعو مخلصاً انصار الدستور لتدبر هذه الحالة ووضع حدٍّ لها »

وختم مقدمته بقوله « ويجب ألاَّ ينسى ساستنا واهل بلادنا ان مصر بمركزها وثروتها استهدفت في جميع ادوار تاريخها المعروف وهي لا تزال مستهدفة الآن وفي المستقبل لأطماع الطامعين من المستعمرين والفاتحين ولا امل لها للوقاية من هذا الخطر الا باصلاح جميع شؤونها وتحسين جميع مرافقها وتجديد نشاطها وقوتها وتقوية جميع معدات الدفاع الحربية والعقلية والمادية فيها »

وبعد هذه المقدمة التي تضمنت ما تضمنت من صراحة في القول عرض الوزير للمسائل الاربع التي تقدم بيانها وبدأ بمسائل الصحة العامة إما لانهُ طبيب يهتم اهتماماً خاصًّا بها وإما لانه يعتقد ان الصحة اساس الحياة او للامرين معاً . وقد تناول في بحثه تحسين مياه الشرب في القرى والمجاري العامة واصلاح منازل المدن وابادة الحشرات الناقلة للامراض وتحسين غذاء الشعب وزيادة المناعة من الامراض والمستشفيات

وفي التعليم تناول سياسته وأغراضه ومناهجه واللغة العربية وأجور التعليم والعناية بصحة التلاميذ والرياضة البدنية وضرورة بناء مبانٍ للمدارس واستخدام السينما في دور التعليم والتعليم الحرّ والالزامي والجامعي والفني وقد كان جانب التشخيص للعلّة غالباً على جانب العلاج

وفي المسائل المالية تكلم عن السياسة المالية ومصروفات الحكومة وتحقيقات مشروعات الاصلاح وايرادات الحكومة والضرائب

وفي السياسة الاقتصادية تكلم عن تحسين الموارد الزراعية واختيار البذور ومساومة البحوث الزراعية العالية وتجديد الاساليب الزراعية ونشر التوعية الزراعية وبنك التسليف الزراعي وزيادة الانتاج الزراعي واصلاح الاراضي البائرة

وتكلم عن الصناعة والتجارة وكل ما يتعلق بهما وأشار بما يؤدي الى تنشيطهما واستفاض في كل ما اعرب عنه من آراء وحلول باحصاءات وأرقام وأيد في كثير من آرائه ما يكتبه الباحثون والمفكرون في الصحف في هذه المسائل . والكتاب جدير بأن ينقل منه الصحف والمجلات فصولاً برمتها لان مجرد سرد عناوين الفصول لا يدل القارىء على ما عانى الوزير من مشقة في بحثه وما ابدى من آراء سديدة

وهذا الحال لو عني المنتخب بتلخيص آراء المؤلف في مسائل الصحة والتعليم وغيرها

طه حسين — دراسة وتحليل

بقلم الدكتور اسماعيل احمد ادهم — رسالة في ٨٠ صفحة — مجلة « الحديث » حلب ، ١٩٣٨

الدكتور اسماعيل احمد ادهم شاب بشاوش الثلاثين . الا انهُ جمع بين يديه بضاعة علمية ذات شأن ، تتجاذبها الفلسفة والعلوم الطبيعية والشرقيات ، ويدل عليها تلك الشهادات التي نالها والمؤلفات التي نشرها ، وتصيبها مدوَّنة بقلم الاستاذ سامي الكيالي في مقدمة هذه الرسالة

حقًّا ان بحث الاستاذ الدكتور ادهم أقرب الى الدقة والمتانة منهُ الى التفنن والتحسين ، ذلك بأنهُ قسم موضوع بحثهِ تقسيماً معقولاً فجعل الفصل الاول تاريخ حياة طه حسين وتحليل شخصيته بالاضافة الى نشأته وتربيته الاولى والثانية وبيئته واتصاله بالحياة الفرنجية في الجامعة المصرية ثم التحاقه بالسوربون ونتيجة حياته الروحية ، ثم انهُ لم يغفل النظر في بعض الحياة الباطنة من عوامل الكبت وبرزات العقل الباطن . وفي الفصل الثاني درس مذهب طه حسين في النقد الادبي ومذهبه الفني والفصل الثالث — [illegible] — بعض آراء طه حسين في الدين وغير الدين ثم بعض آراء معاصريه فيه

وخلاصة هذا البحث المستفيض الطالب [illegible] الدكتور طه حسين العلمية « في غاية النفاسة ولكن قيمتها العلمية محدودة » لان الدكتور طه حسين « لم يستوف الكثير من التحقيقات العلمية في بحوثه » ، لاسباب يعرضها الدكتور ادهم (ص ٣٠ ، ٣١) ولانهُ « أسرف في الاستنتاج ولم يتحوط في الدراسة » (ص ٣٤) . ثم يشير الدكتور ادهم الى مذاهب الدكتور طه حسين فيراه في نقده النفسي (ص ٩٣) [illegible] ان الدكتور طه حسين ينظر الى الدين على انهُ وضع اجتماعي محض (ص ٩٧) ثم انهُ فلسفي كل شيء

وسواء أصاب الناقد او أخطأ فما لا شكَّ فيه انهُ عمد الى بحثه عارفاً بما يقول وذلك لكونه من الناحية العلمية، وغير هياب من قول ما يرى وذلك لتحرر فكره (أنظر مثلاً ص ٣٧ : جهل الشرق العربي وانظر ص ٤٠)

ومما يؤخذ عليه — بعد هذا — انهُ يستعمل ألفاظاً وتراكيب في غير مواضعها فتختلط مقاداتها على القارىء العربي . من ذلك قوله : « فيأتيك (طه حسين) بصور من الحياة فتخرج عارقة في تهويل واسراف . . . » (ص ٢٦) فما التهويل والاسراف ههنا ؟ ثم قولهُ : وتحليل شخصيته (اي طه حسين) من الوجهتين النفسية والاثنولوجية » (ص ٢٧) و « الاثنولوجية » لفظة نابية ههنا لان معناها المعروف عند علماء التاريخ الاجتماعي لا توافق ما يريد الناقد

وبالجملة فقارىء هذه الرسالة يعترف لصاحبها بالدراية بالبحث المستقيم ويخرج منها والدكتور طه حسين يبدو له في الجملة كاتباً قويًّا ومفكراً حرًّا وعالماً متفتحاً ب.ف.

محمود كامل

أنا وأنت — ٢٤١ ص من القطع المتوسط

استعار المؤلف عنوان الكتاب من مجموعة من الشعر الفرنسي للشاعر الرقيق بول جيرالدي وكان في نيته ان ينقل المجموعة الى اللغة العربية ثم بدا لهُ ان القارىء المصري لم يعتد هذا الضرب من الكتب فرأى ان يجمل الكتاب مجموعة من القصص المصرية يفصلها بعضها من بعض مقطوعة عن شعر جيرالدي

والاستاذ محمود كامل صاحب مجلة « الجامعة » يعنى بتأليف القصة والكتابة في فنونها منذ زمن غير قريب . واتجاهه في تأليفه واقعي محض فهو يلاحظ ما يجري في البيئة المصرية ثم يدوِّنهُ مع شيء من التصرف لجعل القصة قطعة أدبية تلطف مداخلها ومخارجها. والاستاذ كامل لا يعنى بتهذيب الاسلوب فهو يكتب على الفور ولا يحب مراجعة ما يكتب لالحاح قلمه على المواصلة . وفي المجموعة ما هو مكتوب باللغة العامية (رواية الخاتمة مثلاً) ، فكأن هذا الفن من الكتابة لا يزال راغباً في البقاء . ومما صدمنا في تضاعيف الكتاب ان المؤلف يقول في وصف شعر حسناء أسود فاحم أنهُ كتاج من «العاج الاسود» (!) (ص ١٤٨) . ثم انهُ بلغ به انصرافه عن تهذيب العبارة العربية الى ان ينقل بيتاً للشاعر الفرنسي جيرالدي هكذا : « ان ما يقوله الناس كلام فارغ » (ص ٧ وهي الصفحة الاولى من مضمون الكتاب) . وقد رجعنا الى النص الفرنسي فاذا هو : Ce qu'on dit c'est si vide

فما ضرَّ المترجم لو قال : ان الكلام هباء . أو ، لا ثروة فيه ، أو ، لا يعني عن الشعور شيئاً (وهو المعنى المقصود بلفظة vide الفرنسية) ب . ف .

مطبوعات الحكومة العراقية

رسائل نفيسة في آثار العراق

أهدت الينا إدارة الآثار القديمة في العراق سلسلة من الكتب الصغيرة النفيسة محتوية على وصف أشهر الآثار القديمة في تلك الربوع وصفاً فنيًّا وأثريًّا دقيقاً ومزينة بصور كثيرة حسنة الطبع ومنها رسالة في « الاخيضر » وهو قصر قديم داخل حصن منيع مشيد في قلب البادية في الجهة الغربية الجنوبية من مدينة كربلا ويبعد عنها نحو خمسة وخمسين كيلو متراً . وعند على مقربة من القصر واقع رملي يعرف بين البدو باسم وادي الأبيض . وعند الاخيضر تلتقي عدة طرق صالحة لسير القوافل توصل راكبها الى النجف الشريف والكوفة والحيرة من جهة والى عين التمر وواحات شاقة والرحالية من جهة أخرى. ولذلك يصح القول ان الاخيضر مشيَّد في موقع تلاقى فيه طرق القوافل القديمة التي كانت تمتد بين البصرة وحلب من جهة وبين وادي الرافدين وبادية الشام وهضبة نجد من جهة أخرى . ومن الغريب ان تاريخ القصر والحصن غير معلوم بالضبط على الرغم من ضخامة بنائه ودقة تخطيطه وأهمية موقعه وذلك لانهُ لا يوجد في القصر او الحصن كتابة تدل على شيء من تاريخه وليس في كتب التاريخ والجغرافية القديمة أشارات صريحة تدلُّ عليه وأقدم الاشارات التي تدل عليه دلالة أكيدة ترجع الى القرن السابع عشر حيث شاهده بعض الروَّاد من الاوربيين كدلاَّله في أوائل القرن السابع عشر ويبهور في أواسط القرن الثامن عشر وماسيڤن في أوائل القرن التاسع عشر . ولذلك ترى دائرة الآثار العراقية ان ما يعرف عن الاخيضر لا يتعدى حدود التخمين والفرض

والرسالة تحتوي على وصفه بالتفصيل وعلى الآراء فيه وعلى ٤٦ لوحة و ١٣ شكلاً

***

ومنها رسالة في جسر المستنصر الواقع على بعد تسعين كيلو متراً من مدينة بغداد شمالاً على الطريق المؤدي الى سامرَّاء فكربت ، والقرب من قصبة بلد ومحطتها وهو مشيد على مجرى نهر الدجيل باتجاه « شمال ، الجنوب » تماماً . والجسر قائم على اربع قناطر فتحة كل قنطرة من الوسيطين (...) متراً وطول الجسر التام (...) متراً وعرضه (...) متراً و ... سنتمتراً . وقد سمي هذا الجسر « جسر حربي » نسبة الى مدينة حربي التي تقع اطلالها في الجهة الجنوبية الشرقية منهُ وقد كانت مشهورة بالنسوجات القطنية . ذكرها ياقوت في معجم البلدان وفي انقاضها قطع كثيرة من الخزف . والظاهر انها قديمة وكانت تعرف بهذا الاسم في صدر الاسلام

وتحتوي الرسالة على عشرين لوحة بديعة تبدو فيها النقوش والكتابة المنقوشة على جانبيه في كامل وضوحها الفني

ومنها رسالة في خرائب بابل وبورسيبا والاولى واقعة على ٩٥ كيلو متراً الى الجنوب من بغداد عند طريق بغداد الحلة والوصول اليها متيسر من بغداد بسيارة لتستغرق ساعتين او بالقطار ويستغرق اربع ساعات . والجزء من الرسالة الخاص ببابل يشتمل على نبذة عن تاريخها ثم اخرى عن حفرياتها ثالثة عن تخطيطها استناداً الى نتائج الحفريات وما فيها من حصون وقصور ومعابد ومساكن اما خرائب بورسيبا فتبعد عن بابل نحو نصف ساعة بالسيارة

والحق بالرسالة خارطتان احداهما لبابل والثانية للمدينة الداخلية ببابل و١٢٨ رسماً وصورة لاهم الآثار وتخطيط بعضها ومن اجلها صورة ثور مغشى بالمينا من باب عشتار ومنظر تصويري لتحصينات المدينة الداخلية وآخر للمساكن وثالث لمعبد نباخ ورابع لبرج بابل

***

ان بلاداً كالعراق غنية بآثار الحضارات القديمة المجيدة لا بدَّ ان يكون فيها متحف يحتوي على نفائس لا تقوَّم بمال . ودليل المتحف العراقي الذي بين أيدينا دليلٌ ناطق على صحة ذلك ففي احد أبهائه آثار العراق القديمة التي ترتد الى عصور ما قبل التاريخ ولا سيما اواخر الالف الرابعة واوائل الالف الثالثة قبل الميلاد . وفي بهو آخر آثار تمثل غير قليل من الصناعات التي نشأت في العراق خلال المدة التي تمتدُّ بين دور الاسكندر الكبير في القرن الرابع قبل الميلاد واواخر الدور الساساني في القرن السابع الميلادي تقريباً . وقد أشرنا الى هذين البهوين للتمثيل فقط

ونذكر اننا شاهدنا في المتحف البريطاني بلندن أجل الآثار التي استخرجها «وولي» من أور الكلدانيين وهي من أبدع ما تقع عليه العين فعسى ان يتاح للعراق استرجاعها وحفظها في متحفها ببغداد

ويتبع هذا الدليل دليل آخر صغير للقصر العباسي — وهو المعروف عند الناس بقصر الدُّمرن — وهو معرض الغرض منهُ ان يحتوي على الصور والخارطات المتعلقة بمدينة بغداد ومبانيها الاثرية في الدرجة الاولى والمتعلقة بالمدن والمباني الاثرية العراقية الباقية من العهد الاسلامي في الدرجة الثانية ثم استحال بعض حجره لمعارض موقوتة تعرض فيها صور ونماذج من نفائس الآثار التي أوجدتها الروح العربية في أقطار العالم المختلفة لكي تساعد على تنمية الذوق العربي وإحياء الريازة [1] العربية في العراق

وقد وضعت هذه الرسائل النفيسة باشراف الاستاذ ساطع بك الحصري مدير ادارة الآثار العراقية فلهُ ولمن عاونهُ الشكر الجزيل

(١) المقتطف جاء في محيط المحيط الريازة حرفة الراز والراز رئيس البناءين وأصله راثر. فالمقصود على ما يلوح ما نعبر عنه بلفظ « المهارة »

سندباد عصري

تأليف الدكتور حسن فوزي مدير ادارة الاحياء المائية والصايد ٢٣٨ صحيفة من القطع المتوسط

ليس ادعى الى إبراز معارف الكاتب ، واظهار اتجاهات ذهنه ، ومبلغ تجربته وفهمه ، وتوضيح يقظة قلبه وإحساسه ، والاعلان عن شخصيته وطابعه من كتب الرحلات . فان هو حاول ونجح في اخفاء بعض هذه المزايا ، والخصائص في غير كتب الرحلات ، فهو لا ريب عاجز عنهُ فيها ، لان كتب الرحلات كالقصة تتسع لكل صور الحياة ، ولان السفر يلزم الكاتب على الاغلب كثيراً على النفس ، وانعام النظر كثيراً في معالم الاشخاص ومظاهر الاشياء ، والتشوّف كثيراً الى ما وراء الظواهر والمعالم والحنين الى المجهول ، وتقسره على اعترافات لا يقوى على كتمانها او لشبتها

فمؤلف هذا الكتاب ، طبيب في الاصل ، انصرف عن علاج الاجسام الى علوم الاحياء المائية ، فبلغ فيها رفعة ، وتسامى الى مكانة اعترف له بها علماء لا يحابون في العلم ، فكان المفروض فيه ان يبرز روح العلم في هذا المؤلف الذي اختصهُ بتدوين مشاهداته ووصف رحلته العلمية في المحيط الهندي — وهو المنتدب رسميًّا مع طائفة من علماء الانجليز لدراسة طبيعة الاحياء في أمواه ذلك البحار — ولكن نجيزة الادب المفطور عليها ، وهي غلاّبة قاهرة ، قسرتهُ على التجرد من خاصية العلم التقريري [1] وبحوثه الجافة ، فسرعان ما اندفع مع الطبيعة الصادقة يجوب اجواءها ، ويتذوق لبابها المكنون ، ولما كانت نفسهُ شاعرة مدركة ، تفقه القصد وتحيط بالمعنى ، ولما كانت طبيعة الاماكن التي زارها وكان لأهلها خليقة يمتازون بها عن قطان العصور قاطبة ، فيتمن نفسه وعقله لم يسعهُ سوى سكب روحه كلها في هذا الكتاب . فجاء يجمع بين رواء القصة ، وعذوبة الحديث وسعة الاطلاع ، واستطلاع ميول النفس وتقلباتها ، وبين درس طبائع شعوب قامت مدنيتها وحضارتها ، وشادت فلسفتها وعقائدها على دعائم صوفية ما برحت مثاراً للبحث والدرس والمقارنة بينها وبين ما جاء بعدها من مثيلاتها حتى مدنيتنا وفلسفتنا وعقائدنا العصرية

ويطلعنا في هذا الكتاب شخصية المؤلف وطابعه بادياً في محاورته القول الصدق ، أو ما يعتقد انهُ الصدق . وتصويره بعبارات غاية في الوضوح والبساطة ، وتسميتهُ الاشياء بأسمائها بدون مداورة ، وتحليله الامور وتبسيطها لغير ما تحذلق ، تارةً جادًّا وطوراً ساخراً ، ثم سعة اطلاعه ، ووافر دراسته ، ورحابة آفاقه في فلسفة العقائد ومقارنة الاديان . فالفتاة البريرية التي وقعت أمامه عارية أتما « خامت رداءها بسهولة رجوعاً الى طبيعتها وحياتها الاولى ، وان

(١) المقتطف : رأى المؤلف قصة الرحلة من ناحيتها العلمية في مؤلف آخر

جلبابها وضع من الاوضاع لم تفهم ضرورته بعد » وان غناء هذه البربرية المسلمة ورقصها «صلاة وحشية الى صنم الحرج في صحبة الشيرة تدور حول قربان آدمي » والفقير الهندي الراكب رأسه انما هو « يشخص الى ربه بقدميه » وان منظر البرهمي وقد غطى نفسه من أم رأسه حتى اخمص قدميه برماد نار اشتعلت تحت اقدام « جانيشا » قد أفزعه كما أخافتهُ جهالات هؤلاء المتعبدين المظلمة، فصرخ مردداً عبارة « جوته » المأثورة وقد قالها عند احتضاره « قليلاً من النور أيها السادة » . وان المدن المدفونة تموت كالناس موتاً طبيعيًّا ولكن «أنّى لنا الكاتب الذي يصف لنا اللحظات الاخيرة من أجل المدن المهجورة»

الانسانية الدنيا التي تسعى في ظلام الجهالة تحيط حتى الديانات السامية بخرافات تكاد تلقي اليأس في نفوس الانسانية العليا التي تسعى أبداً الى الاخذ بيد البشرية وأكثر ما تعيش هذه الخرافات وتوالد وتتكاثر في الهند ، فالبوذية فيها « حركة تحرير كبيرة من الارهاق الهندومي، من آلهتها القساة ، وفلسفتها المرهقة ، والقضاء على نظام الطبقات الظالم ، كما كانت المسيحية حركة تحرير الطبقات المذلولة في الامبراطورية الرومانية » ولان الروح الهندوسية روح استسلام وايمان ، وتجرّد تضرب مثلاً عليا للتجرد والتقوى « ولكي أومن ان الروحانيات تضيء للانسانية طريقها نحو السمو الروحي ، ولكن قوة هذه الروحانيات تضعف اذا اكتفى بها سلاحاً » بيد أن البوذية صراع ذهني بين الرجل ونفسه « وفي رأيي ان نجاح اليابان يعود بعضهُ الى بساطة البوذية (التي نأت عن الهند واستوطنت اليابان والصين وبورما وسيلان) فلست أتصور اليابان بالغة ما بلغت ، لو ان العقائد الهندوسية تنيخ فيها على عقول الناس وتخنق روح الحرية فيهم »

«وإني لمعجب بغاندي، معجب بأثر روحانيته ضد البراهمة، معجب بغاندي وأمثاله من القادة الروحيين ، معجب بكل فكرة تطهر البشرية من الخطأ . ولا ترتاح نفسي الى الحضارة الهندية، بل أفضل بلا تردد الحضارة اليونانية ، او ربيبتها حضارة أوروبا بعد تخلصها من نير القرون الوسطى ، لانها حضارة بين الروحية والمادية ، تنادي باطلاق العقل البشري من عقاله ليفكر غير مقيد ، لقد سبق فأخرجت حضارة قديمة عبادة تناسلية مرذولة ، ثم اعقبتها أخرى أخرجت عبادة الجمال للجمال ، ثم ثالثة أخرجت العبودية والذلة. ثم رابعة اخرجت الفكر الحر والاحساس الرفيع. اما في اوروبا فقد خرج الفرد يبحث عن الحقيقة والجمال ، نوجد شجرة المعرفة فأكل منها »

هذه بعض لمحات من كتاب « سندباد عصري » وفي زعمي ان آيته توطئة قال فيها «درجت على حب الغرب والاعجاب بحضارة الغرب ، وقضيت أهم ادوار التكوين من عمري في اوربا ، فتمكنت اواصري ، وتقوت دعائم إعجابي ، فلما ذهبت الى الشرق ، عدت الى بلادي ، وقد

استحال الحب والاعجاب إعجاباً بكل ما هو غربي » . ثم عاد فانفرد لهذه التوطئة فصلاً خاصًّا « الشرق والغرب » هو بمنزلة الجذع تفرعت منهُ غصون الكتاب قال في ختامه « ولكني وقد عرفت بعض ما أحب ان اعرف عن الهند ، وعرفت بعض ما أحب عن اوربا ، أشد ايماناً بالغرب وحضارة الغرب ، واكرر قولي ، مهما كانت الاخطاء التي ارتكبت فان فضيلة هذه الحضارة (الغربية) التي تملك اداة اصلاح ذاتية هي « التفكير الحر »

ليس الكتاب مجرد وصف مشاهدات ، وانطباع عادات ، ودراسة فلسفة ، وزيارة معابد ، وانما هو صرخة داوية في اذهان من لا تكفيهم الاشارة ليفهموا معاني التفكير ، والحياة الحرة ، والاحساس الانساني . وقد خرج المؤلف عن جزائر سيشل . وفي شرائع « ما هي » يتأثر خطوات الزعيم الخالد ، الذي عانى في سبيل تحرير بلاده ، لا في عنفوان شبابه ، وانما في انحدار شيخوخته ، وحج الى مثل الزعيم الذي لم يقهر وجاس موطئ اقدام الحرية التي لا تغلب

قلت ان المؤلف رجل عربي الاصل ، ولكنهُ اديب وفيلسوف ، إلا ان أدبه وفلسفته قائمان على حياة فيها نشاط باد تشيع فيها الروح وتدب

لزم السفينة طوال تسعة اشهر لم يكن يطأ الارض في خلالها إلا مرات معدودات فلقي مرة الراقصة البريزية وقد تحدثت عنها ثم لقي ابنة البنجاب وهي « هذا الشرق الطويل العريض الفارغ ، هي تلك الشعوب التي ما زالت تفكر وتحس باحساس القرون الوسطى » ولقي مرة ثالثة فتاة مجوسية من اتباع زرادشت فاختلفت ذكراها في مخيلته بعادة الدفن عند المجوس ، وهي بالدفن « التعريض باجساد الموتى » ويقول « المجوس لا يدفنون موتاهم ولا يحرقونهم ، وانما يتركونهم للطير تلتف عظامهم تنظيفاً » ولقي مرة رابعة فتاة انجليزية مستوطنة عباسا فرآها تختلف عن الفتيات الانجليزيات اللواتي رآهن « ستر الانوثة وانتصار الرخاوة » والفضل في ذلك عائد الى جو الشرق الاستوائي الذي جعل المرأة الانجليزية « مزدوجة التأثير »

اختتم المؤلف البحوث الثلاثة في الكتاب فاقتطف اطايبها او لعل أكثرها ، وحسبي ان اقول ان جولة الدكتور حسين فوزي في المحيط الهندي قد استكملت تسعة شهور ثم ولد بعدها هذا الكتاب . وجب ان تقرن ذلك حتى بدأت في قراءته ، فلن تتركه حتى تأتي على صفحته الاخيرة ، وتجد نفسك شوقاً ورغبة الى قراءته مرة ثانية

أوصيك ايها القارىء بأن لا تتحرج اذا صدمتك بعض كلمات في الكتاب لا وجود لها في معاجم اللغة مثل « استكرد » وسفر كتابي ، وشكّ مقاب ، نقشهُ شلّوت او بوتيه » وغيرها من الكلمات الدخيلة التي يحلو للمؤلف إقحامها ليسوّغ دعوة له مزمنة في العامية الفصحى ، فان تمثيل هذه الدعوة لا يخلو من سبحات روحية فياضة بأسمى معاني الاعراب عن خلجات النفس

في يقظتها وفي غيبوبتها إن بالايماء والايحاء ، او بالنظرة او الرنّة ، او بالقطة السرقية او الخوشية ؟ ما شجرة من الاشجار لولا الروح التي تنفخها القبضة البشرية فيها ؟ ما السماء والارض والموج المزبد يتكسر على الشاطئ الرملي ، وما القمر يتكسر على مرآة البركة الهادئة لولا النفس الحساسة تتصل اتصالاً غير مفهوم بما لا تفصح عنه الطبيعة بلسان ؟ فقد لا تكفي العين والاذن لادراك روح الجمال »

«العقائد للنفوس البسيطة ، والانسانية الدنيا هي والاحساس الغني عند اهل الثقافة العليا ، طريق واحد لنتيجة واحدة : هز النفس البشرية هزّاً يرضيها عن الاحساسات المادية ، وطلاب الجسد الى الدرجات الفكرية التي هي ملك خاص لهذا الحيوان المفكر ، حظي بها دون جميع ما عداه من الحيوانات الاخرى» . ولقد استطاع الدكتور حسين فوزي ان يهز النفس الشرقية هزّاً اتمنى لو يؤلها فيطهرها من الاحساسات المادية ليرتفع بها الى الدرجات الفكرية فاستوجب الثناء

القاهرة حبيب الزحلاوي

ملحق تاريخ الآداب العربية

لكارل بروكلمن

ان المستشرق الاكبر الاستاذ كارل بروكلمن من أبعد المشتغلين بالشرقيات صيتاً واعلاهم قدراً وأرسخهم علماً وأوسعهم اطلاعاً . واعجب ما أتى به هذا العالم انهُ وضع تاريخ آداب اللغة العربية سنة ١٨٩٨ اي وهو في العقد الثالث من عمره . فالتفت الانظار اليه واتخذ مؤلفهُ حجة ودعامة في الشرق والغرب على السواء ، واليه رجع جميع من كتبوا في ذلك التاريخ امثال جورجي زيدان ونيكلسون وهرار وغيرهم . ولم يفتر الاستاذ بروكلمن عند هذا الحد ، بل وضع بعد هذا ، معجماً سريانيًّا وأخذ يكتب الرسائل ويشترك في اخراج مجلات الاستشراق الالمانية وها هوذا اليوم ينشر ملحقاً ضخماً لتاريخ آداب اللغة العربية المذكور . وقد ظهر من هذا الملحق الجزء الاول ونصف الجزء الثاني ، فجاء ضعف المؤلف الاول لما زاد عليهِ المؤلف من المصادر والمراجع والموضوعات . ومن يتصفح الكتاب تأخذه اساليب الاناة العلمي المتزم وطرائق التدقيق والتقصي . ونعود الى الكتابة فيه باسهاب يوم يتم ظهور الجزء الثاني ب . ف .

***

بدرت هفوتان في مقالي « تآليف المستشرقين » المنشور في « مكتبة المقتطف » للعدد الماضي . احداهما : « فرنسيس كرنكو » (ص ٥٩٩ ، س ١٠) والصواب : فريتس كرنكو — والاخرى : « الاب ملشور » (ص ٥٩٨ ، س ٢٠) والصواب : ملشيور ب ف .

الدسائس والدماء

صحف مطوية من تاريخ مصر الحديثة تكشف عن عظمة الشعب وبطولة زعمائه — تأليف احمد خيري سعيد — ١٤٨ صفحة من القطع الوسط اخرجته مطبعة دار الترقي بمصر

لقد نهل الاستاذ احمد خيري سعيد من العلم اولاً ثم نهل من الادب . فلقد اوشك ان يكون طبيباً لما أن طغى عليه الادب واستأثر به ، فترك المشرط والسماع الى الصحيفة والدواة . ولست اعلم أي الاداتين كان اولى به وأجدى عليه . أما الثابت فهو ان الادب قد استفاد به واستنارت بمجهوده جهات من أدبنا الحديث للاستاذ خيري سعيد فيها أثر ثابت . ولقد كان لمواهبه الطبيعية أثر كبير في نجاحه . فهو حلو الدعابة دائم المرح عميق الشك رضي النفس حسن العشرة . جده مزيج من الاستهتار بالاشياء مهاجلست ونظرة عميقة في حقائقها مسوقة في فكاهة ، لونها الظاهر حلو آخاذ ، وباطنها مرارة تحرج الصدر وتبئس النفس . وهذه صفات قلما يحتاج اليها طبيب ولكن كثيراً ما تكون عدة الاديب للنجاح وأداته في طبع بيئته يطابع يستمد من خصائصه النفسية

جماع هذا تدركه مصوراً في لوحات مقروءة من كتابه هذا . فان « الدسائس والدماء » لم تقو على ان تنزع من المؤلف دعابته ولم تقو على ان تحول بينهُ وبين استهتاره بمن أنحدر من ابطاله في هوة العدم . ولكنها كذلك ابرزت صورة من سوآت الحياة والتطاحن على الحكم واشياء الدنيا تصير النفس بتلك الكآبة التي يحلو للمرء ان يعيش في ظلها ساعات مستبئساً بها على تلون حياته وخطرات نفسه بذلك اللون الداكن المعتم ، فراراً من حسن ظنه بالدنيا ، بعد ان يكون قد أمن في حسن الظن بها

* * *

والكتاب في مجموعه « رواية » تاريخية تظهر لك الحياة في عصر قريب من عصرنا هو آخر عصر المماليك . فاذا قرأتهُ وارتسمت صوره في مخيلتك عجبت كيف استطاع هذا الشعب المصري ان يخرج من تلك الغمرة التي شملتهُ حينذاك متنصراً وكيف بنى هذه المدنية التي تقوم من حولك وكيف أصبح شعباً حرًّا دستوريًّا اخذ يمد ببصره نحو المستقبل البعيد ويرجع بذاكرته الى الماضي السحيق ليستمد من القدم ومن الازل قوة يستعين بها على اقتحام طريقه الملتوى في عصر الحديد والنار . كل هذا تقرأه في أسلوب بيِّن منسق وفي فصول صوِّرت بعبارات وصفية تكاد تدرك منها ما سيتلوها ، كالستار المتقن فوق المسرح يوحي اليك بما سترى قبل ان ترى . ولا شك في أن الكتاب ابتكار جديد ، ومن نوع مشوق جمع بين الفن القصصي والحقائق التاريخية وما أحوجنا اليها معاً ، الى القصة والى التاريخ

رسالة المنبر الى الشرق العربي

٣٤٥ صفحة من قطع المقتطف — طبع بمطبعة المستقبل بالاسكندرية

ليس هناك ما هو أقرب الى التمثيل والتشبيه للخطيب المصقع والاديب المفكر الاستاذ فليكس فارس من الشلال الهدار المتدفق في قوة وعزم ، الساخر بالارضاع والحواجز ، المتشعب بقوة الاندفاع في منبسطات الاودية ومنعرجاتها!

نعم ، إنك لتقرأ لفليكس فارس ما يلقيه على الناس من منابره فتحس في كل حرف نبرة من صوته ، وصدى لصرخاته بملأ كيان نفسك ، وما تزال تقرأ أو تستمع والحديث يستطيل ويتشعب فلا تدري ما الذي ساقك الى ما انت فيه وما سوف يسوقك اليه حتى يردك الى مجرى حديثه ويعود بك الى غايته وقصده

وكأنما الشرق كان قد جمع في قوة فليكس وصباه تلك الميزة القوية التي شبت وقويت بعد ذلك فاستطاع بها ان يستهوي الجماهير بسحر لفظه واندفاع بيانه وحرارة القائه فبث فيه أكبر ما يستطيع صدر ان يحمل من معاني الحب والتقدير لوطنه حتى يذيبها على الناس ويمجدها . فهو يقول انه نشأ نشأة الفطرة الشرقية المحررة من كل انطباع غريب في الفكر ومن كل استهواء دخيل في العاطفة . ولذلك فانه يشيد في كل محاضراته بما للشرق من مدنية قديمة تسحره فلا يرى حسناً الا فيه . وتستولي عليه فكرة جليلة ما يفتأ يذيعها بين سطوره — فكرة الوحدة الشرقية ونبذ الخلافات الطائفية والقومية . فما يختلف شرقي عن شرقي في الغاية التي اتجهت اليه حنيفة دينه ، ولا اختلف واحد منهم عما يحس الآخر من آلام وما يتلج في صدره من رغبات . . .

وقد تناولت رسالته شتى الموضوعات الادبية والاجتماعية التي عالج فيها ما عالج من علل وأتى طبنا فيها من احساسه ومشاعره ما تفيض به روحه وما استلهمته من ينابيع الشرق الثرة التي تستهوي الكثيرين في هذا العصر المادي الذي أظمأ جرده النفوس الى نهلات من تلك الينابيع ، وقد أثبت بين هذه المباحث قطع من عيون شعره ولعل أروعها قصيدة « هاتف الخلود »

* * *

ولجبران خليل جبران النصيب الاكبر من هذه الرسائل فقد حلل المؤلف في فصل من الفصول نشأة جبران وحياته وشرح في سياق كلامه كتاب النبي ، وعاد بعد ذلك الى جبران في فصل آخر على اثر صدور كتاب مخائيل نعيمة فناقشه فيه — وان كان ما أورده في الصفحة ١٦٣ رداً على ما جاء بكتاب النبيه في الصفحات ٣٠ و٣١ و٣٢ من كتابه ردوداً غير مقنعة —

إلاَّ أنهُ نجح في التدليل على بعض الوجوه الاخرى . ولعلَّ ما هال المؤلف من المواقف التي صوَّرها النعيمة — بل ما هال الكثيرين من المحبين بجبران — هو الذي دفع بهذه الحرارة الى قلم الاستاذ قنبكجي فاورى فرأينا صفحات رائعة من الروح الشعري كتبها الادب العربي . . . ولعلَّ ذلك خطوة نحوَ الإخراج صورة أخرى عن جبران كما يراه هو

كذلك الفصل الذي تناول فيه الصافة الشرقية بالدرس والتحليل ثم استطرد منهُ الى الكلام عن شاعرية فوزي المعلوف وعن مقدمة شاعر أسباني فلاسازا المنشورة في ديوان « على بساط الريح » وهو من أبدع هذه الرسائل

ومن أمتع الفصول وأولاها بالمناقشة بحثه « مناهج الاطفال » الذي عالج فيه مشكلة من أهمّ مشكلاتنا الاجتماعية هي اصلاح الاسرة . وفيه يتجلى تدفُّق الكاتب وتنوُّع حديثه وتشبُّعه بكل طرف من أطراف موضوعه

السيرفي

المنصورة الثانوية

اهدت الينا مدرسة المنصورة الثانوية صحيفتها المدرسية التي يشترك في تحريرها طلبة المدرسة فوجدناها طرفة جميلة في طبعها وتنسيقها وتحرير موضوعاتها . ورأيناها غنية بفنون شتى في العلم والادب اما ابواب المجلة فقد تناولت الشعر والقصة وباباً طريفاً في النقد والفكاهة وأبواباً أخرى في العلم والاخلاق والاجتماع والبيئة المدرسية والنشاط المدرسي . وكلها محررة بأقلام نتوقع لها مستقبلاً عظيماً في عالم الكتابة كما نرجو لها مستقبلاً أعظم في بناء مجد الوطن

والصحيفة مصدرة بصورة حضرة صاحبة الجلالة الملكة فاروق فكلمة التقدمة لحضرة الفاضل الاستاذ سيد برهم ناظر المدرسة

ومما لاحظناه في تحرير هذه الصحيفة انها أفردت باباً خاصًّا للقرآن الملكي السعيد فدلت على الولاء للبيت المالك الكريم . وأفسحت صدرها للشعراء من طلبة المدرسة تشجيعاً لهم لعلَّ منهم من يكون الشاعر الفذ الذي يصوِّر البيئة تصويراً صادقاً

أما القسم الافرنجي بالصحيفة فقد قام بتحريره أيضاً طلبة المدرسة بالفتين الفرنسية والانجليزية

والحق ان « المنصورة الثانوية » قد فتحت سبيلاً جديداً في التحرير الصحفي المدرسي ودلت بجمال طبع مجلتها وطرافة موضوعاتها وحسن تنسيقها على ذوق الذين قاموا بتحريرها أو بتنسيقها

على كيفك

شاعت في الولايات المتحدة الاميركية وانكلترة في العهد الاخير طريقة إصدار مجلات في حجم الجيب او أكبر قليلاً تحتوي على مقالات وفصول مختارة من المجلات السيارة والكتب ولكنها ملخصة بحيث لا يرهق طرفها القارىء المستعجل ولا يفوّت عليه قصرها ما ينطوي فيها من فائدة . والمجلة التي شقت هذا الطريق مجلة « ريدرز ديجست » الاميركية ثم تلتها مجلات أخرى من نوعها ولكنها لم تجاوزها في الغالب لا تجاوزها

وقد رأت إدارة مجلة المقتطف المصوّرة ان خدمة الثقافة العامة في مصر تقتضي انشاء مجلة عربية من هذا القبيل فعمدت الى انجاح صاحبها لتفضل باصدار هذه المجلة فاذا « على كيفك » المجلة الاولى من نوعها باللغة العربية وعلى نمط المجلات الاوربية والاميركية التي تقدّم ذكرها

فصول هذه المجلة تجمع بين الجدية والتسلية وهي تقع في ثمانٍ وستين وعشرين صفحة مزينة بالصور الكثيرة وبست عشرة صفحة من الصور المطبوعة بطريقة الروتوغرافور

وحبذا الحال لو عنى محرّر هذه المجلة بتلخيص بعض المقالات التي تنشر في المجلات والصحف العربية بعد استكتاب أصحابها فتكون « على كيفك » رابطة جديدة من روابط الثقافة بين البلدان العربية الشقيقة

دليل لبنان

لبنان مصيف مصر لبلدان الشرق الادنى والشرق الاوسط فقد حباه الله من المزايا الطبيعية ما يجعله [illegible] وقد نفى الشعراء [illegible] بالطرق اتقاناً تامّاً ومسرة [illegible] والنصرانية [illegible] عظيمة لما يحيط بها من [illegible] الاصطياف بالنزل الكبيرة [illegible] في البهجة والنظافة وتوفير اسباب الراحة والرفاهية

بهذا قدم صاحبه خليل بك ثابت دليل لبنان الذي طبعه شركة فرج الله لنسياحة وفي الدليل بيانات وافية عن كل مصيف من مصايف لبنان مع بعض صغيرة عنه وعن طرق المواصلات والفنادق والمنازل للاستئجار وغيرها

فهرس الجزء الأول

من المجلد الثالث والقسمين

١ ظواهر الجو وأحواله

٩ أثر الأمراض المتوطنة في كفاءة الجندي المصري : للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك

١٧ الشعر والحياة (قصيدة) لفليكس فارس

١٩ المعدة والأمعاء : بحث طريف في طبائعها المتقلبة

٢٣ الفن الأكبر : لميخائيل نعيمه

٢٩ الحياة الفكرية في عهد الشدة وعصر الاستقرار : لعلي أدهم

٣٣ الدستور والثمرات المنتجة : لأنيس المقدسي

٤٢ حضارة البابليين : تقهقر مصادره

٤٧ أبو العلاء المعري ونظره الى الحياة : لعبد الرحمن شكري

٥١ بعد عهدي بعلم الفلك : للدكتور فارس نمر باشا

٥٩ أحمد علي الاسكندري ومذهبه في اللغة

٦٣ لشوء علم الطبيعة : كتاب اينشتين وانفلد

٦٥ المذاهب الاشتراكية : لحليم دمرجي

٧٢ من أنت ؟ (قصيدة) : نقلها الدكتور اسماعيل أحمد أدهم

٧٣ قاهر البحار (قصة بحارة) : نقلها محمد سعد فوزي

٨٥ حديقة المقتطف * مختارات من الشعر الرائع للشاعر الفرنسي بودلير : الجمال . الخمرة للجمال . سمو . وسالات . الغريب : نقلها خليل هنداوي . بطرس وما صنع للشاعر الفرنسي ايكار : نقلها أحمد أبو الخير مطر . من الشدي الى الابتسام الطاهر : للسيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

٩٧ سير الزمان * البحث الذاتي وبدء الانهيار في تسوية الحرب الكبرى : بولندا وروسيا . النمسا وايطاليا

١٠٥ باب المراسلة والمناظرة * شحم وفروه . للأديب أنستاس ماري الكرملي

١١٠ باب الأخبار العلمية * البعثة الصينية وما نعها المتعددة : لعوض جندي . الجهاز الرحوي والنشاط الاشعاعي الصناعي . رسالة جديدة من الدماغ لا يؤثر في الذكاء . أشعة الفتن الميكروبات . أصل الأمة السكوية

١١٦ مكتبة المقتطف * مدام كوري . سيرتها بقلم صغرى بناتها ايف كوري . على هامش السياسة . طه حسين . دراسة وتحليل . محمود كامل . آثار وآثار . مطبوعات الحكومة العراقية . مستودع مصري . ملحق تاريخ الآداب العربية . الدستور والدساتير . رسالة التبشير في الشرق العربي . المنصورة الثانوية . على كيفك . دليل لبنان

صورة مجنون ليلى بين الحيوانات في الصحراء . من عمل مصور مبرز في مخطوط من قصائد الشاعر نظامي محفوظ بالمتحف البريطاني ومكتوب بقلم الخطاط الايراني المشهور شاه محمود نيشابوري . وقد بدأه لشاه طهماسب في تبريز سنة ١٥٣٩ وانتهى من كتابته سنة ١٥٤٣

انظر ، مقدم في فن الايران صفحة ٢٣٩